حدائق الخالدين

علي ناصر محمد
حدائق الخالدين
مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف متفرع من شارع
شمبليون – عمارة ج - وسط البلد
تليفون: 20225743534+
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com
رقم الإيداع:
2022/
الترقيم الدولي:
ISBN:
الطبعة الأولى
2022
أروقة للدراسات والترجمة والنشر

علي ناصر محمد

حدائق الخالدين

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب لا يعبّر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها.

مقدمة

كانت الأولوية بعد الاستقلال وقيام جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في 30 نوفمبر 1967، دون شك، لمواجهة التحديات الكبيرة التي برزت أمام الدولة والحكومة الجديدة، وهي في مجملها كانت تحديات سياسية واقتصادية وعسكرية وأمنية لتثبيت أركان النظام الجديد... لذلك، انصبّ الاهتمام في المراحل الأولى من عمر تجربة اليمن الديمقراطية على محاولة حلّ تلك القضايا التي انصبّ عليها الاهتمام والنقاشات، وحظيت بالنصيب الأكبر من المشاريع التنموية، وكان ذلك الاهتمام مبررًا وطبيعيًا، إذ كانت الجمهورية الوليدة تواجه تحدي الوجود والبقاء وسط تحديات ومخاطر داخلية وخارجية، لم تخلُ من الصراعات بين القيادات وقوى الثورة نفسها والثورة المضادة أيضًا، ما ضاعف من الصعوبات والتحديات.

لكن سؤال الثقافة والاهتمام بها لم يكن غائبًا بالمطلق، وإن لم يحظَ بالأولوية التي كان يستحقها، وهي قضية هامة، باعتبارها جزءًا متكاملًا مع أيّ بناء سياسي واقتصادي واجتماعي وفكري.

وبعد مرور عدة سنوات، تولدت لدينا قناعة بأنه لا يمكن بناء نظام وعلاقات جديدة في المجتمع بالمكونات والأدوات

السياسية والاقتصادية والأمنية وحدها، دون أن يكون للثقافة بمعناها العميق والواسع كرؤية شاملة للحياة والمجتمع، حضورها بوصفها رافعة للمشروع الوطني الحضاري الذي كنا بصدد بنائه باعتباره حاملًا فعالًا لعملية التطوير والتحديث المنشودة.

كان الاهتمام بالثقافة في مراحل التجربة المختلفة على هذا النحو أو ذاك، لكن سنوات الثمانينيات من القرن العشرين المنصرم 1980 – 1985م شهدت عناية أكثر بالثقافة والمثقفين، فاهتُمَّ بالأدباء والشعراء والفنانين، وتوافرت فرص لم تكن متاحة من قبل لهم في نشر إبداعهم وإنتاجهم وفقًا للتوجهات الجديدة السياسية والفكرية التي لا تحجر على الفكر والإبداع، أو تفرض ثقافة أُحادية الجانب وفقًا للإمكانات المتاحة، وقد خلق هذا المناخ الجديد علاقة تضامنية بين الدولة والمثقفين، إلى درجة يصدق معها القول: "إنك إذا رأيت الأدباء والمثقفين والمبدعين على باب الحاكم، فبئس الحاكم، وأما إذا رأيت الحاكم على أبواب الأدباء والحكماء وفي مجالسهم، فنعم القائد والحاكم".

كانت تلك السنوات هي التي شهدت إطلاق حرية الكاتب، وانتشر خلالها الكتاب بما حمله من مضامين وطنية وإنسانية في شتّى مجالات الأدب، وكانت دار الهمداني تصدر مئة كتاب في العام للأدباء والمثقفين.

وازدهرت عدة فنون، كالغناء والرقص الشعبي والمسرح والفنون التشكيلية، وكنا نحتفل سنويًا بما سُمِّي حينها الأعراس اليمنية، لعرض الفنون والعادات والتقاليد الشعبية في كل المحافظات، فضلًا عن العناية بالتنقيب عن الآثار وصيانة المدن والمواقع التاريخية.

على الرغم من أن اليمن، شمالًا وجنوبًا، يحتوي على مخزون ضخم من الآثار والنقوش، وعلى حضارة متنوعة تشكلت خلال مراحل تاريخية طويلة مرّت بها اليمن، إلا أنها بكل أسف لم تحظَ بالاهتمام الذي تستحقه ثروة كهذه من قبل الدولة وحكوماتها المتعاقبة... بل الأخطر من ذلك، ما تعرضت له آثارنا من عملية سرقة ونهب منظَّم من قبل لصوص الآثار وتجارها، وخاصة في الشمال وبعد الوحدة في الجنوب. وليس ذلك فحسب، بل إنّ بعض المسؤولين في اليمن، وفي غيره من البلدان العربية، شركاء في هذه العملية، ما يشكل تحديًا حضاريًا، إذ إنه تجري عملية تجريف لحضارتنا وتراثنا وثرواتنا التاريخية، بالإضافة إلى ثرواتنا المادية.

ولعل من المناسب أن أستشهد هنا بحادثة واحدة من حالات سرقة مخزوننا الحضاري وبيعه، وقد كنت شاهدًا عليها بالصدفة. إذ جاءني يومًا أحد شيوخ اليمن الكبار في مقر إقامتي بدبي، حاملًا حليً ولُقىً أثرية لا تُقدَّر بثمن، وصورًا قال إنها لـ (عرش) أو كرسيّ ملكة سبأ (بلقيس)، وقال لي الشيخ إنّ

الشخص الذي هرّب هذه المقتنيات الثمينة من اليمن موجود في دبي لتسليمها لتاجر ألماني من تجار تهريب الآثار الدوليين مقابل ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار أمريكي.

حزّ في نفسي أن تتعرض آثارنا، ويتعرض تاريخنا للبيع على أيدي مَن لا يقدّرون قيمتها التاريخية والحضارية، وأن تُهرَّب إلى الخارج، فلا يستطيع البلد استعادتها، بالرغم من وجود قوانين دولية تحرِّم الاتجار بالآثار، أمكن بفضلها بعضَ الحكومات العربية استعادة بعض منها، مثل مصر ولبنان والعراق وغيرها، لكن الكثير منها لا يزال خارج بلدانها الأصلية، بعد تهريبها بواسطة شبكات عالمية منظمة تستغل جهل بعض أبناء هذه البلدان، وأحيانًا بتواطؤ من بعض مسؤوليها.

في محاولة مني لإنقاذ تلك الثروة التى لا تُقدَّر بثمن من الضياع، اتصلت بديوان الشيخ المغفور له زايد بن سلطان، وشرحتُ باختصار الموقف، ثم التقيت وزير الدولة الإماراتي لشؤون الرئاسة، وعرضت عليه تلك الحُليّ واللُّقى التي يرجع تاريخها، كما قال صاحبها، أو سارقها، إلى العهد السبئي، واقترحت عليه أن يدفعوا له الثمن الذي يطلبه مقابل الحفاظ عليها بدل أن تذهب إلى تاجر آثار ألماني، وتُهرَّب إلى الخارج، فلا نعرف لها أثرًا، وتضيع إلى الأبد.

كانت نظرتي أنّ من الأفضل أن تكون تلك اللُّقى الأثرية الثمينة بيد دولة عربية شقيقة لن تطمع فيها، وقد تعيدها إلى

اليمن في يوم ما، في الوقت الذي تطلبه أو تتهيأ فيه الظروف لذلك، وهي التي أعادت بناء سد مأرب التاريخي.

بدا وزير الدولة لشؤون الرئاسة مقتنعًا بوجهة نظري، لكنه قال إنهم سيرسلونها إلى سويسرا لفحصها والتيقن من صحتها، وبعد إرسالها وفحصها جاء الجواب بأنها فعلًا أثرية، وترجع إلى تلك الفترة، وغير مقلدة أو مزورة، لكنّ السويسريين نصحوا بعدم شرائها، لأن ذلك يتعارض مع القوانين الدولية التي تحرّم التجارة بالآثار، وقد أعادوها وأعدتُها بدوري إلى الشيخ، وبعد أن سُدَّ في وجهي هذا الباب الذي كنت آمل منه إنقاذ تلك اللُّقى الأثرية من الضياع، اقترحت على الشيخ أن أتصل بالرئيس علي عبد الله صالح، وبوزارة الثقافة اليمنية ليدفعوا له الثمن الذي يطلبه لإعادتها إلى اليمن، لكنه رفض ذلك بشدة، خشية ألّا يدفعوا له ثمنها، أو أنهم - كما قال - سيبيعونها ويهرّبونها لمصلحتهم، كغيرها من الآثار والمخطوطات التي سُرقَت وبيعَت خارج اليمن. وعلمت فيما بعد أنها بيعت لأحد الأمراء الخليجيين، واختفى أثرها، وأحزنني ذلك كثيرًا، لأنها ذهبت إلى أشخاص لا يقدّرون قيمتها التاريخية العظيمة، وفقدت اليمن كنزًا من كنوزها، كما فقدت غيره عبر أجيال وأجيال.

اهتمامي بالثقافة - حتى وإن أوردتُ بعض أسماء الأعلام الذين اهتممتُ بهم - لم يكن اهتمامًا بأفراد مثقفين وموهوبين من الأدباء والكتاب والفنانين، بقدر ما كان اهتمامًا بالثقافة

بمعناها العام والشامل، بوصفها قيمة إنسانية رفيعة. ولهذا إنّ الاهتمام شمل مختلف فروع الثقافة، من مسرح وغناء ورقص شعبي وتنقيب عن الآثار، وحفاظ على المدن التاريخية والمعمارية. كنت حريصًا على أن تزدهر الثقافة كافة. وكنت أعتقد أن الدولة بحكم مسؤوليتها عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية مسؤولة أيضًا عن تنمية القطاعات الثقافية. بل هي ضرورة أساسية مثلها مثل الطعام والملبس والسكن والتعليم. وبالتالي لا بد من الإنفاق عليها.

والإنفاق على الثقافة لا يمكن أن يكون من الكماليات أو من باب الترف أو الصرف على ما لا طائل منه. فالثقافة، وإن على المدى البعيد، سرعان ما تحوّل الناس إلى قوة منتجة، بما تضفي عليهم من معرفة، ومن لطف وذوق وحسن معاملة وهدوء أعصاب. وكنت أؤمن بأنّ الاهتمام بالثقافة، وإعطاءها ما تستحق، اهتمام بالقُوى البشرية والموارد الاقتصادية الأساسية... وبالإنسان.

علي ناصر محمد

الفصل الأول

الآثـــار

الآثـــار

كثير من الحضارات عاد إلى الظهور بفضل الجهود التي بذلها علماء الآثار في مختلف المراحل من تاريخ اليمن، وخاصة عندما بدأ الاهتمام من المستشرقين. وكانت أول بعثة ظهرت في اليمن، بعثة نيبور التي غادرت كوبنهاغن، قاصدة اليمن في مطلع عام 1761م، والتي جابهت الكثير من المخاطر، وسقط أعضاؤها من العلماء والفنيين صرعى المرض، ولم ينجُ منهم سوى كارستن نيبور، الضابط الذي لم يعد إلى بلاده إلا في عام 1797م، وألّف كتابه المشهور "من كوبنهاغن إلى صنعاء".

تُعَدّ رحلة نيبور بدايةً لمجيء المستشرقين وغيرهم من المدنيين الزوار العاديين الذين يهتمون بالآثار، وبعضهم لعمل استخباري. وفي هذه المرحلة قام الدكتور ستزن الذي سعى صيف 1810م للحصول على النقوش التي أشار إليها نيبور، لكنه لقي حتفه في أثناء رحلته عام 1834م.

عثر الضابط البحري الإنكليزي جيمس ريموند ولستد، على الحصن المعروف حاليًا بحصن الغراب، الواقع على الشاطئ أمام بلدة بئر علي، شرقيّ بالحاف، حيث وجد هناك نقوشًا أثرية ذات أهمية تاريخية، ويرجع تاريخها إلى عام 640 من

التقويم الحميري، حوالى عام 525م. وولستد نفسه هو الذي اكتشف في عام 1811م موقع الخرائب المعروف بـ "نقب الهجر" الواقع غربيّ وادي ميفعة في شبوة.

وفي صيف 1836م زار صنعاء كل من هلتن وجروتلدن، وقد وجدا في صنعاء نقوشًا سبئية قصيرة، وقام الباحث كون فريدت بزيارة لحضرموت عام 1843م، وشاهد نقشًا مكونًا من خمسة أسطر في موقع أُطلق عليه اسم قبنه (الميناء) في الداخل إلى الشمال من قنا (قانا) من الساحل بالقرب من حصن الغراب.

وكانت أول نقوش تنشر بالحروف الأصلية (المسند) هي تلك التي حصل عليها الصيدلي الفرنسي توماس جوزيف أرنو، الذي زار مأرب وعثر على نقوش تتحدث عن صرواح العاصمة السبئية الأولى، وكان ذلك في عام 1843م، وقد بلغ مجموع ما نسخه من نقوش 56 نقشًا. ومن أشهر الذين اشتغلوا بالبحث عن النقوش اليمنية، المستشرق اليهودي عقيدة يوسف هاليسي، الذي وصل إلى اليمن عام 1870م، ولبس زيًّا يهوديًا، حيث تمكن من جمع نقوش اليمن القديمة، وبلغت 686 نقشًا.

وفي عام 1880م وصل إلى اليمن المستشرق النمساوي، أستاذ اللغة العربية، فينا إدوارد جلاسر، الذي قام بزيارة تونس ومصر قبل وصوله إلى اليمن. وبين عامي 1882 . 1884م أجرى ثلاث زيارات لشمال اليمن، أعقبها برحلة أخرى عام 1885م من عدن إلى صنعاء، مارًّا بظفار، العاصمة الحميرية (إب يريم)

القديمة. وقام بين 1887 ـ 1888م برحلة إلى مأرب، عاصمة مملكة سبأ، وكانت آخر رحلاته، تلك التي جرت عام 1892م بمساعدة أكاديمية براغ، وقد تمكن من جمع نسخ من النقوش اليمنية القديمة، من بينها نقش صرواح العظيم، الذي عُرف بنقش النصر. وكان جلاسر يعكف على دراسة النقوش التي حصل عليها، كذلك أرسلت أكاديمية فيينا في عام 1898م بعثة برئاسة الأستاذ مولر، استهدفت الوصول إلى شبوة، لكن دون جدوى، وتوجهت البعثة عام 1899م إلى جزيرة سقطرى لدراسة اللهجات الحديثة هناك.

أما بعثة جامعة فؤاد الأول – القاهرة، فوصلت إلى اليمن عام 1936م، وكان من بين أعضائها العالمان العربيان، الدكتور سليمان جزين، والدكتور خليل يحيى نامي. ووصل أيضًا، في رحلة علمية أثرية، نزيه مؤيد العظم 1936م.

وخلال هذه الفترة، قام العالم محمد توفيق برحلة إلى الجوف عام 1945م، والدكتور أحمد فخري إلى صرواح ومأرب، ثم بعثة جامعة الدول العربية التي وصلت إلى اليمن عام 1953م.

ولا ننسى كذلك دور الدكتور محمد عبد القادر بافقيه، الذي اهتمّ بالنقوش الأثرية والأوابد والأطلال والأعماق التاريخية، وأيضًا الأستاذ عبد الله محيرز، الذي اهتمّ بتجميع كل المخطوطات الأثرية من مكتبات العالم، وتوثيقها.

التنقيب عن الآثار وحماية شبام القديمة

شملت عنايتنا بالثقافة، الحضارة اليمنية وآثارها التي لم تحظَ بالاهتمام الكافي، لا في الجنوب ولا في الشمال، بقدر الاهتمام بالصراعات والحروب، فأجرينا قبل كل شيء مسحًا شاملًا للمواقع الأثرية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وقمنا بعملية حفر وتنقيب عن الآثار في عدة مواقع أثرية في حضرموت، والضالع، ومكيراس، وعدن، وسقطرى، ومدينة شبوة القديمة. وقد تولت الكشف والبحث عن آثار مدينة شبوة القديمة عاصمة مملكة حضرموت العظيمة المستشرقة الفرنسية جاكلين بيرين، التي توصلت إلى اكتشافات مهمة.

عالمة الآثار الفرنسية جاكلين بيرين التي قامت بأعمال التنقيب في مدينة شبوة القديمة عاصمة مملكة حضرموت، واكتشفت المدينة والقصر الملكي فيها وبعض القطع الأثرية، كالنقود والقدور النحاسية والعملات الفضية والذهبية وقطع من الرخام، نُقلت إلى متحف في عتق. وهذه المرأة العظيمة قامت بأعمال عظيمة، وعملت على استخراج الآثار، بينما المستشرقون الآخرون هرّبوها إلى الخارج.

تعرفت إلى السيدة جاكلين بيرين في عام 1972م، عندما استقبلتُها في مكتبي برئاسة الوزراء، وكانت تبلغ من العمر حينها 60 عامًا تقريبًا، ولكنها كانت تفيض حيوية وحماسة للمهمة التي جاءت من أجلها. وبسطت أمامي وثائق وخرائط وكتبًا كانت تحملها معها عن مدينة شبوة القديمة. وكانت في أشد الشوق والحماسة للكشف عن تلك المدينة التاريخية التي كانت لا تزال مطمورة تحت تلال من رمال الصحراء. عرضت السيدة جاكلين مشروعها لاكتشاف تلك

المدينة والتنقيب عن آثارها المطمورة، وطلبت تخصيص موازنة متواضعة لا تزيد على ثلاثة آلاف دينار* للفصل الواحد. وباشرت العمل فورًا مع فريقها من علماء الآثار المكون من ثلاثة أفراد، وعدد من المواطنين المحليين الذين كانوا يساعدون في أعمال الحفر والتنقيب.

اكتشاف شبوة القديمة

كانت هذه المرأة المتقدمة في السن، لكن المليئة بشباب الإرادة والعلم، تأتي كل عام وتذهب إلى الصحراء القاحلة مع فريقها وتنصب لها خيمة هناك، بحثًا عن مدينة شبوة عاصمة دولة حضرموت التاريخية وكنوزها الأثرية العظيمة. استمرّ نشاط هذه المرأة العظيمة التي أكنّ لها ولمهمتها الحضارية العلمية كل احترام، أربع سنوات كاملة، حققت في نهايته كشفًا علميًا وأثريًا مهمًا جدًا، حيث اكتشفت مدينة شبوة القديمة. ومن ضمن ما اكتشفته: القصر الملكي[1]، قصور النبلاء، أوانٍ وقدور من النحاس، قطع من الرخام، قطع من العملات والنقود التي صُكَّت في المملكة منقوشًا عليها رسوم لوعول وعقود عنب، وكثير من اللُّقى التي تدلّ على قيام مملكة حضارية

---

* ما يعادل 9000 دولار في ذلك الوقت.

(1) القصر الملكي الحضرمي، وكان الاسم ينقش على العملات المسكوكة في مملكة حضرموت، وأقدم ذكر له يعود إلى عهد شمر أوتر السبئي الذي هاجم شبوة ودمّرها، فأعاد بناءها وبناء القصر الملك الحضرمي يدع إل بن ريشمس في القرن الثالث الميلادي.

مزدهرة في شتى مناحي الحياة. وقد انهارت هذه الحضارة حين أحرق مدينة شبوة الخصوم الأقوياء من مملكة سبأ. وعُثر على خشب السقوف المصنوع من شجر العلب (السدر) ونهاياته محترقة دون أن تؤثر فيه آلاف السنين، أو تأكله دودة الأرض (الأرضة).

كنتُ دائم الحرص على زيارة موقع التنقيب في مدينة شبوة التاريخية، فزرته أكثر من مرة. وكل مرة كنت أجد السيدة جاكلين منهمكة في العمل بين رجالها ووسط ظروف طبيعية قاسية وصعبة، وقد أشفقت عليها من التعب، لكنها كانت امرأة كبيرة، ليس في عمرها، بل بعلمها وثقافتها وإيمانها برسالة العلم وتواصل الحضارات. وكان يهمّها أن يسجَّل هذا الكشف العلمي باسمها، وقد كان. كذلك اكتشفت عام 1975م و1978م مقابر كهفية.

كانت السيدة جاكلين بيرين حريصة، وهي تكتشف ذلك الأثر التاريخي المهم، على إثبات نظرية مفادها أن سكان هذه المنطقة الصحراوية القاحلة، حيث قامت تلك الحضارة، كانوا يشربون من طريق الندى، بالإضافة إلى مصادر أخرى، مثل الأودية. لكنّ هذه النظرية لم تؤكَّد حتى عام 2005م[1]، ولكن

(1) تعود بنا تقنية كسب الماء من ضباب الصباح إلى عهود سحيقة من حضارة هنود الأنديز في صحراء أتاكاما في تشيلي، إذ كان سكان أمريكا الأصليون ينشرون قطع النسيج الكبيرة في الفجر ويستحلبون الماء منها عند استيقاظهم. والحقيقة أنّ مخترع الطريقة، أستاذ الفيزياء روبرت شيميناور، اقتبس الطريقة تمامًا من هنود الأنديز ليعمّمها على تشيلي ومالي ونيبال

كل ما هو مؤكد أنّ هذه المنطقة شهدت قيام حضارة عظيمة، وشُيِّدَت فيها مدن وقرى، وأقيمت أراضٍ زراعية، وكانت ممرًا هامًا للطرق التجارية في العالم القديم (طريق البخور)، ولولا توافر المياه، لما قامت عليها مثل تلك الحضارة، الأمر الذي يرجِّح أن مصادر مملكة شبوة القديمة من المياه كانت متنوعة. فبالإضافة إلى الندى، حسب نظرية جاكلين بيرين، لا شك أنه كانت هناك مصادر أخرى للمياه مثل الأودية، وهناك من يقول إنّ سد مأرب العظيم الواقع في شمال المملكة كان يوفّر لشبوة جزءًا مهمًا من حاجاتها المائية. وقد سبقها لزيارة شبوة في الثلاثينيات الضابط السياسي هاملتون، وتحدث في كتابه "المدينة الخفية" أو "مدينة الأموات" عن شبوة وعن الحفريات التي قام بها، وتوصل في ضوء ذلك إلى نتيجة غريبة، أنّ الخرائب ليست خرائب المدينة، بل هي مقابرها، وهو استنتاج خاطئ، فقد اكتشف الدكتور محمد عبد القادر بافقيه المقابر الكهفية عام 1965م، وكانت قد تعرضت للنهب، كما تعرضت المدينة للدمار والخراب بسبب الحروب والحرائق، ويذكر هاملتون في كتابه أنه قابل عام 1938م شيخ الكرب حمد قطيان، وهو الشيخ ذاته الذي

واليمن وعمان وغيرها. هذا الاختراع، الذي أنقذ سكان المناطق الصحراوية من العطش، وحسب طريقة شيميناور، فإن كل 40 مترًا مربعًا من النسيج الصناعي الممتص للماء توفر حسب مساحتها نحو 200 ليتر من ماء الشرب، وهذه الكمية تكفي لأكثر من 60 شخصًا بالغًا في أكثر أشهر المنطقة جفافًا. (المصدر: صحيفة الشرق الأوسط، نوفمبر 2005م).

قابله صالح الحداد عام 1899م، واشترى منه أحجارًا أثرية من مدينة شبوة.

تقرير البعثة الفرنسية عن شبوة

ولأهمية عمل البعثة الفرنسية، نورد أهمّ ما جاء في تقريرها عن الآثار في شبوة برئاسة جان فرنسوا بيتون:

إن برنامج العمل لعام 1984، متابعة وإنهاء بقدر الإمكان لعملية التنقيب المفترضة (للقصر الملكي للمدينة) خلال شهر من الحفر، وقد أُنجز قدر كبير من العمل.

إنّ تفكيك التبليط العلوي في الساحة الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية لقاعدة المبنى الرئيسي سمح لنا بالعثور على تبليط داخلي في حالة جيدة، وبالتالي التعرف إلى آثار مبنى أقدم بُني على سطح مستطيل، يبدو أنه حُفر خلال بناء الأساس المركزي. لقد عُثر على عدد من القطع البرونزية على سطح التبليط الداخلي (عملات، أجنحة لحيوان مجنَّح، أجزاء من تماثيل، أصابع، آذان ...).

أما المنطقة الواقعة إلى جنوب المبنى المركزي (أ)، أي من ناحية المدينة، فلم تنقب مطلقًا، عدا السير الاستراتجرافي لعام 1977م على طول المبنى ذي الرواق (ب)، حيث كان متوقعًا العثور على مدخل القصر في هذه المنطقة. اكتُشف مدخل القصر في 1984م، وهو يتكون من درج فخم عرضه 3.10م يصل إلى مصطبة طولها 9.75م، وعرضها 4.50م، تقع على ذات مستوى

تبليط المساحة تقريبًا. في الزاوية الشمالية الشرقية للمصطبة يوجد ممر ضيق بين المبنى (أ) و(ب)، وهو مناقض لسعة الدرج وفخامته. في شرق الدرج توجد مساحة مبلطة ومحاطة بمقاعد في الجهتين. في غرب الدرج توجد منصة ملصقة به، إن تحطم القصر المتعاقب بسبب الحريق العام، ترك لنا عدة عوارض خشبية متفحمة، وهي كانت هيكل جدران المبنى الرئيسي (أ) والمبنى ذي الرواق (ب)، وكذلك ألواح حجرية مزينة بها تسمى (النوافذ المزيفة) وقواعد لتماثيل بلاطات مزخرفة... وكمية كبيرة من البرونز تشكل قطعًا للوحة جدارية. قلب هذه القطع البرونزية يتكون من الطين. هذه القطع عبارة عن إطارات مستطيلة، في وسطها توجد أشكال حيوانية (أسد، فرس، أسد مجنَّح) أو أشخاص (رامي قوس، يد حاملة عصا)، وتتصل هذه الإطارات ببعضها، مشكلة لوحة كبيرة.

ووُجدت قطع من تماثيل برونزية لحيوانات (ثور، أسد) أو أشخاص. هذه القطع مشابهة لما وُجد عام 1980 في الطبقة الواقعة شماليّ المبنى (أ)، ما يجعلنا نتصور أنّ هذه التماثيل البرونزية حُطِّمت في مكانها وتناثرت الكسور في كل المبنى الرئيسي. وعُثر في هذه الطبقة أيضًا على وعاء زجاجي مزيَّن بأشكال آدمية وأوراق نباتية وموجات صغيرة، كذلك عُثر على قطع حجرية منحوتة.

إنّ دراسة الطبقات الواقعة جنوبيّ قاعدة المبنى (أ) تؤكد وجود استيطان للقصر الملكي في المراحل الأخيرة. فبعد أول عملية تحطيم للموقع (العاصمة الحضرمية) على يد شاعر أوتر، كما نعتقد في 225–230م، أعقبتها فترة هُجر فيها الموقع، ثم عادت عملية الاستيطان من جديد إلى القصر والمدينة عمومًا. أما النهاية الفعلية للموقع، فكانت دون شك في القرن الرابع الميلادي، وفي بداية القرن الخامس، كما يؤكد ذلك تحليل بعض النماذج (بكربون 14) والعائدة من الطبقات الأخيرة للحريق.

قام بافتتاح متحف عتق، في احتفال رسمي، الأمين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، رئيس هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى، رئيس مجلس الوزراء، علي ناصر محمد، في 28 نوفمبر 1984م في عتق، عاصمة محافظة شبوة، وهو يتكون من ثلاثة أقسام: قسم أثري، قسم عادات وتقاليد، وأخيرًا قسم تاريخ الثورة. تنفيذ القسم الأثري ترك للبعثة الأثرية، وبصورة رئيسية للسيد ريمي أدوان. وتشكل القطع المجلوبة من شبوة الجزء الأكبر من القطع المعروضة: نقوش ألواح معمارية، قطع برونزية، أوعية من البلق. وتوجد قطع من بير أحمد (في مدخل وادي حضرموت) ومن بريرة (في وادي جردان) ومن وادي ضدى (غير البعيد عن نصاب).

وقامت البعثة عام 1984 أيضًا بدراسة عدة مواقع أثرية واقعة على روافد وادي مرخة وخورة، هجر حمومة، الواقع على

الوادي المسمى باسمه، وهجر رمة الواقع أيضًا على وادٍ مسمى باسمه.

وكان الرئيس الفرنسي الأسبق، فرانسوا ميتران، قد زار اليمن في عام 1993م، والتقى الرئيس صالح، وتحدث معه عن اليمن الذي يجب أن تراه عيون أبنائه وأصدقائه الغربيين، يمنًا أخضر، يضم إلى جانب مروجه السندسية موسوعة فخمةً من المآثر والآثار، وأنّ اليمن لا يزال في نظر مستشرقيه وكبار علماء الآثار والفنانين، وحتى الساسة الفرنسيين، أحد المستودعات الضخمة لأهم آثار الحضارة الإنسانية. وقال له أيضًا: "ثقافتكم وتاريخكم وآثاركم هي رهانكم الوحيد. لا تنشغلوا كثيرًا بالاستثمار في النفط، فليس لديكم ما تجارون به السعودية ومنطقة الخليج".

وكان الرئيس ميتران قد وجّه إلى الرئيس صالح في أوائل التسعينيات رسالة، قال فيها إنّ اليمن سيدخل مع المنطقة بعد عقدين أو ثلاثة في مرحلةٍ مداريةٍ ومناخية جديدة، ستجعله بلدًا مطيرًا وشديد الاخضرار، وإن هذا الوضع قد يستمر لمدة 400 سنة.

وشهد اليمن في عام 2020م فيضانات غير مسبوقة وهطولات مطرية غزيرة جدًا، وقد سبّبت هذه الفيضانات التي شهدتها صنعاء وعدد من المدن التاريخية أضرارًا بالغة في المواقع الأثرية في المدينة القديمة من العاصمة و"ناطحات السحاب"

الطينية في شبام حضرموت، وغيرهما من المدن المصنفة من قبل منظمة العلوم والتربية والثقافة "يونسكو" من بين أهمّ المواقع الأثرية في العالم. وشهد سد مأرب شرق صنعاء أول فيضان خطير له منذ إنشائه قبل 34 عامًا، ما يهدد أقدم وأكبر منطقة أثرية في البلاد.

هاميلتون

الضابط هاميلتون

نقّب الضابط السياسي هاميلتون عن الآثار في شبوة، وهو ليس خبيرًا بالآثار فحسب، بل كانت له خبرة أيضًا بمنطقة شبوة وقبائلها وسكانها، لأنه كان يدرك أهمية شبوة من الناحية التاريخية والسياسية والعسكرية والثروة المعدنية ومناجم الملح الصخري فيها، وكذلك في بيحان. وتحت قيادته خاضت القوات البريطانية والجنوبية حربًا ضد الشيخ علي ناصر القردعي، وهزمته، وذلك بتاريخ 12 يوليو من عام 1939 م[1].

(1) اتفق الإمام بعد ذلك مع البريطانيين على نقل القردعي بالطائرة من عتق إلى بيحان، وعندما أقلعت الطائرة توجهت في طريقها إلى عدن، وعرف القردعي من طبيعة الجبال أنها ليست متوجهة إلى بيحان، فتوجه إلى كبينة الطائرة ببندقيته، وطلب من الطيار التوجه إلى بيحان، وإلا فإنه سيطلق النار عليه، وأذعن الطيار لهذا القرار، وحوّل اتجاهه إلى بيحان. وكان هذا أول اختطاف في تاريخ الطيران. وكتب بعض الأبيات من الشعر يتهم فيها الإنكليز والإمام بالتآمر عليه، نذكر منها:

قدهم على شور من صنعاء إلى لندن متآمرين كلهم سيد ونصراني

ريبون وحضارة حضرموت

تقع أطلال مدينة ريبون وخرائبها إلى الجنوب الغربي من مدينة سيئون، على بعد نحو (94 كيلومترًا) أسفل وادي دوعن، وتُعَدّ من أقدم المدن التاريخية في وادي حضرموت، وتشكل أطلالها وخرائبها عدة تلال أثرية، فضلًا عن أعداد كثيرة من شبكات الري المتفرقة في عدة أماكن.

تزيد مساحتها على 10 هكتارات، ويعود تاريخ هذه المدينة إلى ما قبل القرن السابع قبل الميلاد، واستمر فيها الاستيطان حتى القرون الميلادية الأولى. جرت في خرائب هذه المدينة حفريات وأبحاث ودراسات أثرية من قبل البعثة الأثرية اليمنية السوفييتية في الفترة من (83–1988م)، وتوصلت إلى أن سكان المدينة كانوا قد زاولوا الزراعة، وتربية الحيوانات، وبنوا مجمعات سكنية جميلة خاصة للسكن، وأبنية أخرى خاصة لأنشطتهم الدينية، كالمعابد، وقد كانت كل الأراضي المحيطة بالمدينة مغطاة بشبكات الري والقنوات والسدود وأحواض المياه، وتدل كلها على ازدهار بلغ أوجه. ومن أهمّ المعالم الخاصة بالمدينة، التي جرت فيها الحفريات الأثرية: معبد الإلهة (ذات حميم)، معبد الإله (سين)، شبكات وقنوات الري.

امتدت رقعة الاهتمام لتشمل، فضلًا عن التنقيبات الأثرية، علم اللغويات، حيث حصل ذلك في الجزر اليمنية، وتحديدًا جزيرة سقطرى، حيث أجرى عالم الآثار اليمني عبد الله محيرز، وبعض المستشرقين الروس أبحاثًا ودراسات في الجزيرة، وخاصة في ما يتعلق بدراسة اللهجات السقطرية، وهو ما اهتمّ به دارسون فرنسيون أيضًا. واعتقد أنهم حققوا نتائج علمية مهمة، خاصة ما يتعلق بقدم حياة الإنسان على جزيرة سقطرى، والجذور التاريخية للغته أو لهجته السقطرية، مما ليس هنا مجال الحديث عنه.

محيرز والمخطوطات اليمنية

واعتُنيَ أيضًا بالمتاحف والآثار المحفوظة، فأُنشئ المتحف الوطني للآثار في عدن، وعدة متاحف أخرى في عدة محافظات من الجمهورية. وبدرجة أساسية، عُرِضَت هناك الآثار الجميلة

التي تعود إلى مملكتي قتبان وأوسان، والتي سبق أن اكتشفها ويندل فيلبس، بالإضافة إلى الاكتشافات الجديدة.

كذلك، أولينا اهتمامًا لا يقلّ عن ذلك بالمخطوطات اليمنية القديمة. فكلفت الأستاذ عبد الله محيرز الذي سبق ذكره بتصوير أهم المخطوطات اليمنية في الخارج ونسخها، فذهب إلى أهم العواصم بين الشرق والغرب، وقام بعمل هائل شمل المكتبات في لندن، وباريس، وبرلين، وموسكو، وأنقرة، وإسطنبول، ودلهي، وكراتشي، ولشبونة، وبومباي، ولاهاي، وجامعة ليدن، فصوَّر أهم الوثائق وأشهرها، وخاصة تلك المتعلقة بالحملات البرتغالية والفرنسية على اليمن. وصوَّر عشرات الآلاف من الوثائق والمخطوطات المتعلقة باليمن، وقد أودعناها المكتبة الوطنية في كريتر، التي تحمل اسم الفقيد عبد الله باذيب.

المكتبة الوطنية (مكتبة عبد الله باذيب) كان افتتاحها في الرابع عشر من أكتوبر عام 1980م، وقد شُيِّد مبناها وجُهِّزَت بالتجهيزات الإدارية والتكييف المركزي بمساعدة قدمتها دولة الكويت الشقيقة، وأُحيلَت إليها حينئذ جميع الكتب الخاصة بمكتبة الجيش البريطاني ومكتبة الخط ومكتبة مسواط، وكان جموع ما أُحيل إليها قرابة عشرة آلاف كتاب من مختلف العلوم والمعارف.

أنفقنا على هذه العملية يومها أكثر من 15 مليون دولار، اعتمدناها ضمن الخطة الخمسية الأولى، بالإضافة إلى اهتمامنا بجمع وحفظ المخطوطات اليمنية الموجودة في الداخل. وأقمنا مكتبة ضخمة لذلك في جامع المحضار بمدينة تريم في حضرموت. ولقد عُثِر في موقع شرقي مدينة زنجبار في أبين على كنز من الذهب، هو عملة ذهبية صُكَّت في أيام الدولة الفاطمية منذ أكثر من 800 عام. عثر عليها مصادفةً بعض الأهالي مدفونة في جرار. وعندما تناهى إلينا الخبر، سارع الأثريون إلى الموقع،

وأمكن إنقاذ نحو (850) قطعة ذهبية أهدينا بعضها إلى المتحف الوطني في صنعاء، وأودعنا الباقي المتحف الوطني في عدن.

وكان بعض الأهالي قد استولوا على جزء من هذا الكنز، وأعادوا صهر القطع الذهبية دون أن يدركوا قيمتها التاريخية!

مبنى المجلس التشريعي لعدن، ويُعَدّ واحدًا من أهم معالم المدينة. فهذا المبنى كان في الأصل كنيسة بُنيت عام 1871، وكانت تُسمى كنيسة «القديسة ماريا»، وفي عام 1947 تحولت الكنيسة إلى مقر للمجلس التشريعي الأول من نوعه في شبه الجزيرة العربية، وكان المجلس يتكون من ثمانية أعضاء يمثلون طوائف عدن، وكانت كل طائفة تنتخب ممثلها، وكان في أول تشكيل له يتكون من: المستر تايلر، والخان بهادر محمد عبد القادر مكاوي، والخان بهادر محمد سالم علي البكري، والسيد عبده غانم، والمستر دانشا خورجي، والشيخ محمد عبد الله المحامي، وجودا مناحيم يهودا والمستر كارتن. وظل المجلس يمارس مهامه حتى عام 1966، ثم تحول إلى مكتب للدكتور عبد الله محيرز، المدير العام للمركز اليمني للأبحاث الثقافية في مدينة عدن.

ويندل فيليبس واكتشاف سبأ وقتبان

ويندل فيليبس عالم آثار أمريكي قاد بعض البعثات الأثرية الأولى في المناطق التي هي جزء من اليمن وعُمان الآن، واكتشف قطعًا أثرية عثر عليها في خمسينيات القرن العشرين تعود إلى مملكة سبأ القديمة.

كانت رحلة فيليبس إلى شبه الجزيرة العربية في عام 1951م، وبدأ التخطيط لهذه الرحلة باجتماع عام 1949م بين فيليبس والإمام أحمد بن يحيى حميد الدين، الذي اقترح على فيليبس أن يستكشف تاريخ اليمن القديم. وعُزِّزَت توصية الإمام أكثر في الاجتماعات التي عقدها فيليبس مع المستر جون فيلبي ومع تشارلز إنج الذي كان آنذاك مدير الآثار في مستعمرة عدن.

بلغت هذه المحادثات ذروتها عندما قاد فيليبس رحلة لاستكشاف مدينة تمنع القديمة (إمارة بيحان آنذاك) ذات الأهمية التاريخية بسبب دورها في طريق البخور، والتي اكتُشف فيها أول قانون تجاري في العالم منقوش على حجر طوله متران، وقد ترجمه وعلّق عليه لغويًا وطوبوغرافيًا البروفيسور (بيستون)، من جامعة أكسفورد ـ بريطانيا، ونقل محتواه إلى اللغة العربية المؤرخ المرحوم د. جواد علي، وكذلك المؤرخ المرحوم سلطان ناجي.

واستعدادًا للبعثة اليمنية، أجرى فيليبس استطلاعًا جويًا لمدة أسبوعين لشبه الجزيرة العربية، وركزت البعثة أيضًا على

التنقيب في مأرب، عاصمة مملكة سبأ، التي حُدِّدَت تاريخيًا مع ملكة سبأ.

قام فريق فيليبس في تمنع بالتنقيب عبر الطبقات الأرضية، ما سمح لهم بتطوير مخطط زمني للمدينة يعود تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد. وكشفت أعمال التنقيب في منزل يافاش عن أسد من البرونز وتماثيل مرمرية، أشار إليها الفريق باسم "مريم". وكشفت الحفريات أيضًا عن العديد من الأشياء من الحياة اليومية والأشياء الجنائزية من مقبرة في تمنع، وكان أحد مواقع التنقيب معبد أوام الذي يرجع تاريخه إلى حوالى 800 قبل الميلاد.

أُجري جزء من الحملة في موقع يعود إلى ما قبل الإسلام يُسمى هجر بن حميد، حيث وصل التنقيب إلى طبقة من طبقات القرن الحادي عشر قبل الميلاد. الجدير بالذكر أيضًا اكتشاف علامات البناء القديمة على أحجار الرصف التي توفر تعليمات للبُناة، وكان هذا الاكتشاف بمثابة مفتاح لمعرفة لغة السكان القدماء.

كذلك شُمِل الخطاط ألبرت جيم بالحملة، وقد أسهم كثيرًا في فهم اللغة وتطوير الخط الزمني للأشخاص القدماء في المنطقة.

وشملت الحفريات سد مأرب، الذي كان الأكبر في العصور القديمة، ومعبد أوام، الذي كان أحد أهم المعابد السبئية، والذي كان يُستخدَم قبل 1200 سنة من ظهور

الإسلام. عمل الفريق وصفًا تفصيليًا للمعبد، بما في ذلك حجمه وموا ده الإنشائية.

وتوقفت الحملة بعد ذلك بسبب الهجمات التي شنّها المحاربون البدو، فقد أثار الشك السكان المحليين لعدم معرفتهم بالأجانب وحجم المشروع، ولمشاهدتهم الحملة تأخذ القطع الأثرية، معتبرين أن رحلة فيليبس كانت غزوًا.

وأُسر فيليبس لفترة وجيزة في بدايات المشروع من قبل السكان المحليين، وكان العداء كافيًا لإنهاء المشروع بحلول أوائل عام 1952م.

صورة من الخمسينيات في أثناء التنقيب عن الآثار في مأرب وبيحان، ويظهر في الصورة: الشيخ علي بن منصر بن علي بن أحمد بن حصيان الحارثي، الباحث الأمريكي ويندل فيليبس، رئيس مؤسسة دراسة الإنسان الأمريكية، الشيخ عبد الله بن علي بن منصر الحارثي الملقب بالبحري، الشيخ سيف بن علي بن منصر الحارثي، الشيخ محسن ابن علي بن منصر الحارثي.

وتعاقبت على المواقع بعد ذلك بعثات غيرها وتوقفت، إلى أن تمّ الاتفاق مع البعثة الإيطالية الفرنسية اليمنية المشتركة التي بدأت الحفريات الجديدة منذ عام 1998م، إلى أن نتج منها اكتشاف مجمع «سوق شمر»، وهو السوق الرئيسي لدولة قتبان. كذلك أُزيلت الأتربة عن عمود القانون التجاري القتباني المُسمى الشعبي لها (زهيرة بنت لزهر)، وهذا الحجر ذو الأربع واجهات مكتوب عليه بالحميري، وقد تُرجم إلى الإنكليزية، ومن ثَمّ إلى العربية، واتضح حينذاك أنّ تلك الكتابة كانت تواريخ قوافل القبائل العربية، وعدد كل قافلة من الجمال المتجهة إلى الشام، والعكس. أيضًا نُظِّف المعبد القديم في المدينة، وهو معبد مشترك مع قصر ملكي، واكتُشف معبد آخر للآلهة (أثيرت)، وما زالت الحفريات جارية لاكتشافات أخرى، حيث كانت هناك العاصمة الثانية لدولة قتبان، وهي «ذات غيلم» المعروفة حاليًا بـ (هجر بن حميد)، وقد أجرت البعثة الأمريكية على الموقع حفرًا ومحبسًا أثريًا من أعلى قمة في التل إلى الأرض البكر لمعرفة مراحل التعاقب الحضاري منذ سكن في المدينة الإنسان الأول وإلى اليوم. وبعد الوحدة اليمنية عادت أخت وندل فيليبس (مارلين)، وأتت إلى مأرب لتواصل عمل أخيها في التنقيب عن الآثار هناك. وبالفعل، تمّ عملها ذلك في عهد الرئيس علي عبد الله صالح بمساعدة وزير الخارجية الدكتور عبد الكريم الإرياني.

وقد روى لي الصديق الشريف حيدر قصة طريفة حول فيليبس، وأوردها عن لسانه:

لقد حضر ويندل فيليبس في خمسينيات القرن الماضي من أمريكا إلى بيحان، وذلك بعد اتفاق مع عمي الشريف حسين بن أحمد الهبيلي وإدارة المندوب السامي البريطاني في عدن في مطلع الخمسينيات بقصد التنقيب عن الآثار في بيحان، وكان قد أحضر معه عددًا من السيارات، حوالى ثماني سيارات (دوج بور ويجن) لعملهم، وسيارتين من النوع نفسه، وسيارة دوج بور ويجن بكس مهداة من رئيس الولايات المتحدة حينذاك هدية للشريف حسين ابن أحمد الهبيلي. والغريب أن ويندل فيليبس في مطلع الخمسينيات، بعد أن قامت بعثته بالتنقيب في تمنى (هجر كحلان) مديرية عسيلان، أبدى للشريف حسين رغبته في زيارة مأرب. وقال له الشريف: إنّ المسؤول في مأرب نائب الإمام الكبسي، وهو صديقي، انتظر وسأرسل إليه رسالة بطلب السماح لزيارتكم في مأرب كبعثة آثار. وبالفعل، حصل ذلك، وكان الرد من مسؤول الإمام في مأرب للشريف بالموافقة على زيارة البعثة الأمريكية لمأرب.

وهنا توجه ويندل فيليبس من بيحان إلى مأرب بخمس سيارات عبر الصحراء، واستقبلهم الكبسي ومكثوا هناك. وفي اليوم الثالث من وصولهم إلى مأرب، وصلت برقية من الإمام يقول فيها: سمعنا بأنّ الكفار عندكم في مأرب! وعليه، يجب أن

تلقوا القبض عليهم وتحتجزوهم. وبالفعل، وضعهم الكبسي في الحجز في مأرب.

هنا وصل الخبر إلى الشريف في بيحان، وأرسل شخصًا يتكلم اللغة الإنكليزية، واسمه أحمد بن علي بن منصر، ابن شيخ مشايخ بالحارث، ومعه رسالة إلى الكبسي، نائب الإمام في مأرب. كان مضمون الرسالة:

"سمعنا بأنّ مولانا الإمام أمركم بالقبض على البعثة الأمريكية، وليس هناك من جانبنا أي لوم عليكم شخصيًا، ولكن إليك رسالتي هذه، المطلوب منكم السماح للأمريكان كل يوم العصرية نصف ساعة يُشغلون سياراتهم ويعودون إلى التوقف، لأن السيارات إذا لم يتم تشغيلها يوميًا ستنتهي البطاريات وستتوقف السيارات عن العمل. ولعلمكم نحن من هنا متصلون مع المندوب السامي في عدن للتواصل مع الإمام طالبين إطلاق سراحهم من قبل مولانا الإمام في صنعاء".

وبالنسبة إلى الرسول، فقد قال له الشريف: أريدك أن تسلّم هذه الرسالة إلى الكبسي في مأرب. وأنا متأكد أنه سيوافق على طلبي هذا، وعندما يوافق اذهب إلى ويندل فيليبس وقُل له أن يشغّلوا في اليوم الأول السيارات، وفي اليوم الثاني فليجهزوا أنفسهم ويشغلوا السيارات ويتجهوا إلى بيحان، حيث سيجري استقبالهم من جانبنا على الحدود. مع العلم بأنه ليس هناك سيارات ولا طائرات ستلحقهم من مأرب.

وبالفعل، نجحت الخطة ونُفِّذَت بيسر. وبعد ذلك، أرسل الكبسي رسالة إلى الشريف يلومه على ذلك العمل، ورد عليه الشريف: أنتم البادون، ونحن أجبناكم على ما تمّ من قبلكم.

حماية شبام القديمة

مدينه شبام

ومن الأمور المهمة الجديرة بالذكر، ذلك الاهتمام الذي حظيت به مدينة شبام حضرموت التي تعتبر من أقدم ناطحات السحاب في العالم، والتي يعود عمرها إلى أكثر من خمسمئة سنة، أي قبل أن تكتشف القارة الجديدة أمريكا بحوالى 100 عام. وقد صنّفت اليونسكو المدينة من ضمن التراث الإنساني العالمي المعماري الذي ينبغي الحفاظ عليه مع مدينة صنعاء القديمة. وبُذلت جهود كبيرة بالتعاون مع اليونسكو للحفاظ على الآثار وإنقاذ مدينة شبام التاريخية، وخُصِّصت حملة وطنية لذلك.

الآثار مخزون ذاكرة الأمم والأقوام، وخاصة النقوش والمخطوطات، وهي الدليل الهام على مدى براعة الشعب في تكيفه مع البيئة، واستخدامه المواد الأولية المحيطة بمنطقة سكنه، وقد زخرت بلادنا العربية، واليمن خصوصًا، بتلك

الآثار والأوابد الشاهدة على قدرة الإنسان في هذه البقعة من المعمورة على صناعة تاريخ مجيد. لذلك، وجبت المحافظة عليها وصيانتها والعمل على كشف خباياها. إنّ سد مأرب ومعبد بلقيس ومدينة شبام وغيرها الكثير، ما هي إلا رموز وصلت إلينا وحملها لنا الزمان كي نعتبر بها ونعلم أن الإنسان عندما يكون مستقرًا يستطيع أن يصنع حضارة مزدهرة.

وقد توّج اهتمامنا بآثار بلادنا، الحملة الدولية للمحافظة على مدينة شبام التي بدأت أعمالها في ديسمبر 1984م، وبإشراف المدير العام لمنظمة اليونسكو. وهذه الحملة لا تهدف فقط إلى المحافظة على المظاهر المعمارية الجميلة للمباني، بل تتناول أيضًا تشجيع الرغبة في إحياء المباني وتأهيلها، وذلك في المستويين المحلي والدولي.

شبام 1984 مع المدير العام لمنظمة اليونسكو مختار أمبو

وادي حضرموت الذي يحتضن مدينة شبام، يبلغ عرضه 12كم في بعض المواقع، وارتفاعه عن سطح البحر 700م تقريبًا، ويغذي هذا الوادي العديد من الروافد. ومدن وقرى الوادي يرتبط بعضها ببعض بالطرق التي أقيمت كي تسهل العبور للمواطنين، وعلى جوانب هذه الطرق خزانات معدة للمياه، وهي ذات قبب، واستراحات للحجاج في طريقهم إلى مكة المكرمة. ولعل أهم مدينة في الوادي هي مدينة شبام ذات ناطحات السحاب الطينية الفريدة في العالم. وتُعَدّ المدينة الوحيدة المأهولة إلى الآن، وتستخدم بيوتها منذ ما يزيد على ستة قرون، وهي مبنية من الطين، ويتجاوز ارتفاع أبنيتها عشر طبقات بعض الأحيان.

لقد شغلت شبام دورًا بارزًا من تاريخ اليمن الوسيط. ساعدها في ذلك وسط حضاري متميز ودور اجتماعي سياسي مهم في العصور الوسطى.

هذه المدينة تُعَدّ تحفة معمارية، ما حدا كل المنظمات الدولية إلى المطالبة بالمحافظة عليها. ولعل أهم ما قُدِّم في هذا المضمار، نداء الدكتور أحمد مختار أمبو، المدير العام لمنظمة اليونسكو الذي أطلقه في 22 ديسمبر 1984م، ومن أهم ما جاء فيه: "أدعو المتاحف والصالات الفنية والمكتبات، إلى تنظيم معارض ونشاطات مختلفة تتعلق بشبام ووادي حضرموت. ويخصص صندوق خاص لدعم الحملة في هذه المنطقة من حصيلة هذا

النشاط. أدعو اليمنيين، حيثما وُجدوا في جميع أنحاء العالم إلى العمل على إنجاح حملة حماية وترميم التراث الثقافي لشبام ووادي حضرموت". وبهذا النداء ختم السيد الدكتور أحمد مختار كلمته، مطالبًا كل أبناء وادي حضرموت بالمحافظة على شبام، ومن خلالها على مختلف المعالم التاريخية والأثرية في بلادنا.

وقد كتبت الدكتورة المعمارية ريم عبد الغني في كتابها "حضرموت حضارة لا تموت" عن مدينة شبام الآتي:

1- "سُميت شبام باسم ملكها شبام بن حارث بن حضرموت ابن سبأ الأصغر... تقبع منذ القرن الرابع الميلادي فوق تلة وسط وادي حضرموت الرحب بين أطلال الشواهد المادية لتاريخ اليمن العظيم، تنبعث من خمائل النخيل الغنّاء لتحلّق برشاقة إلى عنان السماء، أبنية برجية بارتفاع سبعة أو ثمانية أدوار يعانق بعضها بعضًا ويعود بناء معظمها لعدة قرون خلت مبنية من الطين المجفف بأشعة الشمس.

2- هكذا وصفها أحمد مختار أمبو، المدير العام لمنظمة اليونسكو في ندائه الذي وجهه لحماية شبام، وانطلقت على أثره الحملة منها في عام 1984م بالتعاون بين المنظمة وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ورئيسها آنذاك الرئيس علي ناصر محمد، وكانت اليونسكو قد أدرجت شبام على لائحة

التراث العالمي منذ عام 1982، وخصوصًا بعد الفيضان الكبير الذي اجتاحها في مارس من العام ذاته.

3- بقيت شبام لفترة طويلة عاصمة وادي حضرموت، إذ كانت نقطة التقاء طرق القوافل والتجارة والمبادلة على طريق قوافل البخور والتوابل، وتمتعت عبر العصور بمكانة فائقة وشهرة واسعة وصلت حتى سواحل أفريقيا الشرقية قبل أن تحتل مع تغيّر الظروف الاقتصادية والسياسية في منتصف القرن الفائت مدينة سيؤون هذا المركز.

4- وعمارة شبام تعبير حيّ عن المستوى الحضاري العظيم الذي بلغه اليمنيون، تستطيع أن تقرأ من خلاله عراقة التطور المعماري اليمني وارتقاءه سدة مدهشة من الإتقان والمهارة والإبداع. هنا أيها السادة، بنى الحضرميون من التراب والطين المجفف في دفء الشمس أول ناطحات سحاب في التاريخ، إحدى روائع ما بناه الإنسان أبدًا في مجال العمران. والهندسة المعمارية أليست قمة الإبداع الهندسي أن يشيد البناء الشبامي وبأدوات بدائية ومن مواد بسيطة كالطين والقش منزلًا متكاملًا على رقعة صغيرة لا تتجاوز أربعين مترًا؟

الغرب يتصور أنه يكرِّم شبام حين يلقبّها بـ (مانهاتن الصحراء).. هراء.. فقد سبقت ناطحات سحابها الطينية بنات عمها الخرسانات في مانهاتن بمئات الأعوام. وأنّى لمانهاتن –

وهذا انطباعي الشخصي بعد أن زرت كليهما - أن تمنحك الدفء والحميمية اللتين تغمرانك هنا وأنت تنساب في شرايين هذا النسيج المحكم الذي حيك وفق مقاييس البشر وحاجاتهم وغزل عبر مئات السنين بخبرة ومفاهيم أجيال توالت فوق ترابه؟ بل هم بعض طين عمارته.

5- لم تصل شبام هذه المكانة صدفة.. فوراء كل مجد حكاية معاناة، ولكي تستمر كان عليها أن تصمد في وجه كثير من الصعوبات، وأولها الحروب والطامعون، وليس آخرها السيول.

6- المثير للإعجاب أنه رغم كل هذه المحن والأنواء والتغيرات، فإن شبام، التي يصرّ سكانها على إعادة تشييد أيّ مبنى يُهدم فيها بتصميمه وتفاصيله الأصلية ذاتها، وحافظت على هويتها وبقيت قوية أمام التحديات وضغوط العولمة الهائلة، واستطاعت أن تفوز بجائزة الأغا خان للعمارة الإسلامية لعام 2007م، ليس بسبب ترميم معظم عمارتها فقط، بل ونجاحها في إحياء بناها الاجتماعية والاقتصادية وتدريب حرفييها أيضًا.

عمارة عبقرية استمرت عبر العصور بما هو كامن فيها من أصالة وصدق محتفظة (بوجهها الأصيل الجميل) كما يقول الشاعر با حارثة باللهجة الحضرمية الجزلة:

الطين والتبل يعمل معجزات

منه بنينا عماير عاليات

شبام منذ القرون الماضيات
بيوتها والسحب متناطحات
عمارة الطين هي فنّ الجدود
حقق نجاحات والناس شهود
والطوب والخرسانة والحديد
غريب حلّ في بلدنا من جديد
لعمارة الطين ما يوجد مثيل
قوة وتحفة وكلفتها قليل
على الأصالة يحافظ كل أصيل
حرام يتشوه الوجه الجميل"

(انتهى الاقتباس).

حضرموت 1984 حملة حماية شبام، الحديث عن أهمية حماية شبام بحضور المدير العام لليونسكو أحمد مختار أمبو

ويجب أن نعترف بأن القيادات التي تداولت على حكم اليمن شمالًا وجنوبًا قبل الثورة وبعدها لم تولِ اهتمامًا كبيرًا بالآثار والمخطوطات والنقوش والثروات في بلادنا بسبب

نقص الوعي عند البعض، والصراعات والخلافات والحروب التي مرّت بها اليمن، إضافة إلى التدخلات الخارجية التي لا تريد لليمن الاستقرار والازدهار واكتشاف آثارها واستثمار ثرواتها الباطنية، وإلا كنا اكتشفنا كنوزًا في باطن الأرض تعود بالفائدة التاريخية والسياحية على الوطن والمواطن والدولة كغيرنا من الشعوب في مصر وسورية والعراق وإسبانيا والهند والصين والعديد من الدول والحضارات. وكنتُ قد زرتُ قتبان ومأرب وشبوة وغيرها من المناطق الأثرية، وحزنتُ كثيرًا على كل حجر وكل نقش وكل عمود تعرض لرصاص القناصة الذين لا يقدرون أهمية هذا التاريخ العظيم، وحزنتُ لسرقة الكثير من الآثار والمخطوطات من قبل ما يُسمى خبراء الآثار والتنقيب والمستشرقين الذين زاروا اليمن.

الفصل الثاني

الثقافة لا تزدهر إلا بالحرية

دار الهمداني

اضطلعت "دار الهمداني للطباعة والنشر" بجزء في طباعة الكتاب ونشره. وكان يقودها شاب مثقف وإداري متحمس وصادق، هو أحمد سالم الحنكي، رحمه الله. لقد حوّل هذه الدار خلال فترة قصيرة من توليه إدارتها إلى منارة للثقافة الإنسانية والوطنية المتحررة من كل القيود "الأيديولوجية" أو الرقابة الحزبية أو الحكومية. إن نظرة واحدة إلى مطبوعات هذه الدار الوطنية تفي بالغرض كله، في تنوع الاتجاهات، من إعطاء حيوية للفكر والثقافة بكل ما تعطيه أو تتيحه المعطيات الديمقراطية من حرية للإنسان في هذا العصر وعبر مختلف العصور الحضارية.

ولأنّ هذه الحرية قد تحققت، فقد صدرت العديد من المجلات، والصحف، والكتب التي طبعتها الدار، أو سمح لها بالدخول في هذا الوقت، دون قيد أو رقابة على مضمونها، ما لم تتجاوز الطابع العقلاني والإنساني في عرض الأفكار.

كانت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في أول حكومة بعد الاستقلال قد أصدرت قانونًا حظرت بموجبه إصدار الصحف والمجلات واستيرادها من الخارج، وكانت تصدر في عدن

حينها نحو 47 صحيفة ومجلة ما بين يومية وأسبوعية وشهرية. ولم يكن هذا حالنا وحدنا، فقد أُمِّمَت الصحف في مصر وسوريا والعراق والجزائر، في ما عُرف بالأنظمة الشمولية، وهذا أثّر بحرية الصحافة والرأي والرأي الآخر، وكان هذا من الأخطاء التي يجب أن نعترف بها، ولكن في منتصف الثمانينيات راجعنا هذه السياسة وسمحنا باستيراد الصحف والمجلات والكتب على اختلافها، وأقمنا معارض سنوية للكتاب، وظهرت دواوين الشعراء ومؤلفات الكتاب في شتى مناحي البحث والدراسة. وامتدّ نشاط دار الهمداني إلى طباعة الأعمال القصصية والمسرحية والروائية والمترجمة، ليصل الأمر إلى ثقافة الطفل. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أُتيح للكتّاب بحمل مؤلفاتهم وطباعتها في الدور المتعددة داخل الوطن العربي... بعضها، بل أغلبها، كان يُطبَع بإسهام الدولة ودعمها.

الكتاب العرب

وفي إطار هذا المفهوم، استُقطِب عدد من الكتّاب والمثقفين العرب للعمل في تنشيط الحياة الثقافية، بالاستفادة من خبراتهم في ميادين الفكر والفن والأدب، ولتحقيق الترابط العضوي القومي والحضاري. وشهدت تلك السنوات العديد من الندوات الفكرية التي كانت تعقد خلال الأمسيات الثقافية، أو عبر مهرجانات ومؤتمرات الكتّاب، وعبر مختلف وسائل النشر

المرئية والمسموعة والمقروءة، أو خلال إحياء المناسبات الوطنية والتاريخية.

معارض الكتب

كذلك وسّع انتشار التعليم من دائرة القراءة وتعزيزها من طريق معارض الكتاب، ودخلت هذه المعارضَ كتبٌ لم تكن تدخل من قبل أو يسمح بتداولها. وبذلت الدولة مجهودًا كبيرًا في تزويد دور الكتب والمكتبات الخاصة والعامة بأنماط متعددة من الكتب الدينية، والتاريخية، والعلمية... وفي مختلف مناحي الفكر والأدب القومي والإنساني... واحتلت الدراسات التاريخية الوطنية الصدارة، مثلما أصبح إبداع الكتاب في شتّى مجالات الأدب والفن ركيزة هذه النهضة على مستوى النهوض بالأديب والكاتب اليمني، ليأخذ مكانته بين الكتّاب العرب... وللخروج بأدبنا وثقافتنا إلى العالم.

ونشطت حركة الترجمة بمساهمة كتّاب عرب، إلى جانب دور المثقف اليمني في التعريب، لتعرف ينابيع الثقافة الإنسانية على قدر اتساع هذا العالم بما يزخر به من نفائس الفكر والأدب وفي مختلف حقول الوعي والثقافة: (علوم، تاريخ، كتب سياسية، دراسات اقتصادية، إلخ)، وجميع هذه المصادر كانت قد شكلت ينبوعًا آخر لا غنى عنه للطالب الجامعي، وأمام مختلف الدارسين والباحثين، لرفد دراساتهم وبحوثهم بمرجعية علمية موثقة، ولإكسابها طابع الدراسة الأكاديمية.

الرعيل الأول

ربما عليّ هنا أن أتحدث عن بعض النماذج كدليل على هذه الحال للتدليل على الأزمة بين السلطة والمثقف.

النموذج الأول: لطفي جعفر أمان، لم يكن محض شاعر عبّر عن الحياة اليمنية. كان أيضًا مناضلًا تُلهب كلماته حماسة الجماهير وتواجه أعداء الوطن، وشاعرًا وطنيًا وإنسانًا، وقد أُودع سجن زنجبار بقرار أحمق عشية عرسنا الوطني!

وكان النموذج الثاني: الشاعر الوطني عبد الله هادي سبيت، الذي رفع صوته عاليًا في وجه الاحتلال البريطاني:

يا شاكي السلاح شوف الفجر لاح

حط يدك على المدفع زمان الذل راح

وقد نسوه ليلة عرسه، فذهب ليقيم في تهامة وطن الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، واستقرّ فيها وتزوج منها وأنجب فيها، وعندما وُجِّهت له الدعوة للعودة إلى عدن ووادي تبن، قال: تذكرتموني الآن؟! وفي الوقت الذي لم أعد أحتاج فيه إلا إلى شقة بجانب شقة فضل الرحمن(1).

وأما النموذج الثالث الآخر، وليس الأخير، فهو الشاعر محمد سعيد جرادة، الغني بثقافته المخضرمة شعرًا ونثرًا يضربان

(1) دكتور نفساني شهير.

في أعماق تراثنا اليمني والعربي. وهو الشاعر الوطني الذي تحدث عن الثورة والثوار في الجنوب، وهو الذي قال:

سكتوا وأعلنت البنادق منطقًا   هو سحر فوق بلاغة المتكلم

ولم يُعطَ حقه تقديرًا لدوره الأدبي والسياسي والثقافي، وهو الذي سافر مع أحد الوفود إلى العراق، وبرفقته مثقفان آخران محسوبان على الاتجاه التقدمي في عدن، لكنهما لم يعودا إلى عدن، وعاد الجرادة إلى عدن، وعندما سُئل: أين صاحباك؟! أجاب دون أن يفارق الظرف سحنته الحزينة: "التقدميون تقدموا، والرجعي رجع...!".

والقافلة بعد ذلك كبيرة، وقد اختفت مؤلفاتهم من المكتبات! ولم يعد أحد يحتفي بإعادة طبعها... أو حتى يكترث بوجودها في مكتبته، بعد أن دخلت في تصنيف الكتب المغلقة (OUT OF PRINT)، أي خارج دائرة الطبع! وأخلوا للقراء والمثقفين المحبين همّ التفتيش والبحث عنها بكل ما يساورهم من قلق حول مدى أهمية موضوع الثقافة الوطنية!! ومن هؤلاء رائد التنوير العدني الكاتب والصحافي محمد علي لقمان المحامي الذي أصدر أول صحيفة في عدن (فتاة الجزيرة).

قارئ لا يفهم!

ومنذ المؤتمر التأسيسي للأدباء والكتاب في عدن عام 1972م كنا نعي أن المشكلة على الأرجح هي في السلطة، كما حددها

بوضوح الشاعر اليمني الكبير عبد الله البردوني يومها في أحاديثه: "مشكلتنا ليست في أُمّي لا يقرأ، بل في قارئ لا يفهم"!

في الواقع، كانت هناك أُميّة سياسية، وأُميّة ثقافية لدى بعض العناصر في مركز الحكم، ما أدى إلى اختلال في الفكر والسلوك، وإلى اضطرابات عقلية لدى البعض، وإلى اختلال في البناء، بل إلى اضطرابات في الشخصية الحضارية!!

وبالناتج، كان العديد من الخصومات السياسية التي أفضت إلى كثير من حوادث العنف، من إفرازات هذا الواقع.

السفينة والرياح

في هذه الظروف التي تحدثت عنها، أو عن بعضها، كانت الحاجة ماسّة للوقوف إلى جانب أعلام الأدب والفكر والفن، ودعم مؤسساتهم الإبداعية، وفي المقام الأول اتحاد الأدباء الذي تأسس عام 1972م في عدن. وكنت أعي تمامًا أنّ بعض الظروف غير العادلة واللاإنسانية التي حولت أعلام الأدب عندنا إلى نكرات، وأصبحوا غفلًا في التاريخ، بل وفي عطالة الحياة السياسية والثقافية التي أثرت سلبًا في مجرى التحولات الاجتماعية، فلم تعد هذه الأعلام تحتل مركز الريادة في الدفع بعمليات الحياة الأخرى كتأجيج النزعة الوطنية، وبعث حافز

الاستلهام في نفوس الأجيال الصاعدة، سواء بإيقاظ التاريخ أو بدفع الحياة إلى سيرها الطبيعي.

وكنتُ حيال الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي نقوم بها وأقرّها الحزب في مؤتمره الاستثنائي في عام 1980م أشبّه الأدباء بالسفينة الموثقة بالرياح، لا بد لها من السير في اضطراب الموج، وارتفاع حركة المد، ومزاحمة الريح بمناكب لم تكن تقوى عليها ألواح الكتّاب ولا أقلامهم التي أبحرت بمدادها في الأعماق حين تدفقت برياح الثورة.

الفصل الثالث

الأدباء والفنانون العرب واليمنيون

القمندان.. أمير الجيش والشعر

لكن أولًا، من هو القمندان الذي لا يزال يعيش في وجدان الناس، وأكثرهم البسطاء الطيبون من أبناء هذا الشعب؟!

يبقى القمندان، أحمد فضل، سيد شعراء الأغنية الشعبية العامية، وأكثرهم تأثيرًا في الناس، وأغانيه وأشعاره المغناة لا تزال تملأ الأسماع وتخطف الألباب.

كان الناس، ولا يزالون. حتى اليوم. يحتفظون للقمندان في أعماقهم بهذه الصورة الجميلة.

وبصرف النظر عن الإمارة والسلطة، كان القمندان إنسانًا متواضعًا، وأنا أسمع من البعض عندما كنتُ مدرسًا في المدرسة المحسنية ومحافظًا للحج عام 1968م يقولون: "القمندان أبو الجايع - أبو الفقراء"[1].

وكان أغلب مَن هم في السلطة - ومنها تلك المتنفذة - خلال تلك الفترة المبكرة، لا ترى في الغناء في إطار هذا الموضوع إلا وسيلة تخدير للشعب (هكذا... كانوا لا يرون في

(1) شهادة وردت في "مهرجان القمندان" وثائق، الطبعة الأولى، بيروت عام 1989م.

القمندان إلّا الإمارة والسلطة، رغم عزوفه عنهما في ما عُرف من سيرته).

في هذا الوقت المبكر الذي برز فيه اتجاه يخاصم القمندان وفنه، جاءني الأستاذ عمر الجاوي، وهو يومها الأمين العام لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، يحمل كتاب القمندان: "هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن"، فوجهنا بإعادة طباعة الكتاب (وهو نسخة قديمة) في بيروت، وكان من أهم المؤلفات التاريخية اليمنية بما فيه من دقة متناهية في سرد الأحداث والوقائع المستقاة من أوثق المخطوطات والمراجع التاريخية العربية، ومنها الأجنبية.

وفي وقت لاحق كان الفنان اليمني المعروف محمد مرشد ناجي يأتيني بنسخة قديمة يحتفظ بها من كتاب آخر للقمندان، وهي النسخة الموسومة بـ "المصدر المفيد في غناء لحج الجديد". كانت أوراق النسخة ممزقة لا تكاد تبين معالمها، كذلك الغلاف كان في حالة يرثى لها. خلاصة ذلك: أكل الدهر عليها وشرب! لكنها ليست أي كلام. فقد دار حول الكتاب في فترة الأربعينيات جدل عنيف في أوساط المجتمع اليمني، وخاصة بين الأدباء والمثقفين ورجال الدين. وربما برزت أهميته هنا في ملاحظة الأثر الديني الذي كان يضيّق الخناق على الغناء، بل يدعو أو يقول بتحريمه مما نجد له مثيلًا اليوم في ظل التطرف والتعصب الديني الذي يطالب بتحريم الغناء مهما كانت عفته،

أو كونه صورة من صور التعبير الإنساني، ومثلما شهدناه في تعبير الإنسان عن ثورته. لقد كان هذا الكتاب في وقته ثورة، ثورة بالمعنى الصحيح والنقي على طريق تغيير كثير من المفاهيم السائدة والخاطئة التي علقت بهذا الفن العظيم.

وكتب القمندان يومها، لا في الدفاع عن الغناء فحسب، ولكن في الدعوة إلى تجديده وفي ما أحدثه هو نفسه من تجديد نجده في عنوان كتابه. وقد ذاعت حجته الشهيرة في ما ذهب إليه من مذهب عقلاني في الحكم على الأشياء والتاريخ:

لا تعتمد قـــط ولا تنتمـــي للعسقلانـــي ولا الهيثمـــي

ولا البخاري ولا مســلم فإنّ عند العقل فصــل الخطاب

ما كان لهذا الموقف في يومه أو يومنا هذا إلا أن يوصف بالردة! لكن أقل ما يمكن أن يوصف به من وجهة نظر العدل والحكمة، تلك النظرة المتقدمة في الحياة وتقديس العقل الإنساني والاجتهاد بما لا يجافي الدين والمنطق. وقد صدر هذا عن رجل هو أمير بالأصل، لكنه كان يركن إلى العقل عند فصل الخطاب، وكان كتابه هذا سبقًا بمواقف القمندان من كتابه "فصل الخطاب، في إباحة العود والرباب" لتلك المواقف الجريئة.

حرص الفنان محمد مرشد ناجي الذي تربطني به صداقة قوية على أن يسلمني نسخته الوحيدة، لما علم من إصدار

توجيهاتي بتمويل الكتاب السابق للقمندان "هدية الزمن" وترك أمانته بين يديّ. وكان له ما أراد، فقد أُصدِر هذا الكتاب الفريد، وتولت طباعته دار الهمداني للطباعة والنشر التي سبق الحديث عنها وعن إصداراتها ودورها في إثراء الثقافة وحركة النشر.

ورغم معارضة عناصر في القيادة لطبع الكتاب، بحجة تلك الوصمة أو الحالة الاجتماعية التي علقت بلفظ "الأمير"، بحجة أنه كتب في قصيدة:

هيثم عوض قال ليت الأرض في وَدْرَه
باســـلّي القلب ما بابات شي مغبـــونْ

حتى ولا الناس با تـلـقـي عليْ سمـرهْ
القلب ما طـــــاع يقنع والهوى مسنونْ

هيثم عوض قـــال يا مَدهونْ بالخُمرَهْ
لا هانت الناس أنا حاشــا عليْ ما هونْ

مِن موسمك بَيْــتْ لي راعــدْ وبأ مَطرهْ
بعـــد العشا تِسْـلِيْ المكروب والمحزون

يا الله من الزيـــن زانت حين بــأ نظرهْ
وبأ جِنَـا تيــن فـي تشرين أو كــــانون

يا بوي أنا يا ضــنى حالي من السَّــجْرَهْ
حاشـا علي ألف حاشـا ما اخرج المكنون

حتى ولو خــــاطري مكـــزوز بالجمره

الله له أمـــــره وانا بَصْـبُرْ على المضـنون

ما يسهر الـليـــــل إلا مــن بهِ القَمْـرَهْ
وذي صَـبَحْ جسـمه الضـاني كما العرجون

يبات يـــردف أنيـــن الشـــوق والزفره
والقلب محروق يمسي والكبـــــد مطعون

ســقى عهود اللقـاء يـا بوي من هجره
سقى سقى الشِّـعْب والوادي مطر عثنون

متى متى بالسمر با نجـلـــي الحســره
يا ريحة الفـــل والريمـــــــان والحنون

هيثم عوض قـال بَعْطي خـاطري جَبْرَهْ
مـا دام في القلـب نبرهْ بـا اذلح المخزون

وكان رأيهم أنّ هذه القصيدة كتبت بعقلية إقطاعية. ظهر الكتاب، وطالبت الجهات المعنية بتقديم الإمكانات كافة لتوفير هذا الكتاب للشعب، وفي مقدمته المثقفون.

ويذكرني ذلك الموقف بتلك الحادثة التي تعرّض لها كتاب "النمر الأرقط"، وهو عبارة عن رواية للأمير "لمبدوزا"، آخر أفراد العائلة الصقلية التي حكمت نصف أوروبا لعقود طويلة. فقد صدرت الرواية باللغة الإيطالية، واحتج وقتها الشباب الإيطالي على أن يصدر كتاب في هذا الوقت كاتبه أمير، واعتبروا الرواية ردة في الأدب الإيطالي، ولم يرعوِ الشبان إلا بعد أن قال الشاعر الفرنسي الشهير أراغون كلمته الفاصلة في الكتاب: "إنه

واحد من أهم خمسة كتب صدرت في هذا القرن". وعندها بيعت منه ملايين النسخ، ولا تزال المطابع توالي طباعته! وتحولت الرواية إلى فيلم سينمائي عالمي.

وليس القمندان وحده من لاقى هذا الإجحاف أو الجحود، فأساطين الغناء وأعلامه، وهم شيوخ الطرب الأصيل، ولا سيما المخضرمون ممن كانوا لا يزالون على قيد الحياة ويواصلون رسالة الفن، كان هذا مآلهم أيضًا. وقد صنف البعض غناءهم وكل غناء يأتي خارج "الأغنية السياسية" أو "الوطنية" بأنه نوع من تقاليد غناء مجتمع ما قبل الثورة، وبالتالي فهو غير جدير بالحياة. بل إن البعض منهم ذهب إلى أبعد من ذلك حين أخذ في البحث عن مضامين مخفية وراء تلك الكلمات الوجدانية والعاطفية ليأخذ منها ذريعة لمنعها وتداولها. ولم تكن تلك سوى حساسية شديدة لا مسوغ لها، لكنها في الواقع كانت حساسية ضد التراث اليمني الأصيل، بدعوى أنه يخدر عواطف الجماهير. وشرعت تختفي أسماء وأغنيات كثير من أعلام ذلك التراث الداخل في لحمة الشعب... وهو أمر جلل كان يشير إلى خلل كان لا بد من تصحيحه.

الجوقة التاريخية

كرّمنا عددًا من الفنانين كبار السن ممن أثرَوا الأغنية التراثية طوال عقود. يومها قالوا إننا نكرّم "المحنَّطين"، في إشارة إلى

تقدم أعمار من كرَّمناهم من شيوخ الغناء والطرب. لكنني في حقيقة الأمر كنتُ منسجمًا مع نفسي ومع موقف شعبي الذي ديدنه الوفاء والإخلاص، وتكريم كل من أعطى من عمره وجهده للحياة. وكان هذا أمرًا يبرره مدى تأثير هؤلاء المكرمين في مسيرة الفن والغناء اليمني، وفي الناس الذين اندفعوا إلى ترديد أغانيهم، والذين شكلوا عبر أجيال متلاحقة ما نسميه الوجدان الشعبي.

إذًا، اندفع المعارضون في مهاجمة هذا التراث العظيم دون أن يتبصروا في قيمته وأثره، في الوقت الذي كان الآخرون يقدرون ويهتمون بهذا الفن. إذ كان الدارسون الموسيقيون والباحثون الأكاديميون يأتون من شتّى البلدان الأوروبية لإعداد رسائلهم الجامعية للشهادة الخاصة ولنيل درجة الدكتوراه في هذا الموضوع المتعلق بسلطان الغناء اليمني.

وكانوا يقطعون آلاف الأميال ويخلّفون الأهل ومباهج الحضارة الحديثة وراءهم لدراسة الفن والتراث اليمني الأصيل، بينما كان البعض يضحك ويسخر من هذا التراث وينعته بالتراب. وكان يخيَّل إلى هؤلاء وأولئك أنهم يستطيعون خلق الجديد إذا قطعوا صلتهم بكل ارتباط لهم بالماضي. وفي النهاية، كانوا يتوقفون عند هذه النقطة، ولا يتعدونها لقتل كل ما هو جميل!

يوجد في لحج شعراء كبار، وفي مقدمتهم الأمير أحمد فضل القمندان، والأمير عبده عبد الكريم، وصالح فقيه[1] وعبد الله هادي سبيت وصالح نصيب وغيرهم، وكانوا من براعتهم في نظم الشعر يؤلفون بعض قصائدهم على السجية. وهناك رواية تقول إنّ الأمير عبده عبد الكريم وصالح فقيه ألّفا قصيدة **(صباح الخير من بدري)** معًا عند رؤيتهما لفتاة جميلة، وتقول الرواية: إنّ الأمير عبده عبد الكريم وصالح فقيه كانا بصبيحة أحد الأيام في زيارة لصديق لهما، وعندما قرعا باب منزله الذي يقع في منطقة البيوت اللبنية التي تقع أمام "فرزة" الشيخ عثمان، وتتكون من "دارة" و"مخزن" (غرفة وصالة) خرج عليهم ابنه، وعندما سألاه عن أبيه، قال لهما: تفضلا بالدخول حتى يخرج والدي من الحمام، وما إن دخلا إلى الصالة التي يطل شباكها على الشارع، حتى رأى الأمير عبده عبد الكريم من الشباك فتاة ساحرة تتمايل في مشيتها بغنج ودلال، فقال الأمير بصورة غير إرادية: "صباح الخير من بدري"، وكانا لا يزالان واقفَين، فأطلّ

---

(1) صالح الفقيه أديب وشاعر يمني. وُلد عام 1903 في منطقة حبيش في محافظة إب، وغادرها واستقرّ في الحوطة عاصمة محافظة لحج عام 1914. تلقى تعليمه الأولي في كتاتيب قريته، وواصل التحصيل في الحوطة بجهود ذاتية غير منتظمة. كتب الشعر بالفصحى والعامية. كان على علاقة بالشاعر الأمير أحمد فضل القمندان. كافح الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن عبر أشعاره. شغل عددًا من الوظائف الحكومية في سلطنة لحج، ثم غادر الحوطة في 1967 إلى تعز وبقي فيها حتى مماته.

صديقه الشاعر صالح فقيه من الشباك، فرأى ما رأى صديقه فقال: "عليك يا غصن يا رغدود"، ونظما القصيدة في الحال، فكان الأمير عبده يقول الشطر الأول ويكمل صالح فقيه الشطر الثاني، وهكذا كتبا القصيدة شطرًا شطرًا. وكان المرحوم فضل محمد اللحجي "يخزن" (يمضغ القات) في نادي الشباب بالشيخ عثمان، فذهبا إلى النادي وجلسا إلى جواره وقصّا عليه الحكاية وأعطياه القصيدة، فأخذ العود وجلس يدندن، ولم ينته "المقيل" (جلسة القات) حتى لحنها.

فضل محمد اللحجي

وتقول كلمات القصيدة:

صباح الخير من بدري — عليك يا غصن يا رغدود
معك بسرح معك بسري — معك يا بو العيون السود
خفى من غير حد يدري — ولا شاهد ولا مشهود
معك لا مطلع الفجري — على المغنى وصوت العود

حبيبي جاء من الجنة　　مرسل من بنات الحور
نزل با يعلن الهدنة　　على ذي في هواه مأسور
قضينا الفرض والسنة　　بهذا اليوم يوم النور
سقاني الريق من يزري　　بريقه خمرة العنقود

حبيبي غاية المقصود

وهذا يشبه ما حدث بين الشاعرين بن رامي علي وأبو حمحمة عندما قال الأول: "ليت السماء في الأرض والأرض السماء" وأكمل أبو حمحمة: "با حط لي في الأرض ولا في السماء با طير".

المحبة عذاب من صاب الله بها صاب

تقول الرواية إنه كان هناك مجلس يحضره الأمير أحمد فضل القمندان وصالح فقيه وعبده عبد الكريم ومجموعة من الفنانين، ومن بينهم فضل محمد اللحجي في بستان الحسيني[1] الذي يقع على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من مدينة الحوطة، وعندما انصرف الحاضرون من المجلس عائدين إلى بيوتهم سيرًا على الأقدام، بدأت الخادمة بتنظيف المجلس وهي تدندن

(1) - سُمِّي الحسيني لوقوعه في وادي حسان، وكان البستان جميلًا جدًا، حيث كان الأمير القمندان يعتني فيه بأشجاره وثماره التي جمعها من كل أنحاء العالم، وكان يتغنى به دائمًا، فقال: "في الحسيني جناين والرمادة زراعة"، فكان يسمح للجميع بقطف ثماره الناضجة أو التي تقع على الأرض، أما الثمار غير الناضجة، فلا يسمح بقطفها، حتى إنه في أحد الأيام شاهد رجلًا يقطف ثمرة غير ناضجة، فسجنه وجاء السلطان عبد الكريم فضل، وطالب بالإفراج عنه، فقال له الأمير أحمد: أنا لا آخذ من مال السلطنة، ولا أتدخل في أموركم، فأنا أعمل مع الفلاحين والذي يقطع الشجرة أو الثمرة فكأنه يجرحني شخصيًا.

وتقول: "المحبة عذاب"، فسمعها الأمير أحمد فضل القمندان وردّد معها "المحبة عذاب"، وأخذها مطلعًا لقصيدته الجديدة، لكنه لم يستطع أن يُتمّ القصيدة، فأرسل وراء الحضور في تلك الليلة لإرجاعهم، وعندما دخلوا عليه كان يردد "المحبة عذاب"، فبادره الشاعر صالح فقيه بالقول: "من صابه الله بها صاب"، فردّ عليه القمندان: "ذاك فصل الخطاب يا زين ليه التقلاب"، واستمروا هكذا حتى نهاية القصيدة ونهاية السهرة.
وتقول القصيدة:

المحبة عذاب من صابه الله بها صاب
ذاك فصل الخطاب
يا زين ليه التقلاب
يا اللي وعدني وعاب وقفل على نفسه الباب
يا حقيب الخضاب يا زين ليه التقلاب
افتح الباب وإلا با يقع دوب قبقاب
أو حسّ ذا القلب ذاب يا زين ليه التقلاب
ليه ضاع الحساب تسلق حزيران في آب
قد كشفنا النقاب
المحبة عذاب من صابه الله بها صاب
ذاك فصل الخطاب
في الحسيني أمست خبره جماعة وأصحاب
والسمر طاب طاب
يسحببوا الأنس بين الفل والورد سحباب
في جناين عجاب
ثم صوت الرباب والعود والماء ينساب
والمطر والسحاب

اسكبوا لي شراب قهوة قرنفل وعناب
بعد ماء الكزاب
قد دنى الأنس كان أي قاب قوسين أو قاب
فاسقني والصحاب
اسقني اسقني من أنكر العشق كذاب
قال غير الصواب
ليه ليه العتاب مافيش للعتب أسباب
من سعى فيه خاب
يا زين ليه التقلاب

وهناك رواية أخرى تقول إنّ القمندان كان في قصر الحجر بالحوطة، وإنه كان يردد (المحبة عذاب المحبة عذاب) دون أن يستطيع إكمال بقية البيت، وطلب صالح فقيه ومسرور مبروك وغيرهما من الشعراء والفنانين الذين كان يؤلف ويلحن الأغاني لهم، وعندما شاهده صالح فقيه وهو يدندن "المحبة عذاب"، ردّ عليه بالقول: "من صابه الله بها صاب"، وهكذا إلى نهاية القصيدة أعلاه.

غزلان بالوادي

واتهم البعض الأمير أحمد فضل القمندان بأنّ شعره منحول، وأنّ هذا الشعر لغيره من شعراء لحج. وفي هذا الخضمّ من النقاشات، انبرى شخص وكتب مقالًا تحت عنوان "والدي شاهد عيان"، قال ذلك الشخص: "خرج والدي بمعية القمندان يتفقدان الأرض الزراعية، وكان معروفًا عن القمندان حبّه للأرض والزراعة، وبينما كانوا يمشون على "سوم" أحد

"الجرب" أو "ودن" كما نسميه، كان سرب من البنات الفلاحات الجميلات يسير فوق "سوم" "الجربة" التي تأتي فوق جربة القمندان، فراقه هذا المنظر وقعد وقال لوالدي: هل لديك بياض وقلم؟ قال: نعم، (والمعروف أنه في الماضي كان لا يخلو جيب إنسان من القلم والورق)، قال القمندان لصاحبه: اكتب، قال: ماذا أكتب، قال:

غـزلان في الـوادي يـا ســـعـد رعـيـانـه
يـا ريـتـنـي مـعـهـم بـامـرح عســـل نـوب

يــرعــون مــن تــين الــوادي ورمــانــه
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

حــبـيـت غــزلان الــوادي وفــتــيــانــه
حس الـكـبـد مـن فـرق الـظـبـي مـلـهـوب

والقلـب يمســـــي في شـــاغـل على شـــأنـه
يـا خـاطـري مـا شـــأنـك لـيـه مـتـعـوب

يـا قـمـري الـوادي لـيـه الـبـكـاء والـنـوح
خـلـيـت قـلـب الـعـاشـــق في شـــجـن دوب

لــيــه الجـفـا عـيـنـي يـا حـيـاة الـروح
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

مســـموح فـيـما ســـبـبـتـه يـا روش مســـموح
والـفـضـــل لـك ســـيـدي والـعـفـو مـطـلـوب

حـتـى ولا مـن عـيـنـيـك الـكـبـد مجـروح
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

بـاذلـح لـك الـغـالي لمـا تـقـول لي بـس
بـاامســــــي على بـابك والـبرد ســعبوب

وإن خفـت من أهلـك بـاسري معـك بـالـدس
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

والصـــبح ذي اسـفـر والليـل ذي عســعس
حـريـق في الخـاطـر والـقـلـب مـقـطـوب

يـامـا الهـوى كـوى والـقـلـب يـتـمســمـس
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

بـاصـــبر في الهوى لمـا تـرحمـني أنـا متعـوب
من أجل العسـل باصبر باالتحمل قبصتك يا نوب

بـافوق العســـل تعطيني من اللبن شـخبوب
مـا بـاســـمـع الـداعـي لي في فـراقـك قـط

بـا اصـــبر عـلى مـا فـيـنـي صـــبر أيـوب
وإن خـفـت مـن كـيـد الحـســـاد بـاتـلـطـلـط

يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب
بااصــبح وباامســــــي في الوادي بجنب الشــط

لـيـه الـورش عـن عـيـنـي لـيـه محـجـوب
والـنـوم مـا جـاني والـلـيـل يـتـمـطـط

يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب
طـبـيـب في الـوادي لـيـتـه يـداويـنـي

مــن الــلــبــن بــالمــارود شـــخــبــوب
والا عســـل جـرداني مســـكـوب في صـــيـني

يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب
لـيـلي هـوى الـوادي في قـلـبـي يـكـويـنـي

يــمســـــــــي الـقـلـب المـارود هـبـهـوب
لا عــاد دنـيـا خــلا لي ولا ديـــنـــي
يـا خـاطـري مـا شـــانـك لـيـه مـتـعـوب

وهذه شهادة بأنّ القمندان هو كاتب أشعاره وملحنها في آن واحد، ولو كان ما ادعاه البعض صحيحًا، لظهر أولئك الشعراء المزعومون بعد وفاته على الأقل وأثبتوا حقهم.

وكان الحسيني يعتبر جنة لحج، بل جنة القمندان. فقد جمع أشجاره من كل أنحاء العالم، وتغزل فيه وفي أشجاره وفي طبيعة لحج الجميلة: "الحسيني جنائن والرمادة زراعة، عادني عادني با لي من الزين ساعة"، فالحب هو جنته ومصدر إلهامه.

وهذه شهادة أخرى كتبها الأستاذ حسن محمد زين، الذي عمل وكيلًا لوزارة التربية والتعليم في اليمن الديمقراطية وملحقًا ثقافيًا في كل من الأردن وبولندا، في الأمير أحمد فضل القمندان:

النشأة

وُلد الأمير الشاعر أحمد فضل بن علي العبدلي (القمندان) في عام 1884م في مدينة الحوطة لحج، وكانت أسرته من حكام السلطنة العبدلية التي حكمت لحج لأكثر من مئتي عام تقريبًا.

نشأ القمندان في وسط فني أدبي علمي، حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة في منزل أبيه، وتلقى العلم على أيدي معلمين في ذلك الزمان. فقد درس اللغة العربية والفقه والحديث على يد الشيخ أحمد السالمي (فقيه لحج آنذاك)، وتلقى مزيدًا من العلوم والمعارف على يد السيد علي الأهدل (قاضي لحج في ذلك الزمان أيضًا)، وتعلم اللغة الإنكليزية في مدرسة البادري في التواهي لفترة، ثم أحضروا له معلمين في اللغة الإنكليزية إلى مقرّ إقامته في الحوطة، حيث أجاد فيما بعد اللغة الإنكليزية كتابةً ونطقًا.

والشاعر القمندان ممكن أن نُطلق عليه هذه الصفات، فهو المزارع، العسكري، الأديب، الشاعر، الفنان والمؤرخ... وهو من اهتم بفلاحة الأرض وأحبها كثيرًا، وكان يسمي الأرض التي يملكها بعدة تسميات، منها: قرة العين – البصرة – حيط البصل، إلخ من هذه التسميات.

جلب الكثير من الفواكه العجيبة والغريبة، ولا سيما من الهند، واهتمّ بالزراعة، وعشق الأرض وظل يتغنى بها.

فلحج، الواحة الظليلة الخضراء، تمتاز بتربتها الخصبة. فهي بلدة ترابها عبير، وهواؤها نسيم وماؤها رحيق، ونسيمها معطر، وليلها سمر، وشرابها مريء.

ولقد كست الطبيعة "لحج" سندسيةً زاهية، وبين الخمائل والزهور وأريج الرياحين، يعيش المرء لحظات شاعرية يستلهم منها الإبداع، وتتناهى إلى سمعه أصوات الفن الأصيل ورجع أصداء الغناء اللحجي من الماضي البعيد – القريب.

لحج الخضراء، مثلما هي أشعة الزهور، كذلك هي ابتسامة البشر، صحيح أنها منطقة صغيرة في مساحتها، ولكن خيرها الذي تصنعه هبةً لبنيها ولحقوقهم به، هو الذي يجذّر خيوط المشاعر الوجدانية والإبداعات الفنية المتأصلة في شرايين من ارتوى من وادي تُبن.

فلا عجب في ذلك، فقد انطلقت قصائد القمندان تمجد الأرض والطبيعة وسحر الجمال، فجميعها توحي إلى الشاعر والفنان، وتلهمه بأن يحسن العطاء ويتفنن في الخلق والإبداع، وكانت هذه المعطيات قد تلقتها موهبة منفتحة صاغت الأغاني الخالدة والأنغام الساحرة، فكانت هواية القمندان قراءة الكتب والمجلات العلمية والأدبية وصياغة الألحان بصفة استمرارية، ما دفعه إلى وضع إمكاناته المادية لدعم الأغنية اللحجية وتطويرها والحفاظ على طابعها الشعبي الأصيل.

فالشعر من فنون القول التي تسلب اللب وتهزّ فيه غافيات الوجود، ويحرك فيه مشاعر الإنسان وأحاسيسه في أثناء القراءة وبعد الانتهاء من السماع. وهذا الفن إذا أحسنّا إجادته، وصل بصاحبه إلى مرتبة عالية، فلا يزال الشعر موصولًا بنبض الطبيعة الحية - ساكنة كانت أو متحركة - فهي ملاذ الشاعر وأداته الفنية يكوِّن من خلال مظاهرها المتنوعة شعره، ويستوحي منها القدرة على التجدد والبقاء.

إنّ الشعر على مدى تاريخه الطويل يدين للطبيعة بالأمومة، وما من شاعر يستطيع الكتابة بمعزل عنها؛ فهو حين يقف على مظهر من مظاهرها عاكسًا عليه أحاسيسه وأفكاره، يكون تأثيرها به في هذه الحالة مباشرًا. وقد واكب الشعر في لحج صنع الحياة الأدبية والسياسية معًا، فكان في مجمله يدور في غرضين: الأول شعر الغزل، والطبيعة والمرأة، والثاني كان الشعر الحماسي.

الغزل من أقدم الفنون الأدبية، وألصقها بالشعر الغنائي، وهذا الفن يصدر من أعماق النفس، ويكون معبّرًا عن أرهف الأحاسيس البشرية، لأنه في حقيقته، وفي جذوره النفسية واللاواعية، مظهر من مظاهر التوق إلى الخلود بالاتحاد بالجنس الآخر لتأمين ديمومة الحياة. فهو يقتصر حينًا على التحدث عن جمال المرأة من مفاتن في الجسد إلى خفة في الروح، أو يتناول الآلام التي يحسّ بها العاشق المهجور والحرقة التي تعتمل في

قلبه، فيفصح الشعر بالقلق واليأس أو ينبض بأمل اللقاء واجتماع الشمل. وهذا ما نجده في أشعار القمندان وسبيت وصالح فقيه وصالح نصيب وغيرهم. فالشعر الغنائي حيّ، حارّ، مؤثر، مباغت، يشيع منه التفجر الداخلي والطفرات اللفظية والبيانية والشكلية، لأنه في الأساس انفعال وإثارة، فإذا ما عبّر الشاعر عن هذا التفجر في موسيقى أبياته، أنتج ما نسميه الشعر الغنائي، والثابت أن لا غنائية بلا عاطفة.

وليس من الممكن أن يتحدث المرء عن ازدهار الحياة الفنية في لحج دون أن يخصص للأمير الشاعر أحمد فضل القمندان مكانًا بارزًا فيها، فكان أينما حلّ، وفي بستان الحسيني خاصة، يكون بصحبة كوكبة من الشعراء والأدباء والفنانين الذين كانوا يحسّون بأنهم بين يدي أب رحيم بإخوانه وأبنائه.

لقد كوّن القمندان بلاطًا أدبيًا، كان منطلقًا لنشاطه الفني في بستان الحسيني، وجعل من مجالسه الأدبية والشعرية خمائل أدبية عبّقت تاريخ الشعر والأدب، وغنّى على أفنانها عنادل الشعر قصائد عصماء طار صيتها في الآفاق، وأصبح قصره ملتقىً للأدباء والشعراء من لحج وعدن، يستقبلهم ببشاشة وترحاب، ويطارحهم الشعر والأدب بعيدًا عن بهرجة الملك وسلطان الحكم في جوّ تسوده الحرية والتعبير وإبداء الرأي دونما خوف أو خجل.

حُبّ القمندان لبستان الحسيني جعله يفكر في بناء مضيف للراحة ومكان لاستقبال ضيوفه من المحليين أو العرب، ومن حبه لزواره، يقول القمندان:

سـلام مني عليكم يـا حبـايـب يوم الهنـاء بـاتجونـا للحســيني
حيا بكم با نســوي كل واجب أهلا على الرأس يا أحبابي وعيني

القمندان أكثر في شعره من القصائد الغزلية، وأكثر من ذكر الأماكن والسمات اللحجية وأسماء النبات والحيوان والطيور والوديان والينابيع والأعشاب والفواكه، وشخّص واقع الأحداث التاريخية.

وكثيرًا ما نظم القمندان في الوصف، وديوانه "**المصدر المفيد في غناء لحج الجديد**" حافل بهذا اللون من الشعر الذي يستمد الألوان البديعة والصور البيانية الجميلة من جمال الطبيعة الخلابة والمجتمع والحياة المترفة في ذلك العصر، وهي تتسم بالرقة والجمال.

والشاعر العامي – الشعبي مثل الشاعر النحوي، كلاهما يزفّ أفكاره بأدواته بعد أن يصقلها ويهذبها ويراعي دقة وجمال انسجامها ورقتها.

شط البحيرة – الحسيني

حدّد القمندان مساحة سبعين مترًا مربعًا تقريبًا، بعمق ثلاثة أمتار، حيث تقع البحيرة في حيط البصرة منها متران أسفل

التربة، ومتر يعلوها، وبنى جدرانها وفرش أرضها بالخرسانة العادية، وخلف الجدران الأربعة أقام عشرة أعمدة خشبية التصقت بها، وأقام عليها أيضًا منصة للقفز وبجانب البحيرة غرفة لخلع الملابس، وكسا الخشب بأشجار الياسمين، وحول البحيرة تنتشر كراسيّ شراعية موزعة، فردية وجماعية، وأقام مسرحًا كان يُطل عليها، وتُقام عليها البروفات الغنائية والرقص الشعبي.

الأستاذ حسن أفندي قال:

في الحسيني من الفواكه كثيرة

الفنص والجامبو جاد خيرة

باتحمم على شاطئ البحيرة

أكملها القمندان كلماتٍ ولحنًا عُرف بلحن "باتحمم على شط البحيرة".

فواكه الهند وأصوات الجوالب وثم بمبي جاردن في فنّ ثاني

والورد والفل أشكاله عجائب أبيض ووردي وأصفر أرجواني

وفي النهار تظهر البحيرة وما حولها من ألوان مختلفة، وفي منظر بديع حيث نقل إلى الحسيني أصنافًا من الفواكه والأشجار والطيور.

ويصف القمندان الدار فيقول:

طار النوم يا قمر من أعيانه ذكر دار الحسيني وسط بستانه
مرتل في سحرنا نغمة الدانة كأنه دار يوحنا ورهبانه

ويرتبط تاريخ شعر الغناء في لحج باسم الشاعر القمندان، لما له من إسهامات أدبية رائعة، ومن الإنصاف القول إنّ القصيدة الغنائية على يديه وفي زمنه بلغت من النضج حدًا بعيدًا، وله يرجع الفضل في تطورها وانتشارها. فلقد استطاع، بما لديه من موهبة وبما يمتلكه من مقومات أدبية، الارتقاء بمستوى القصيدة الغنائية شكلًا ومضمونًا، واختطّ طريقًا خاصًا به في كتابة القصيدة الغنائية، وإضافاته المتعددة في هذا الميدان يمكن الوقوف عليها من خلال تمرده على شكل الموروث في بناء القصيدة الغنائية، الأمر الذي يجيز لنا أن نقول عنه إنه كان رائدًا من رواد الشعر الغنائي في لحج.

فقد كان القمندان يكتب الكلمات ويلحنّها ويغنيها وينسّق إيقاعاتها ويخلق رقصات جديدة مواكبة لألحانه.

وشعره متدفق الأحاسيس، قويّ الصور معطاء، لا يترك فرصة للمستمع في وقفة، ولو بسيطة، لكن يرغمه على الاستمرار حتى النهاية.

لقد بلغ القمندان في فنّه بالنسبة إلى مستوى بلده وأمته قمة المجد والشهرة، ولم يكن ذلك اعتباطًا وعفويًا، بل لأن القمندان كان ذلك الرجل البسيط الذي انفعل بآلام الفقراء والتعساء والبؤساء وغنّى لهم في وقت واحد. والمتتبع لحياة القمندان يجد

أن حياته كانت مزيجًا من المعاناة والكد والنشاط. وتغلغل حب بلده في نفسه، الذي أبرزه في أشعاره وأغانيه.

وفي قصيدته "**محبة الوطن**" التي أصبحت النشيد الوطني للسلطنة اللحجية، يقول:

بلادنا نحبها لـحج وواديها تبن
فيها الجناحان بيزج وفالج رب اسقها حتى عدن

لحـج الهناء تبن الرخاء لله درك من وطن
بالروح نفديك وهل لك أيها الوادي ثمن

أجري كما تهوى فإن الرعد فوق الحيد حن
واسقي العبادل يا تبن أما عسـل ولا لبن

يا لـحج أنتِ قرة الدنيا ويعسوب اليمن
فاحيي ويحيا ابنك لنا عبد الكريم المؤتمن

وهناك قصائد مثل "تاج شمسان" و"البدرية"، والقصيدة التاريخية التي صوّر فيها نضال الشعب ضد الاحتلال التركي، إذ يقول فيها:

طلعت بدرية بين الحسان بعيون سود
فتكت في القلب طعنًا بسنان لحظها المحدود

كنت يا قلبي من العشق مصان من لظى الأخدود
فاتقيها بدموع العاشقين واصحب الباكين

حرقت في الغيل أكباد الحدور كلهم مهيوش
لو مشت يوما وظلت في الحرور أذعن المطنوش
والقرشي أسرت فيه الذكور من بني الشاؤوش

... إلخ

"البدرية" بقصيدة "البندقية رقم 219":

كلمة بدرية في اللغة تعني الصباح، والفتاة أو المرأة التي تصحو مبكرًا من نومها.

البندقية لها فوهات والمخزن التابع لها يسع
إحدى وعشرين طلقة لم يقتنِها من اليمنيين
إلا مطنوش من العبد الحرور.

أول من أطلق اللقب هو الأمير الشاعر أحمد فضل القمندان.

جاء في القصيدة ذكر "ذئب أهل البان"، وهو حسين العاقل الذي ينحدر من قبيلة آل البان الذين يسكنون قرية الحمراء/ لحج، وهب نفسه في خدمة الأتراك منذ وصولهم إلى لحج حتى مغادرتها عام 1918م.

1. مطنوش بن العبد الحرور – قائد مقاومة الدفاع ضد الاحتلال التركي – حيث كوّن عشرين فرقة بقوام مئة وخمسين مقاتلًا للفرقة الواحدة، وكانت تلك المعركة الشرسة الفاصلة بينه وبين الأتراك في كبد الحرور، فقتل من الأتراك من قتل، ومنهم من فرّ هاربًا إلى الحوطة وسفيان.

2. خلّد المطنوش قصة كفاح ونضال في وجه الغزاة الأجانب في الحرب العالمية الأولى.
3. قاوم أهل القريشي الاحتلال التركي، حيث شاركت فيه النساء منهم، فاطمة بنت أحمد عمر، ونعمة بنت سالم صالح، وفطومة بنت محمد علي باعساس. عاقل القبيلة يدعى أحمد عمر.

الفرقة النحاسية الموسيقية العسكرية

عندما تولى الشاعر أحمد فضل القمندان قيادة جيش سلطنة لحج، فكّر في تأسيس فرقة موسيقية، فنشط في جلب آلات نحاسية موسيقية ومعلمين موسيقيين، حيث بدأ بتشكيل هذه الفرقة في عام 1926م، ودعا إلى تعليمها الأستاذ إبراهيم راسم، وهو من بقايا الأتراك في اليمن.

بدأ راسم بتعليم مجموعة من أبناء لحج، ومن ثم تولى قيادة الفرقة عدد من أبناء لحج، منهم ناصر غرامة (برتبة ملازم)، وعبد الله صبره (برتبة ملازم أيضًا) اللذان أصبح بإمكانهما قيادة الفرقة وتدريبها على أية أعمال موسيقية جديدة، وتمكنا من تعليم النوتة الموسيقية كتابة وقراءة.

هذه الفرقة تُعَدّ من أقدم الفرق الموسيقية النحاسية، وكانت تشارك في الاحتفالات الرسمية والدينية في لحج، كعيد الفطر والأضحى، والأعياد الوطنية للسلطنة العبدلية، ومنها عيد

الجلوس لسلاطين لحج، وترافق سلاطين لحج عند خروجهم لأداء صلاة الجمعة وصلاة العيدين (الفطر والأضحى) والمعايدة واستعراض الحرس السلطاني واحتفالات المدرسة المحسنية في الحوطة والمدرسة الجعفرية في الوهط.

كانت تشارك في العروض العسكرية التي يحضرها السلطان والعائلة العبدلية الحاكمة وجموع المواطنين من أبناء لحج ومناطق السلطنة كافة، وبعد ذلك تنطلق الفرقة الموسيقية تجوب مختلف حارات الحوطة، ويستقبلها أبناء الحوطة، رجالًا وشبابًا ونساءً، يسيرون خلفها وهم مبتهجون فرحون، والفرقة تعزف أعذب الألحان الموسيقية اللحجية الخالدة والجميلة والأناشيد الوطنية والعربية والنشيد الوطني للسلطنة اللحجية.

كان قائد الفرقة الموسيقية العبدلية شخصًا اسمه (مخور)، طيب الله ثراه، ومن بعده تولى القيادة شخص اسمه (حسن صالح علي) الذي كان يتقدم الفرقة الموسيقية النحاسية "مايسترو الفرقة".

ومن أبرز أعضاء الفرقة محمد عبد الله الكريدي (والد الفنانين فضل وحسن كريدي)، حيدرة برقش، فضل الحداد الملقب فضل الشاقي، وعبد الله عوض سالم، محمد ناصر بخيت، حسن مرشد، رشاد حيدرة برقش، ناصر عبده كعدة، محمد عوض مغلس، محمد الحاج وآخرون.

ومن المعزوفات التي كانت تعزفها الفرقة:

1- السلام السلطاني وهو اشتقاق من السلام الملكي البريطاني.
2- تحية الوطن.
3- دعوة للتجنيد.
4- نشيد الطلبة.
5- دعاء السلطان.

وكانت تعزف بعض المقطوعات الموسيقية في الحفلات العامة والسهرات:

سماعي تركي – سماعي إنجليزي – سماعي إسباني – عزف أغانٍ مصرية لفنانين مصريين أمثال الفنان عبد الوهاب، ومقطوعات خفيفة (حلوي يا مشمش بلدي يا مشمش) تسلم لنا يا غالي.

وكذا الأناشيد التي كان يؤديها الطلاب الدارسون في لحج مثل:

6- نحن الشباب لنا الغد ومجده المخلد (مصري)
7- موطني يا موطني وغيرها من الأناشيد الأخرى.

ثم أدخل القمندان آلة العود والكمنجة في الفرقة.

ويمكن تلخيص عمل الفرقة في ما يأتي:

8- تدريبات عسكرية على الأعمال الموسيقية المختلفة.
9- التحية الرمضانية يوم الخميس ليلة الجمعة.
10- الذهاب بالسلطان لأداء صلاة العيدين (الفطر والأضحى المبارك).

11- عزف الأناشيد لطلاب المدارس في أثناء المهرجانات والاحتفالات.
12- المشاركة في الحفلات الرسمية.
13- المشاركة في العروض العسكرية.

وكانت في بعض الأحيان تشارك في مولد العيدروس والهاشمي في عدن.

البردوني والقمندان

قال عنه البردوني في كتابه "الثقافة والثورة في اليمن" ما يأتي:

نشأ القمندان في وسط حافل بالمطربين والصحفيين والشعراء، وكانت صحيفة "فتاة الجزيرة" تتابع أخباره الفنية وقصائده حتى تكاد أن تسجل عطاءه كذلك من سربه الشعري: عبد المجيد الأصنج، محمد عبده غانم، صالح الحامد، علي أحمد باكثير، محمد علي لقمان (صاحب فتاة الجزيرة)، إلى جانب الأصداء الشعرية بين مصر والسودان وشمال اليمن والحجاز.. فقد عاصر القمندان من بعيد علي محمود طه وإبراهيم ناجي، ومن قريب عبد الكريم مطهر من صنعاء، المتوفى عام 1946م، إلى جانب الأسماء الفنية التي سبقت الإشارة إليها.

وعن كتابه "هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن" نهج القمندان في كتابه نهج العيدروس في كتابه "النور السامر في

أخبار القرن العاشر"، ومثل كتاب بامخرمة "قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر"، وهذا يبرهن على سلفية القمندان في الاستطراد التاريخي، وفي التعامل مع السجع، لأنه كان الآية على المحصول اللغوي الذي حازه المؤلف، مع أن الاستكثار من السجع أسوأ ما دخل على فنّ الكتابة من القرن العاشر إلى أربعينيات هذا القرن، لأنّ المؤلف يحيد عن إتمام الجملة عن مدها على أنفاس القراء أو المؤلف. ولقد دوّن القمندان الأحداث التي تواترت على التاريخ الإسلامي من خلال كتابه عن لحج وعدن، فليس تاريخ المكان الواحد إلا مجرد عنوان تتوالى منه الفصول إلى الزمن السحيق ولعهد القريب. وقد كان القمندان في حالاته الفنية منسجمًا في سربه من الشعراء، غير أنّ الكتابات المحلية التي تمحورت في مهرجانه الذي أقامه اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين عام 1988م، تبدو مليئة بالدهشة أمام أعماله، فخلعت عليه صفات المناضل الوطني وصفة المهتم بيوميات الناس، وطُبقت عليه النظريات الماركسية والفرويدية. ويضيف البردوني: كان القمندان أهم أعوان أخيه – عبد الكريم فضل سلطان لحج لأنه نظم للسلطنة جيشًا وتولى قيادته برتبة قمندان، وكان فلاحو لحج يجأرون بالشكوى من شدة القمندان في استخلاص الواجبات وتقصّي المشبوهين في نظر السلطة،، وكان هذا المنصب جملة معترضة في حياة القمندان الفنان، فبعد فترة قيادته حاول أن يستدرك ما فات من ليالي الطرب وإنعاش الفن، غير أنّ القمندان السياسي ظل كامنًا

في القمندان الفنان، إذ كان يحرك القوى عند كل طارئ يمسّ السلطنة.

ويقول البردوني عن القمندان:

ولو تنفس الأجل للقمندان إلى المذياع، لأعطى عن فنه الأحكام الأصح، لأنه كان قوي الاهتمام وقوة اهتمامه وجرأته هي التي أحدثت الإدهاش به والاختلاف حوله، وليست هذه السطور عن القمندان وفنه ومحيطه إلا مجرد إشارة إلى الشاطئ الذي يدل على البحر.

مؤلفاته

1) من مؤلفاته كتاب "هدية الزمن في أخبار لحج وعدن" وهو سفر تاريخي عجيب.
2) كتيّب "فصل الخطاب في إباحة العود والرباب" الذي اجتهد فيه في درء الضغوط التي تهدف إلى إبعاده عن الفن من منظور ديني حشد فيه ضعيف الأحاديث حتى يبرر اهتمامه بالفن. وهذا يعني أنّ هذا الكتيّب جاء للرد على الضغوط التي تعرّض لها ليترك شعر الغناء.
3) كتاب "المصدر المفيد في غناء لحج الجديد"، وهو ديوانه الرسمي الذي ضمّ كل قصائده التي غلب عليها طابع الشعر العامي، وحاول من خلالها وضع لمسات إبداعية جديدة على الأغنية اللحجية.
4) الأغاني اللحجية

5) وللقمندان أيضًا بعض من الأعمال النثرية، ولعل أهم ما كتبه في النثر من خلال المقالات التي نشرت في صحيفة "فتاة الجزيرة" التي كانت تصدر في عدن.

وفاته

توفي الشاعر الأمير أحمد فضل القمندان في عام 1943م في أحد مستشفيات مدينة التواهي، بعد أن ظل هناك لفترة طويلة، علمًا بأنه أُصيب بمرض الجدري، وعندما توفي نقل صباح اليوم التالي إلى الحوطة، مسقط رأسه، ودُفن في مسجد الدولة بالحوطة.

"دموع الأربعين"

عنوان كتاب صدر بمناسبة مرور أربعين يومًا على وفاة الأمير الشاعر أحمد فضل بن علي القمندان، ضمّ في طياته الكلمات والقصائد الشعرية التي قيلت في الفقيد القمندان.

أصدر الكتيّب السلطان علي عبد الكريم عام 1943م، وصدر عن مطبعة فتاة الجزيرة – عدن.

حضر حشد كبير من الأدباء والشعراء والشخصيات الاجتماعية من أبناء لحج وعدن في قصر الروضة في الحوطة، حيث أُلقيت فيه كلمة السلطان علي عبد الكريم، وكلمة الأستاذ لقمان، الذي اقترح أن يفتح فرعًا باسم القمندان في المدرسة المحسنية، بحيث يكون معهدًا لتدريس الأدب.

أُلقيت أيضًا القصائد من قبل الشعراء، صالح فقيه والسيد محمد عبده غانم وصالح عبد الله بامعافا وعبد المجيد الأصنج، وكلمة الأستاذ صالح دبا، ثم كلمة الأديب علي لقمان، وقصيدة للأمير علي بن أحمد مهدي، والأستاذ يوسف حسن السعيدي وعبد الله هادي سبيت...

واستمع الحاضرون إلى كلمات كل من فضل عوزر وعبد الرحمن جرجرة وحسن منيعم، واختتم الحفل الفقيه أحمد بالدعاء والتهليل، لينفضّ العزاء، وجُمعت الكلمات والقصائد الشعرية في هذا الكتيّب "دموع الأربعين".

انتهى ما كتبه الأستاذ حسن زين عن القمندان، ولكن لم ينتهِ الحديث عن لحج وحكامها، ولعل أبرز من يمكن الحديث عنه، سلطانها الثائر علي عبد الكريم.

عبد الله هادي سبيت... الروح الوطنية

علقت بلطفي تهمة الإنكليزية، وعلقت بالجرادة تهمة "الإمامة"، فهل علقت بالشاعر والمسرحي والرجل المتصوف عبد الله هادي سبيت تهمة السلطنة؟ تلك التهم التي تطارد مثقفينا وأدباءنا.. شأن مؤرخنا محمد عبد القادر بافقيه الذي ظلت تلاحقه تهمة أنه عمل يومًا في المستشارية البريطانية في المُكلا؟

أظنه لغط القرون يتسرب إلى مسامات الوعي! دول تنصّب من شعرائها أمراء ومن فنانيها أعلامًا وتغضّ الطرف عن هفوات التاريخ: لكل عالم هفوة، كما لكل حصان كبوة. وأحصنتنا كانت قد نفقت في الميدان، وأنهت أدوارها، لكن تشفع لها مآثرها الوطنية. ولكن بعض قوى الثورة كالت لها بالمكيال ذاته الذي كانت تكيل به لأهل البغي: الاستعمار والإمامة والسلاطين. هذا شاعر الروح الوطنية عبد الله هادي سبيت، يقول:

يا شاكي السلاح... شوف الفجر لاح
حط يدك على المدفع، زمان الذل راح

ونمضي مع روحه الثائرة:

أرضي والـنـبـي ويـل الأجـنـبـي
ديني ومذهبي يأمرني أن أحمل سـلاح
يـا الله يـا شـبـاب آن الاكـتـاب
أرضك ملك لك والمغتصب حتماً يُزاح
يـا الله لـلأمـام بـانـحـمـي السـلام
يا الله نشعل الثورة كفى من قول آح
ولـيـحـيـا جمـال قـهـار المـحـال
يحيا الشـرق ما عاشت شعوبه للكفاح

في وداع الشاعر الكبير عبد الله هادي سبيت

برحيل الفقيد الكبير عبد الله هادي سبيت، فقد الشعب اليمني رجلًا مناضلًا وشاعرًا وطنيًا طالما أحبته الجماهير وأحبها، وكان امتدادًا "لأمير الشعراء والأمراء" أحمد فضل القمندان الذي ارتبط اسمه وشعره بالأرض والطبيعة والفل والورد والكاذي، وكان الفقيد شاعرًا جسّد صورة رائعة لمرحلة من تاريخ الحركة الأدبية والفنية في لحج، التي خَرجَت باقة مميزة ممن يشار إليهم بالبنان من شعراء العصر الحديث وأدبائه وسياسييه.

وطالما ألهبت كلمات قصائده العاطفية والوطنية مشاعر الجماهير، إذ أدّى دورًا مهمًا في النضال ضد الاستعمار البريطاني، ودعا شعرًا ونثرًا وغناءً إلى حمل السلاح، وإلى رفض قيام الاتحاد الفيدرالي.

ارتبط شعره في ذاكرتي بالأيام الجميلة التي كنتُ فيها مدرسًا في المدرسة المحسنية في لحج، وفي شارع الحوطة الوحيد ودار عبد الله ودار سعد، كان شعره يأتينا في الأناشيد الوطنية والأغاني الحماسية الجريئة التي كانت تنساب عبر مكبّرات الصوت في المطاعم والمقاهي ومقايل القات دون خوف من السلطات، ومَن منا لا يذكر قصيدته التي يقول فيها:

يا شاكي السلاح شوف الفجر لاح

حط يدك على المدفع زمان الذل راح

من خلال أشعاره وألحانه وحب الجماهير له، تعرفت إلى الشاعر عبد الله هادي سبيت، قبل أن التقيه عام 1968م، وكنت حينها محافظًا للمحافظة الثانية "لحج" في حفل فني بحضور لفيف من الأصدقاء، ومنهم علي عبد العليم ومحمد سعيد مصعبين وأحمد سالم عبيد ومحمد عيدروس ومحمد عباد الحسيني وعوض ناصر صدقة ومنصور علي مثنى وأحمد فضل اليماني وعبد القادر علي ناصر وعبد الرحمن أنور وسالم حجيري وفضل سعيد عاطف ومحسن الهنطب وغيرهم، وكذلك عدد من الفنانين، وفي مقدمتهم الفنان الكبير محمد سعد صنعاني، وفنان الشعب فيصل علوي، والفنانون حسن عطا وفضل كريدي وسعودي أحمد صالح وعبد الكريم توفيق وغيرهم ممن أطربتنا أغانيهم العاطفية والوطنية الرائعة بكلمات أحمد فضل القمندان وعبد الله هادي سبيت وصالح نصيب وحمود نعمان ومسرور مبروك.

كان ابن هادي يومها معنا في ذلك الحفل يستمتع بالفن والغناء والقات، وإن لم يكن يدخن ولا يخزّن، وهمس في أذني أحد الأصدقاء أن أطلب من شاعرنا أن يغني ويعزف على العود، على أساس أن الرجل المهذب والمؤدب لن يرفض طلبي، وشعرت بأنني قد أحرجته حين لاحظت تردده قبل أن يلتفت نحوي ويخرج عن صمته، محاولًا الاعتذار بصوته الهادئ والدافئ: "لم أغنِّ منذ فترة طويلة إلا مع نفسي، ونادرًا ما عزفت على العود"، لكنّ الحاضرين المتشوقين لسماعه لم يعطوه أي

فرصة للاعتذار، وكسروا حاجز الرهبة بتصفيق طويل، وعلت أصوات الحاضرين: "يا أستاذ، لا تحرمنا هذه اللحظات السعيدة".

ولأنّ السكوت علامة الرضى، فقد مدّ له الفنان فيصل علوي عوده الرنان، وتسلّمه على حياء وخجل، وشاهدت على جبينه حبات العرق تحت العمامة البيضاء التي تتوج رأسه، ثم غنى وأطربنا واهتزّ المجلس بالتصفيق والدعاء له بالصحة وبطول العمر.

وفي لقاء آخر، وبعد أن أصبحت كل المؤسسات وقفًا على الدولة، عرضت على الشاعر، بل رجته أن يختار العمل الذي يشاء والمكان الذي يليق بمكانته كمناضل وشاعر ومثقف شريف، فاختار، رحمه الله، العمل في معهد ناصر للعلوم الزراعية في الحوطة، كما أشرت آنفًا، وكان في اختياره نبض الإنسان الذي ارتبط بالأرض والطبيعة، وإن لم يبقَ طويلًا فيه.

مرة أخرى زارني عندما كنتُ وزيرًا للدفاع، طالبًا الإذن بالسفر إلى "الحديدة" ليقيم فيها. سافر كما أراد تاركًا لحج العلم والحضارة والفل والكاذي إلى شمال اليمن، وتزوج وأنجب أولادًا وطاب له المقام هناك في تهامة وبين أهلها الطيبين الذين قال عنهم الرسول (ص): "إنهم ألين قلوبًا وأرقّ أفئدة. الإيمان يمان والحكمة يمانية"، ولم يعد إلى عدن، رغم أنني أرسلت إليه رسالتين مشجعًا إياه على ذلك، وبعدها انتقل إلى تعز "أرض العز" التي احتضنت منذ بداية الخمسينيات الآلاف من أبناء

الجنوب وثواره، والتقيته بعدها في صنعاء، بعد أن غادرتُ السلطة عام 1986م، ولم تنقطع اتصالاتنا طوال وجودي في شمال اليمن.

الشاعر الكبير لا يرحل، يبقى ماثلًا في أشعاره التي لا تموت، تغمد الله الفقيد الكبير عبد الله هادي سبيت بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جنانه، وألهم ذويه ومحبيه الصبر والسلوان، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كان الوسط الفني يتعرض لإهمال البعض وتدخلاتهم، وبدأ تراجع الأغنية التي كانت قد شهدت نضجها الفني على يد القمندان وعبد الله هادي سبيت وخليل محمد خليل ومحمد جمعة خان وسالم بامدهف وأحمد قاسم ومحمد مرشد ناجي ومحمد سعد عبد الله ومحمد محسن عطروش ومحمد عبده زيدي وفيصل علوي وأبو بكر سالم بلفقيه وغيرهم.

وبعد ذلك سمحنا للفنانين بإحياء الحفلات الفنية التي درجوا على إقامتها قبل الاستقلال، والحفلات التي كانوا قديمًا يحيون بها أفراح الشعب كالأعراس وغيرها، وفسحنا المجال أمام أغانيهم لتذاع من الإذاعة. ولما كان النشاط الفني جزءًا عزيزًا من تاريخنا الإنساني، فقد عمدنا إلى تكريم الفنان، واتخذنا قرارًا يقضي بمنح معاش شهري متواضع للفنانين الأوائل من رعيل الحركة الفنية الموصولة بالتراث المرتبطة بالجذر الثقافي للأغنية اليمنية، وهؤلاء الفنانون هم: عوض عبد الله المسلمي، أحمد عوض الجرّاش، عمر غابّة، محمد سعد الصنعاني، إسماعيل

سعيد هادي، رشاد محمد حسن، وغيرهم من الفنانين الشيوخ. ونال كثير من الفنانين جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية.

ولم يكن هذا كل شيء، ففي سياق الاهتمام بالفنانين وتطوير الحركة الفنية، برزت فكرة (التفرغ) ولا أدري إلى أي مدى صحة هذه الفكرة، وهل التفرغ ضروري للمبدع عمومًا؟ لكنها عندنا "أثبتت نجاحها إلى حد ما، ومكنت الممتازين من الفنانين والأدباء ورجال العلم والثقافة من التفرغ للإنتاج، وساعدت الموهوبين من الناشئين على استكمال تكوينهم الفني والأدبي والثقافي "[1].

لم تكن العناية بالمثقفين تعني تملق السلطة، أو الحاكم – على الأقل في نظري – شأن تلك الحالة القديمة التي كان يُخشى فيها من لسان الشاعر والأديب، والتي خضعت لها الدولة والممالك منذ أن كانت الوحدة السياسية هي القبيلة! وربما لا يزال كثير من الحكومات في عصرنا يتعامل وفق هذه الصيغة القديمة تحت ضغط تلك الحالة المثيرة لقلق الحكام، حتى إنّ بعضها كانت تنكل بكُتّاب الدولة، والبعض كان يسعى لاستمالة هذه الشريحة المثقفة بكثير من الإغراءات خوفًا من غضبها وسلطانها على جماهير الشعب. لكن أعتقد أن تلك هي حال الأنظمة الضعيفة، لا لأنها لا تملك القوة، بل لأنها ضعيفة لعجزها عن استيعاب ما للثقافة من أهمية في حركة التنوير وفي الاستنارة ومن قوة في

(1) طه فارع: لمحات من تاريخ الأغنية اليمنية، دار الهمداني، الطبعة الأولى 1985م.

إحداث الأثر الموضوعي بين الجماهير في موقفها من السلطة إزاء متطلبات الحياة، وفي الوقت نفسه من أجل تثبيت قواعد الحكم.

كان دورنا تعزيز دور المثقفين من أجل قيام هذا الغرض النبيل الذي يتمثل بتقديم مساعدة للسلطة من طريق معالجة قضايا الأرض والإنسان بين مشكلات الحياة وطموحات الناس، وذلك بتصوير معاناتهم وانعكاسها على نظام الحكم! وبالتالي إيجاد حالة من التوازن بين دور الأدب، ورسالة الفن.

ومن هنا تنبع الحاجة إلى تقدير هؤلاء المثقفين والمبدعين عبر مختلف الأدوار الوطنية التي كانت لهم، وفي استمرار مزاولتهم نشاطهم في تحرير النفوس من عقدها وأمراضها، وتعديل مزاج الحاكم أو الحكم! على أنّ دورها الكبير يتمثل بخلق حالة من الرفه الروحي أمام ضراوة العيش وصعوبة الحياة. وقد ظهرت فرق شعبية ثورية على مستوى المحافظات تغني للعمال والفلاحين والصيادين والجنود وغيرهم... ما دفع بعض الفنانين من الجيل القديم إلى مجاراتهم، فغنوا للثورة أغاني ألهبت حماسة الجماهير كأحمد بن أحمد قاسم ومحمد مرشد ناجي ومحمد سعد عبد الله ومحمد محسن عطروش وفرسان خليفة ومحمد عبده زيدي وحسن عطا وعثمان عبد ربه وغيرهم.

شاعر الشعب مسرور مبروك

هكذا أيضًا.. انعكست علاقة الدولة بالمثقف من خلال تلك الأبعاد في رسالته الاجتماعية يوم أن عينت الشاعر الشعبي الكبير مسرور مبروك في وظيفة لدى مكتب رئاسة الوزراء، تقديرًا لمكانته، وكي يتسنى له مواجهة ظروف العيش.

يومها جاءني إلى مكتبي المناضل الكبير عمر الجاوي، رئيس اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين، يرافقه الشاعر الشعبي مسرور مبروك، الذي ذاع ذكره في الأوساط الشعبية بسبب أغانيه الوطنية والعاطفية التي يرددها المواطنون ويغنيها الفنانون. ومن منا لا يذكر قصته مع الشلن والروبية عندما غُيِّرَت عملة شرق أفريقيا التي حلت محل الروبية الهندية منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وكانت تتداول في بعض دول الخليج في فترة الاحتلال البريطاني للمنطقة، وقد رحبت بهما في مكتبي. ولم تكن هذه المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى الشاعر الشعبي مسرور مبروك، بل لقد عرفته عندما كنت مدرسًا ومحافظًا لمحافظة لحج (الثانية) عام 1968، ووجهت حديثي إلى مسرور:

أهلًا أهلًا...

شل الشلن واصرفه سنتات أما زمان الروبية قد فات

جاب الشلن بين الأوادم عشبكات

شل الشلن شل

وبعد ذلك قلت لهم: ما أخباركم؟

فردّ عمر جاوي: جئنا لزيارتكم ولتوظيف عمنا العجوز الشاعر مسرور في العمل المناسب والمكان المناسب.

فرددت عليه: هو يأمر ونحن ننفذ... ويختار المكان المناسب له.

فردّ عليّ الشاعر مسرور: عندك!

فرددتُ عليه: على العين والراس. وشرحت له عن الدوائر في مجلس الوزراء، فاختار أن يُعيَّن في الشؤون الثقافية والإعلامية. ورحبت بذلك تكريمًا لدوره الوطني ومساعدةً له في التغلب على مشاكل الحياة التي يمرّ بها. وهذا يذكرني بالعرض الذي قدمته للشاعر الكبير عبد الله هادي سبيت عندما كنت محافظًا للمحافظة الثانية لحج، فقلت له: "عليك أن تختار الوظيفة المناسبة والمكان المناسب"، وكان له ما أراد حينها. لقد أعطت لحج الحوطة بأمرائها وشعرائها وفنانيها ومثقفيها ومزارع الفل والكاذي الكثير منذ الأربعينيات والخمسينيات والستينيات أكثر مما أعطينا لها، بل أشعر بأنّ لحج الحضارة والتاريخ والثقافة والفن قد ظُلمت كثيرًا بسبب بعض القيادات التي كانت تحكم المحافظة أو من يقف وراءها، ونحن

لا نُعفي أنفسنا من التقصير، رغم كل المحاولات التي بذلناها لإصلاح الوضع الذي لم يستقر منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم.

بعد أن تناولنا الشاي، قمتُ ويرافقني الأستاذ عمر الجاوي والشاعر مسرور مبروك ومدير مكتبي للانتقال إلى المكتب الذي خصصناه له، واخترنا المكتب والكرسي الذي يجلس عليه، وطلبت منه أن يجلس، لكنه تردد، عندها صرخ السيد عمر الجاوي فيه مازحًا: اجلس يا عجوز... ومبروك يا مسرور مبروك.

فقلت له: من هذا المكان تقدر تقرأ وتكتب شعرًا أو نثرًا مما يفيدنا جميعًا، ولكننا حددنا لاحقًا مهامه في المكتب ليُسهم بدوره في العمل وفقًا لإمكاناته، ولم يكن الهدف من هذا العمل إلا تكريمه تقديرًا لما بذله طوال حياته بعد أن بلغ حينها أكثر من 70 عامًا.

وفي وقت لاحق حدثني عن حياته وظروف سجنه في سجن لحج (الحوطة) في بداية الخمسينيات على (40) روبية اقترضها من الرعوي (محمد عبد الله سطيح الطاهري) من قرية الحبيل لحج.

وكان مسرور مبروك وسطيح قد دخلا في شراكة (مسرور بأرضه) (سطيح بفلوسه)، وفي شهر نيسان، وهو الوعد الأخير لتسليم الدَّين، لم يأتِ مسرور، ولم يسدد دينه، فرفع شريكه

دعوة قضائية على مسرور، وقد حكمت المحكمة بسجنه حتى يسدد دينه.

وفي إحدى المناسبات الزواجية، أُقيمت مخدرة بمحاذاة السجن، وكان المطرب فيها الفنان فضل محمد اللحجي الذي غنى في منتصف الليل أغنية القمندان (هيثم عوض قال)، وكان الشاعر مسرور مبروك في تلك الليلة سامرًا على وحي الأغاني المنطلقة من المخدرة، وشاقه الصوت والمغنى، وتذكر حبيبته (زوجته) وانقطاع الوصل بينهما بسبب الدَّين، فتحسَّر وزفر وضاق، فأخذ قلمه وورقة وكتب قصيدة معارضة لقصيدة الأمير أحمد فضل القمندان (هيثم عوض قال)، وهي القصيدة التي قال عنها القمندان إنها كانت الأفضل.

يقول مسرور في قصيدته المعارضة (القلب يمسي معلق) على ذات الوزن والقافية لقصيدة هيثم عوض قال:

هيثم عوض طال رب الخلق في عمره
ويجعله ركن للمظلوم والمسجون

هيثم سلا الأرض يسلي من به الجمره
يداوي الجرح ذي وسط الحشا مدفون

موصوف هيثم عوض بين العرب ذكره
مشهور في الشعر والأدب والقانون

وبو محمد على هيثم عرض أمره
عساه يقرأ حروف الخط والمضمون

وأبو محمد غلب عشقه على فكره
وأصبح بلا فكر تايه والحشا معجون

يبات سهران طول الليل في همرة
والقلب يمسي معلق والكبد مرهوف

يا هل ترى هل لهذا الحب شي قدرة
والا شعوني مهيم مثلما المقرون

ليت الهوى يجذب الاثنين بالجبرة
مافايده حد يقع عاقل وحد مجنون

والا عزمنا وتمنا على السفرة
بانشتكي بالهوى عند الملك قارون

ويختتم قصيدته بالقول:

الحب يحكم على بغداد والبصرة
يحكم على النيل والدجلة مع سيحون

وهذه القصيدة غناها مسرور مبروك نفسه، وغناها الفنان عوض عبد الله المسلمي، وآخر من غناها الفنان عبد القادر بامخرمة.

أما خروج مسرور مبروك من سجن الحوطة، فكأنه أشبه بمسرحية شاءت الأقدار أن تكون ضمن تاريخ حياته المملوءة

بالحسرة والشوق والألم والبؤس والفقر معًا. وتقول سيرة خروج مسرور مبروك من السجن إنّ الشاعر (عبد القوي علي سعيد)، وهو يعمل مساعد طباخ عند القمندان، جاء إلى السجن لزيارة أحد معارفه المسجون في ذلك السجن، فعرف أنّ مسرورًا مسجون أيضًا، فطلبه، ولما تقابلا في غرفة الزيارات، أطلعه مسرور على قصته كاملة، فردّ عليه زميله (عبد القوي): إنك يا مسرور (ماشي باتمسي الليلة في السجن).

فقال مسرور: باك توصلي رسالة للأمير أحمد فضل القمندان، وكانت الرسالة قصيدته المعارضة للقصيدة

هيثم عوض قال ريت الأرض في ودره

باسـلي القلب مابموتشـــــي مغبون

وتحقق وعد زميله مساعد طباخ القمندان، إذ إنّ القمندان أصرّ على إطلاقه من السجن بعد أن وصلت إليه قصيدة مسرور، وقام القمندان بمواساته وتطييب خاطره، ثم أعطاه 40 روبية يعطيها لغريمه (سطيح) و40 أخرى يرتاح بها مع أم أولاده (أم أحمد) التي حرموه إياها (طوال عشرة أيام) فقط، واليوم كالدهر عند المحبين.

وللشاعر ديوان بعنوان "الدهل والقيد" وقد كتب عنه الكاتب محسن كرد أورد هنا ما كتبه:

"الدهل والقيد، هو اسم الديوان الشعري الذي ضمّ أروع القصائد الشعرية الرائعة منها العاطفية. والحماسية الوطنية. للشاعر الشعبي الكبير. مسرور مبروك عوض من أبناء مدينة

لحج. هذا الديوان الذي كتب مقدمته الأستاذ والمناضل والقامة الوطنية الكبيرة المرحوم علي عبد الرزاق باذيب الله يرحمه.. وذلك عرفانًا وتقديرًا وتكريمًا منه لهذه القامة الشعرية الشعبية الكبيرة ولنضالاته الوطنية وإعجابًا بقصائده الوطنية والعاطفية.. كتب الأستاذ باذيب في المقدمة... الذين يعرفون مسرور مبروك ويتابعون تطور الحياة الأدبية والفنية والثقافية والمسرحية. في بلادنا يعرفون ويدركون الإسهامات الكبيرة التي أسهمها وقدمها الشاعر الكبير مسرور مبروك في الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية.. وفي الاشتراك الفاعل في الحركة المسرحية وفنّ الغناء والشعر.. ورغم هذا كله؛ فإنّ الشاعر الشعبي الكبير مسرور عاش حياة الحرمان والجحود.

عُرف مسرور بالشاعر الساخر والثائر فمن منا لا يتذكر مسرور وهو يجلجل ويوجه صرخته القوية في وجه المستعمر البريطاني في قصيدته الرائعة طالبًا منه سرعة الرحيل عن الجنوب... (أين بحر المانش من حقاتنا) نقطف منها هذه الأبيات:

ضـاق صـدري ضـاق فاسرع لا تطيل
في جـلـوسـك مـا نـريـدك عـنـدنـا

ذي بـلادي.. وانـا فـيـهـا الأصـيـل
مـا انـا مـثـلـك نـقـيـلـه أو... نـزيـل

ذي معـك. يكفيـك من مـالي الجزيـل
روح لـك بـس لا تـكـدر عـيشـنـا

من دخل بالغصب يخرج بالصميل
بايخلي أرضنا صاغر دليل

بايقع يوم الجلاء ماله مثيل
أعظم الأعياد في أوطاننا

وتواصلت قصائد مسرور الوطنية التي كانت كالحمم تزلزل كيان المستعمر وتلهب حماسة شعب الجنوب للنهوض ومقاومة المستعمر... ونتيجة لمواقفه الرافضة للمستعمر البريطاني وسياسته في الجنوب، تعرّض من قبل السلطات في لحج للاعتقال والسجن عده مرات لقصائده الوطنية الحماسية القوية التي كان يقولها علنًا ويتداولها الشارع اللحجي.

من أبرز قصائد مسرور: (أين بحر المانش من حقاتنا)، (في المولعة هب الضمار)، (الكشكوش)، (بين الماضي والحاضر)، (من قد ظلم بايخترب داره)، (كدر من الدار)، (قناة شعبي لن تلين)، (هرجلة فوق المسرح)، (انتخب من تريده)، (العربي المتأمرك)، (مسرور ماله جرائم في الحكومه قط محبوس حبسه غلط على قضية مخربط)، (ون-تو-تري-فور..جبنا قصيدة شعرية رياضية جميلة قيلت في أثناء مباراة لكرة القدم بين فريقي أهلي زنجبار أبين.. واتحاد لحج، وهم من أقوى الأندية الرياضية آنذاك). له العديد من المساجلات الشعرية الرائعة مع الشعراء الأساتذة الكبار أحمد عباد الحسيني، حمود نعمان، علي مغلس

وغيرهم. ولا أنسى القصيدة الشعرية الغنائية الرائعة التي تغنى بها الفنان الكبير محمد علي الدباشي (عشق الطفر بس لاكانه). شارك في إخراج العديد من المسرحيات، وألّف مسرحية هزلية فكاهية هادفة، اسمها (طرفيشة وشوربان أبو ريشة). عاصر الشاعر الكبير أحمد فضل القمندان، وكان أحد جلسائه، وله العديد من المساجلات الشعرية معه. من المدرسة القمندانية ومن المتأثرين بها. اشتهرت قصائده بنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بطريقة ساخرة ولاذعة. غنّى له كبار الفنانين، أبرزهم الأستاذ الدباشي، والأستاذ فيصل أبو باسل، والكثيرون الله يرحمهم. كان مسرور رجلًا متواضعًا وخلوقًا ومحبوبًا بين أبناء لحج، صاحب نكتة، ويُعَدّ من أعلام وقامات لحج البارزة... رحمة الله عليه.

لطفي أمان.. المزهر الحزين

عرفته حين كان في معهد تدريب المعلمين في عدن، وكنت بين المتدربين فيه أصب جهودي في رسالة التعليم. وعرفته بعد هذا التاريخ مرارًا، فكنت أزوره وأستقي من ينابيعه، مثلما صار صديقي. وطالما ظل لطفي صديقًا للزعيم الراحل قحطان الشعبي، قبل أن أصبح رئيسًا للجمهورية وبعد ذلك، إذ كانا معًا في السودان في أثناء دراستهما الجامعية. وما كانت لتغيب عنه هذه الصداقة، فالرجل في مركز الحكم كان لا يزال يتذكر صديقه القديم الذي ما زال يحتفظ له بالذكريات. قال لي لطفي ذات مرة: كان قحطان زعيمنا إبّان عهدنا بالدراسة حين كنا معًا في السودان. لا يفتأ يتزعم الطلبة، وكان يتصرف كزعيم حتى أصبح الرئيس. وكانا يزوران أسمرة في إجازاتهما الصيفية.

من اليمين الى اليسار:

لطفي جعفر أمان علي غانم كليب قحطان محمد الشعبي في أسمرة

وباستمرار خلال أعوام 1968 – 1969 – 1970م تكررت زياراتي للشاعر لطفي أمان مع صديقه وصديقي عبد الإله سعيد الظهر، المهندس في وزارة الأشغال، وكان يزورني بدوره. وارتبطت معه بصداقة عميقة، وتبادلنا الرسائل التي عمّقت تلك العلاقة وأكسبتني احترام الرجل الشاعر والمربي، الأديب والفنان، وبالقدر نفسه كنت أحب شعره وأحترمه وأقدّر موهبته وفنه.

في عام 1971م أشتد المرض على الأستاذ لطفي، وكان داؤه في قلبه الرقيق الذي طالما غنّى للحب وللحياة والوطن والإنسان، وقد أرسلته للعلاج في مستشفى المعادي في القاهرة، وخصصت له منحة علاجية على نفقة وزارة الدفاع، وكنت يومها وزيرًا للدفاع.

كان هذا حقه علينا، فنانًا وشاعرًا وطنيًا، وواجبنا نحوه مربيًا فاضلًا قبل أن يمليه علينا واجب الصداقة والاحترام.

وزرته في مستشفى المعادي، حيث كان يتلقى العلاج، مرتين، إلى أن سلّم الأمانة ولقي ربه، رحمه الله. والتقيت يومها لأول مرة المشير عبد الله السلال (رحمه الله) الذي كان يزور أحد المرضى في هذا المستشفى العسكري الكبير، والذي رافقني لزيارة الشاعر الكبير لطفي أمان.

هو أحد أبلغ من دافع عن الإنسان في قضية وطن! سكب من روحه وخلجات فؤاده منذ شبابه المبكر، فمرّ من بوابة الحياة وملأها ضجيجًا وشعرًا وفنًا خالدًا حتى الآن. و"بمزهره الحزين" قاده مع الثورة إلى سجن زنجبار عقب الانتصار العظيم ويوم فرحه الحزين بهذا النصر، وحزنتُ لسجنه وطالبتُ بالإفراج عنه فورًا، وحينها كنتُ محافظًا للمحافظة الثانية (لحج). وهو من نشر في مجلة المعلم قصيدته الوطنية (زنجبار)، وكتب على دفتر الوطن: "يا ساحل أبين بنى العشاق فيك معبد"، وشكّل ثنائيًا جميلًا مع الفنان أحمد بن أحمد قاسم، ما خلّدهما معًا. وقد غنى له أحمد قاسم معظم أغانيه، وفي مقدمتها "راح الهوى" و"ساحل أبين" وغيرهما. كذلك برز أكثر من ثنائي فني، كالشاعر الكبير حسين المحضار، والفنان الكبير أبو بكر سالم بلفقيه، وأيضًا الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان (الفضول) والفنان القدير أيوب طارش، وغيرهم.

الثنائي لطفي أمان وأحمد قاسم

أغنية ساحل أبين:

صــدفة بلا ميعاد جمع الهوى قلبين
ســمعت أبين على الامواج تتنهد
لمـا حواك الفؤاد والعين تناجي العين
والبحر والرمل والبدر الحبيب يشــهد
على الهوى والوداد مـا بيننـا الاثنين

****

الله من ذه العيون من ذه الشــفاه والنهد
يـاذي مـا يثـور مـره إلا وثـار مـرات
وآح مــن نهـدك والخـد فـوق الخـد
جمـرة على جمـرة وتـزيـدهـا الآهـات
وآه من خمرتـك ذي الـروح بهـا ترتـد
بالبســمة والنظرة ســكبتها كاســات
والبحر والرمل والبدر الحبيب يشــهد

على الهوى والوداد ما بيننا الاثنين

****

يا ساحل أبين بنى العشاق فيك معبد
كم من فتى يعشق ويحنّ للرملة
اللي يصيب الهوى فيك ما يخاف المد
حتى ولو يغرق يكفيه فيه ليله
لك يد تمتد من فوق المطلع ويد
في صيرة تترقرق
تسكب هوى التلة
والبحر والرمل والبدر الحبيب يشهد.
ما بيننا البين ما بيننا البين

غير أني في متابعة طباعة آثاره ونشرها، احتضنت الرجل بالقلب الذي غذاه بمحبته، ولي منه رسائل تفيض بهذا الحب. وكالقول الذي كان يحبه ويربطه بالشاعر الهمشري "خنقت جفوني ذكريات عطره"، وكان عزائي الوحيد أن بعثت بدواوينه إلى المطبعة.

صدرت له الدواوين الآتية: «بقايا نغم» – مطبعة فتاة الجزيرة – عدن 1948، و«ليالي» – دار الشعب – عدن 1960 (باللهجة المحكية اليمنية)، و«كانت لنا أيام» – المكتب التجاري – بيروت 1962، و«ليل إلى متى؟» – المكتب التجاري – بيروت 1964، و«إليكم يا إخوتي» – المكتب التجاري – بيروت 1969، و«الدرب الأخضر» – المكتب التجاري – بيروت 1970.

يُعَدّ لطفي جعفر أمان (1928 – 1971) من أهم شعراء اليمن المجددين، وأكثرهم تأثرًا بالتيارات الأدبية، ولا سيما الـ«رومانتيكية». وفضلًا عن ذلك، يُعَدّ من أهم من جددوا في نسيج القصيدة الحديثة قبل الرواد العرب، ومن أوائلهم، لكن أحدًا من المنظِّرين العرب لتيارات الحداثة النصية العربية التي سبقها بـ 6 سنوات تقريبًا لم يتطرق إلى ذلك عند الحديث عن الريادة.

لطفي جعفر أمان، شاعر ومفكر وعاشق للموسيقى، غنى له عمالقة الفن اليمني، ولم تقتصر أشعاره الغنائية على الموضوعات العاطفية، بل أنتج نصوصًا تغنى فيها بالثورة وحب الوطن والاعتزاز به، وهو فضلًا عن ذلك عازف وصاحب صوت شجيّ، كما يقول معاصروه.

نهل لطفي ثقافته من مدينة عدن التي كانت من أكثر مدن الوطن العربي تقدمًا وحداثة ومدنية حينها، كذلك هاجر باحثًا عن العلم إلى السودان، وتأثر بشعرائه ومثقفيه، وأثّر فيهم، ثم أكمل دراسته في بريطانيا، وعاد إلى عدن وأسهم بفاعلية في مشهدها الثقافي والفكري والتربوي، ونشر نصوصه في صحف تلك الحقبة، كصحيفة «فتاة الجزيرة»، وكانت نصوصه من أكثر النصوص تفاعلًا حينها، وقد أسهمت في خلق وعي نصّي حداثي في عدن وكل أنحاء الوطن، وهو ما جعله يمثل أحد أهم أركان الحداثة والانفتاح الشعريين في الوطن.

الشاعر الكبير جرادة[1]

سـكتوا فـأعلنـت البنـادق منطقـا
هـو فـوق سـحـر بـلاغـة المـتكـلـم

والتعاطي مع هذه اللوحة يجعلني أتوسم الصفات ذاتها عند شاعر آخر لا يقلّ عظمة، هو محمد سعيد جرادة. هذا الشاعر الكبير الذي آخى لطفي في وحدة الزمن، وعاشا معًا فورة الحياة، وقد حفظ لنا الدهر منه تلك الصبابات التي عمّقت روح الوطن وخلدته في وجدان الشعب، ولا سيما بعد أن أرسى على تلك القصيدة في أعقاب الانتفاضات التي شهدتها اليمن بعد ثورة الـ 48 على الإمامة، في انتفاضات الجنوب اليمني على حكامه، وقد أفضت إلى ثورة على الإنكليز، وما زلت إلى اليوم أحفظ تلك الأبيات

---

(1) محمد سعيد جرادة: شاعر يمني وُلد عام 1927 في مدينة الشيخ عثمان في محافظة عدن. تلقى تعليمه على فقهاء مدينته. بدأ ينظم الشعر وهو في سنّ الثالثة عشرة. عمل معلمًا لمدة خمس وعشرين سنة، وعمل إذاعيًا في إذاعة عدن، وهو عضو في اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين. صدر له خمسة دواوين شعرية. وله كتب ودراسات وأبحاث نشر بعضها. من أهم مؤلفاته:

فردوس القرآن (ديوان شعر، عدن 1962)

مشاعل الدرب (ديوان شعر، مطابع 14 أكتوبر عدن 1971)

لليمن حبي (ديوان شعر، مطابع 14 أكتوبر عدن 1971)

وجه صنعاء (ديوان شعر، دار الحرية للطباعة والنشر بغداد 1976)

الأعمال الكاملة (ديوان شعر، وزارة الثقافة والإعلام عدن 1988)

الثقافة والأدب في اليمن عبر العصور (كتاب من جزءين، دار الفارابي بيروت)

أعلام في الفن والأدب.

كلما حضرتني المناسبة عند ذكر مآثر الوطن، ويحضرني الآن بيت من مطلعها:

سـكتوا فـأعلنت البنـادق منطقًـا
هـو فـوق سـحـر بـلاغـة المتكـلـم

وكان جرادة قد ألقاها في الخمسينيات في مدينة تعز عن ثوار الجنوب. هذا الشاعر الذي لقي عنتًا من دهره، وأذعن لخيباته وانتصاراته، متأقلمًا أو غاضبًا. وأتذكر يوم أن عيّنته لدى سفارتنا في أديس أبابا، ووجدت من يعترض على تعيينه في وظيفة في السفارة. ولم يشفع له تاريخه العظيم، وقد جاء الاعتراض من وزير الخارجية الذي جاء محتجًا على قرار تعيينه بالملحقية الثقافية للسفارة. وكان الجرادة يرى أنه لا يستحق أن يحفظ من شعره إلا شطر هذا البيت الذي لا أتذكر سواه والذي كتبه وسلمه لمدير مكتب وزير الخارجية عندما رفض مقابلته، وذلك بخط اليد:

لو كنت من القرية لكان الباب مفتوحًا

وانزعج الوزير من هذا الشعر، ولكننا أمرنا بإرساله الى أديس ملحقًا ثقافيًا لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ليلتحق بالسفير الشاعر والساخر أحمد سالم عبيد.

كان جرادة شخصية رقيقة عذبة تحفظ التواريخ، وتُلمّ بأوجاعها، وتتعاطف مع الحياة، دون أن تقدم تنازلات تجترح وجوده علمًا بارزًا لا يحتفي إلا بكل ظرف من ظروف الجمال، ويلقي رديفه (رداءه) للرياح، ويعرف أنّ هناك من يلتقط

جراحاته ليحولها إلى ضوء ينير حقائق الحياة ويحيلها على التاريخ، فلا يدوم منها إلا صدى تلك الأغنية التي تفترش أحزان العمر كطائر البجع يغني كلما جرح.

قصيدة الشاعر الوطني محمد سعيد جرادة حول الثورة المسلحة تجري على كل لسان في أنحاء الجنوب، ويقول في بعض أبياتها التي حفظناها آنذاك، وكنا نرددها خلال فترة الاحتلال البريطاني:

أفلاذ أكباد الجنوب تجمّعوا فرقًا كأسراب النسور الحوّم
فوق الجبال وفي الكهوف وحيث لا ترقى إليهم عين وغد مجرم
سكتوا وأعلنت البنادق منطقًا هو فوق سحر بلاغةِ المتكلم
كم ساق أعداء الإله إليهم جيشًا كأمواج الخضمّ المرتمي
النار تزأر والحديد أمامهم والجو يقذف بالقضاء المبرم
قد جاء وهو مدرب ومنظّم فارتدّ غير مدرّب ومنظّم
أرضي، أيجني شهدها مستعمر وأنا أذوق بها كؤوس العلقم؟
فيها القراصنة اللئام صلاتهم بشريعة الغابات لم تنصرم
حمر الوجوه مشوهون كأنما نبتت جلودهم بأرض جهنم

وكتب قصائد عاطفية كثيرة، أهمها (ربيع الجمال)، وغناها الفنان سالم بامدهف، وأغنية، بل (تحفة)، ربيع الجمال، بكل المقاييس النقدية الفنية والأدبية والموسيقية، تعبير حقيقي عن عنوانها الذي يؤكد بصورة مشرقة مضيئة جلية تبيّن وتوضح بفذاذة تطور الأغنية اليمنية حينها وازدهارها ونمو بناءاتها المعمارية الهندسية الكامن في تراكيبها وجملها اللحنية النغمية

الموسيقية الثرية الفاخرة الفاعلة المؤثرة في نفوس سامعيها وذائقتهم، بالإضافة إلى الصور البلاغية واللغوية الشعرية في سياق النص الغنائي المكتوب.

كلمات (ربيع الجمال) التي كتبها ملك الغزل الشعري (الجرادة) وصاغ لحنها وغناءها (أمير الموسيقى) الفنان سالم بامدهف:

نم على صدري فأنت الأمـــــل ... يـــا ضــيـاءً عانـقتـه المــقل
يا حبيبا لم يـــــدع في مهجتـــي ... موضــعًا فيـــه حبـيـب أول
كلما تبدو يغني خاطـــــــري ... لحـــن حـــبي ويرقّ الغــزل
ويرفّ القلب أشواقًا كمــــــا ... رفّ في الروض الربيع الخضـل
كل ما فيك جميل ســــاحــر ... والــذي تجــهل منه الأجمـل
مقلـــة نعساء فيـــــها كمنت ... فتــنة تسـبي وسحـر يقتـل
وقوام جال في أعـــطافــــــه ... وحواشــيه الصـبا المقتـبل
ودلال ساحر الــفن لـــــــه ... عنـد مضــناك شفيع يقــبل
والـدجى وســنان النجم على ... فمه حـــار سـؤال معـــضل
وأنا في معـــبد الحـــــب أرى ... راهبـًا معـــتزلًا يـــبتـهل.

حسين المحضار عاشق الشعب والشحر والشعر

بدأ الشاعر السيد حسين المحضار الذي ولد سنة 1930م في الشحر حياته الفنية في الجلسات الخاصة التي كانت تعقد في بلدته "الشحر" من محافظة حضرموت، وشكلت إطلالاته على الشعر الغنائي بداية تطور وازدهار الأغنية الحضرمية ونموها، حيث بدأ يكتب قصائده الغنائية للفنان الحضرمي المخضرم سعيد عبد المعين، وشكل بعدها ثنائيًا متميزًا مع الفنان الراحل محمد جمعة خان، الذي تجاوز بصوته وألحانه حدود بلاده، حاملًا الأغنية الحضرمية إلى دول الجزيرة والخليج العربي والهند وأفريقيا وغيرها من بلدان العالم.

مع الشاعر حسين المحضار في منزله عام 1981م بحضور علي البيض

في الخمسينيات، برز اسم المحضار بقوة شاعرًا وملحنًا تميزه خصوصية نادرة، خصوصًا مع اتساع جاذبية جلسات الدواوين في الخليج خلال تلك الفترة وتزايد انتشارها. ومع دخول اليمن عقد الستينيات من القرن الماضي، بما حملته من تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية عميقة، بات المحضار يمثل صوتًا متقدمًا في الدعوة إلى التجدد بأبجدية الأصالة نفسها. ومع انتشار البث التلفزيوني، اكتسب المحضار شعبية واسعة، وخصوصًا عندما قدم له الفنان أبو بكر سالم بلفقيه كثيرًا من الأغنيات، وجاءت في مستوى متميز ومتقدم من مسيرته الفنية.

في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره، غنى للمحضار فنانون كبار، أبرزهم أبو بكر سالم بلفقيه والدكتور عبد الرب إدريس وعبد الرحمن الحداد ومحمد مرشد ناجي ونبيل شعيل وعبد الله الرويشد، الذي كان يرى فيه شعلة من الحب والغزل تنير الدرب للعشاق. كان المحضار ينجز القصيدة ويطلق اللحن في أي لحظة، وفي أي مكان، ويقول الشعر ملحنًا في المنزل وفي السوق وفي الشارع، أو بين الأصدقاء، دون أن يحفظ ما يكتب من الشعر، حتى الذي يكون قد غنّاه الفنانون بأصواتهم، وسمعه الملايين وحفظوه.

صدرت للمحضار ثلاثة دواوين، هي: "دموع العشاق" و"ابتسامات العشاق" و"حنين العشاق"، حملت همّ التعبير عن التراث الحضرمي وحفظه من الزوال. فاستطاع بثلاثية

"العشاق" أن يدخل حضرموت إلى كل قلب، ويترجم نبض الشارع اليمني بحساسية وصفاء وصدق، ويدفع الغناء اليمني، أو كما بات يعرف باللون الحضرمي، إلى تبوّؤ مركز متميز بين ألوان الغناء المختلفة.

في عام 1983م اصطحبتُ معي الشاعر حسين المحضار، عضو مجلس هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى، في زيارة رسمية للهند، هي امتداد لزيارات سابقة للهند. وفي كل مرة كانت تسحرني الهند بجمالها وسحرها وأساطيرها. وكل زيارة لها كانت توسّع من الأسطورة، وتجعلني أنجذب إليها انجذابًا كبيرًا. وخلال هذه الزيارة، قمنا بزيارة الأثر التاريخي المشهور "تاج محل"، إحدى عجائب الدنيا السبع الجديدة، وقد نزلنا في أحد الفنادق التي بُنيت على الطريقة المنغولية والتي تطل على تاج محل. وفي مساء ذلك اليوم كان القمر بدرًا، وانعكست أشعته على تاج محل، وكنا نشاهد هذا المنظر الجميل من على شرفة الفندق الذي بُهرنا به وبغيره من المناظر التي شاهدناها في الهند، وإذا بالمحضار يوجه كلامه وشعره نحوي، قائلًا:

حســك تغرك نيودلهي وتلهي ... عـزك بـلادك بهـا تـأمـر وتـنـهـي

الهنـد فيهـا الهنـا والهنـد فيهـا المنى ... والجو في الهند غايم تحسب انه ربيع

إن ضـــاق بـك عـيـش فـيـهـا ... صـــدرهـــا لـــك وســـيـــع

والتفت المحضار نحو تاج محل، وقال:

التـاج أعـظـم أثـر في الهـنـد خـالـد

من حـب حـد راح لـه راكع وســاجـد

وإن مـات يبني على مثواه مبنى رفيع

الحب لـه معجزات التاج منها وأخبار لـه اســأل التاريخ عنها

توقفت ريشـــة الرســـام واعيـا المـذيع

الهند فيها الهنا الهند فيها المنى والجو في الهند غائم تحسبه أنه ربيع

وأتذكر أنه عندما زار الشيخ زايد بن سلطان عدن في عام 1976م، في عهد الرئيس سالم ربيع، أطلق عليه الشاعر حسين المحضار في قصيدة له لقب (زايد الخير). وكنا قد رتبنا له جلسة قات ورقصات شعبية حضرها عدد كبير من المسؤولين ورجال الدين والفنانين والشعراء، وفي مقدمتهم حسين المحضار الذي كتب قصيدة رائعة بمناسبة زيارته لعدن، وفي أثناء هذه الجلسة الودية، ألقى قصيدته المشهورة (زايد الخير)، وأصبحت هذه الكلمة حديث الكل، سواء في اليمن أو الإمارات، تُتداوَل بين المسؤولين والمواطنين عن زايد الخير.

سالم ربيع علي، الشيخ زايد، علي ناصر، الشيخ عبدالله حاتم، محمد صالح مطيع

الوداع الأخير

في الأيام الأخيرة من حياته، كان يتلقى العلاج في مستشفى المفرق في أبو ظبي بالإمارات العربية المتحدة، المشفى الذي كان يُعالَج فيه السيد أحمد محمد العطاس، الوزير الأول للسلطنة القعيطية في حضرموت قبل الاستقلال، (وهو خال السيد حيدر أبو بكر العطاس، ووالد زوجته في الوقت نفسه) تحت إشراف الدكتور ماهر العطاس... وقد حرصت على زيارتهما عندما علمت بمرضهما.

سألت حسين المحضار عن صحته، فأجابني بطريقته المازحة وبلهجته الحضرمية التي لم يتخلّ عنها، والتي قال بها كل أشعاره وأغانيه:

- أنا مُرعبل، والزوجة مُرعبلة، والسيارة التي أعطيتني مُرعبلة!!

كانت هذه طريقته، أو أسلوبه في التعبير عن وضعه الصحي الذي لم يكن على ما يرام، فهو قليل الكلام، غزير المعاني والشعر.

وقد تمنيت له من الله وللسيد العطاس الصحة والشفاء العاجل، وودعتهما على أمل اللقاء... لكني فوجئت بوفاته (المحضار) وأنا في طريقي من دبي إلى أبو ظبي في 5 فبراير 2000م، فشعرت بحزن عميق يجتاح قلبي، إذ كان حسين المحضار صديقًا عزيزًا لي، وإنسانًا نادرًا بكل معنى الكلمة،

وتربطني به ذكريات كثيرة. لم أخسر صديقًا فقط، بل إن الوطن كله والفن خسرا شاعرًا عملاقًا لن يجود الزمان بمثله على المدى القريب، وهي ذكريات تكونت خلال سنوات طويلة من معرفتي به، حيث جمعتنا أماكن ومدن كثيرة داخل الوطن وخارجه، في الشحر وشرمة، والمكلا، وعدن والهند، إضافة إلى عضويته في مجلس الرئاسة.

لكن في غمرة الحزن الذي كان يخيّم على نفسي في تلك اللحظات التي كانت تتزاحم فيه مئات الذكريات والمواقف، مع المحضار، وعن المحضار، لم أجد إلا بضع كلمات ربما وجدتها تلخص سيرة حياته الممتدة لعقود: "وداعًا حسين المحضار... عاشق الشعب والشحر والشعر"، فكانت تلك الكلمات عنوان الرثاء الذي كتبته عنه ونشرته صحيفة الاتحاد الظبيانية.

انقضت سنوات عديدة على وفاة المحضار، لكن ما زلت أذكر كيف أنه جاءني ذات يوم من عام 1978م بعد أن علم أنني أنوي التنازل عن رئاسة الدولة للأمين العام عبد الفتاح إسماعيل، وتوحيد رئاسة الدولة بالأمانة العامة للحزب، وأنه سيتشكل مجلس رئاسة من 11 شخصًا بدلًا من 5 أشخاص، وحاول إقناعي بطريقة ودية وشخصية بالعدول عن ذلك، ولكنه بعد أن تيقّن من تصميمي، قال لي شعرًا كان وليد اللحظة والموقف:

لا قد صلحنا أمرنا أمر العواذل بايهون
روح وانا رزقي على خالقي
لا ما كفوك الأربعة لقي لك عشرة
لا تظن أنك فوق باترتقي
ذالاعيال أبليس سقفوا لك الحفرة
ياما وقع لك منها زرة
تطلع عيونك منها حمرة
ياسين يا حافظ ع ذيك العيون
لا قد صلحنا أمرنا أمر العواذل بايهون

وكما هي حاله مع كل شعره، أخذ يدندن بكلمات القصيدة، وانتهى من تلحينها في ذات الجلسة، فسجلها على شريط كاسيت، ثم غناها الفنان عبد الرحمن الحداد وسجلها للإذاعة والتلفزيون وانتشرت بسرعة كما هو الحال مع أغاني المحضار.

وأتذكر أنه جاءني إلى مكتبي، وبعد السلام عليّ رأيت الدموع تنهمر من عينيه وهو يشير إليّ، قائلًا: "أنت ظالم"، ووضع مفتاح السيارة التي أعطيتها له أمامي، وكرر:

- أنت ظالم!

فوجئت. فلم أتعوَّد من صديقي حسين المحضار أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات طوال صداقتنا الممتدة لسنوات، ولم أكن أعرف السبب الذي دعاه إلى قول ما قال، ولمّا سألته، كرر الجُملة نفسها عدة مرات، ثم قال:

- خذ سيارتك ما بغيتها!.

قلت له:

- ليش يا أبو محضار؟!

أجاب:

- لأنك ظالم. كيف تعطيني سيارة، وتخلي عمي ناصر يمشي على رجوله في الشمس والحر؟!

وقصّ عليَّ كيف أنه عندما كان يسير بسيارته في مودية، بدثينة، قادمًا من حضرموت في طريقه إلى عدن، وخلال توقفه للاستراحة، طلب منه أحد الأصدقاء أن يأخذ معه العم (ناصر محمد) إلى عدن، ولم يصدق أنّ والد الرئيس لا يملك سيارة، وقد أوصله إلى منزلي في التواهي.

وقد شكرت المحضار، ولكنه طلب مني أن أُعطي الوالد سيارة، وعندما قلت له إنّ الوالد لا يعرف قيادة السيارات، قال لي المحضار: (خصّص له سائقًا)، أنا كمان لا أعرف أسوق السيارة، ولكن معي سواق!! فوعدته خيرًا.

رحم الله المحضار الإنسان والصديق والشاعر الذي أحبّ الشعب والشحر والشعر.

البردوني... الراحل الكبير

وبالقدر نفسه أحزنني رحيل الشاعر اليمني الكبير عبد الله البردوني[1]، وكتبت عنه في الصحف كلمة النعي الآتية:

فُجعَت اليمن بفقدها كبير شعرائها الأستاذ عبد الله البردوني، ذلك الشاعر والمبدع الكبير الذي ناضل بالكلمة المرهفة الشجاعة طوال نصف قرن من الزمان.

كان لقائي الأول به في عام 1972م عندما احتضنت عدن أول لقاء للأدباء والكتّاب اليمنيين لتشكل أول تجمع وحدوي يمني يرفض التجزئة والتشطير ويُقيم اتحادًا واحدًا لأدباء اليمن وكتّابها. وكان الفقيدان الكبيران عمر الجاوي وعبد الله البردوني رمزَي هذا التواصل والتوحد والنضال.

التقيته بعدها مرات عديدة، كان فيها الراحل الكبير موسوعة متنقلة، يُبحر في التاريخ والأدب، والسير والتراجم،

---

(1) عبد الله صالح حسن الشحف البردوني (1929–1999): وُلد البردوني في قرية البردون بمحافظة ذمار، وأُصيب بالجدري الذي أدى إلى فقدانه بصره وهو في الخامسة من عمره. بدأ اهتمامه بالشعر والأدب وهو في الثالثة عشرة، ودأب على حفظ ما يقع بين يديه من قصائد، وانتقل إلى صنعاء في أواسط العشرينيات من عمره، ونال جائزة التفوق اللغوي من دار العلوم الشرعية. أُدخل السجن في عهد الإمام أحمد حميد الدين لمساندته ثورة الدستور عام 1948.

سريع البديهة، قريب الدعابة، حُلوَ الحديث، يتنقل بيسر بين الماضي والحاضر، ويستشرف في رؤاه المستقبل وتحدياته.

كان في شعره وكتاباته النقدية والتاريخية، ملفًا لتاريخ اليمن في صعوده وهبوطه... في آلامه وآماله، يتدفق في شعره ليرسم لوحات ناطقة لواقع اليمن وأمته العربية، يعبّر عن أحزان الوطن والأمة وأفراحهما، رددنا معه جميعًا:

ماذا أحدّث عن صنعاء يا أبتي

مليحة عاشقاها السل والجرب

ماتت بصندوق وضاح بلا ثمن

ولم يمت في حشاها العشق والطرب

هكذا كان أبدًا، رغم سوداوية الواقع الذي يعبّر عنه، يستشرف الغد المشرق الذي سينبثق حتمًا يومًا ما.

ألا ترى يا أبا تمام بارقنا إن السماء ترجّى حين تحتجب

حين انشغل الشعراء والأدباء بموضوعة الحداثة والتقليد، والشعر الحر والشعر العمودي، لم يهتمّ كثيرًا بذلك النقاش، بل كتب العمودي بحداثة حلّق فيها عاليًا في سماء الإبداع. ومن أشهر دواوينه: "من أرض بلقيس"، "كائنات الشوق الآخر"، "جوّاب العصور" وغيرها من دواوينه، التي تعتبر علامات مضيئة في تاريخ الشعر العربي المعاصر، وإسهامًا يمنيًا متميزًا في العطاء الإنساني العام.

ومن أهم سماته، في اعتقادي، جرأته على تحريك الماء الراكد في بحيرة الثقافة اليمنية، تتفق معه أو تختلف في ما يكتبه من تاريخ وسياسة، ولكن لا تملك إلا أن تحترم جرأته على قول ما يراه ويعتقده حادًا كالمشرط حينًا، وساخرًا لاذعًا مغلفًا بالنكتة أحيانًا كثيرة.

لقد فقدت اليمن والأمة العربية هَرَمًا شعريًا وقلمًا جريئًا، ولكنْ عزاؤنا سيبقى في تراثه الكبير الذي خلّفه بعده والذي سننهل منه طويلًا. وقد كرمته مؤسسة سلطان العويس بجائزتها السنوية عن الشعر، تقديرًا لمكانته الرائدة.

ونورد هنا شهادة الشاعر العراقي معد الجبوري[1] الذي حضر مهرجان أبي تمام الشعري عام 1971، والتقى الشاعر الكبير عبد الله البردوني.

نص الشهادة:

"خلال زيارة وفد الأدباء المشاركين في مهرجان أبي تمام، للجامع النوري في الموصل، المعروف شعبيًا باسم الجامع الكبير، ظهيرة يوم (11 كانون الأول 1971) وقفنا، نحن أدباء الموصل الشباب آنذاك، أمام رجلٍ ضرير كان أحد ضيوف

---

(1) هو معد أحمد حمدون الجبوري، وُلد عام 1946 في مدينة الموصل، وتوفي عام 2017. تخرج في كلية الشريعة في جامعة بغداد 1968. عمل مدرسًا، ثم مديرًا للنشاط المدرسي في تربية محافظة نينوى، ومديرًا للمجمع الإذاعي التلفزيوني في محافظة نينوى. عضو اتحاد الأدباء في العراق منذ 1970، وعضو نقابة الفنانين في العراق منذ 1980، ورئيس لفرع نقابة الفنانين في نينوى (1981-1986). نشر إنتاجه الشعري في أبرز المجلات والصحف العربية والعراقية منذ أواخر الستينيات.

المهرجان، لنتعرف عليه، إذ لم يتسنَّ لنا ذلك عند استقبال الضيوف في فندق الإدارة المحلية، فالضيف الضرير أنزِلَ في فندق المحطة.

كانت آثار الجدري واضحةً على وجهه، وهو يرتدي دشداشة قصيرة ومعطفًا قديمًا، ويقوده شخص يهمس في أذنه عما يشاهده وعن المتواجدين قربه.. قلنا له بودنا أن نتعرف عليك وعرَّفناه بأنفسنا، فاهتزّ فرحًا وصافحنا بود، قائلًا بتواضع وبصوت واثق: أنا عبد الله البردوني شاعر من اليمن، وأخذ يتحدث عن الشعر، والتيارات الجديدة بشكل خاص، ذاكرًا العديد من الأسماء الشعرية العربية البارزة، مبديًا آراءً خاصة بها تدل على متابعة دقيقة للمشهد الثقافي العربي، ووعي عالٍ بصراع الأجيال والاتجاهات، معربًا عن أمله بالتجاوز الشعري والإضافة والتغيير عبر إبداع الجيل الجديد من الشباب في الأنماط الشعرية كلها. وتحدث بما يسمح به لقاؤنا عن التراث الشعري والمخطوطات وعن الموصل وتاريخها وأعلامها.

كبر الرجل في أعيننا ونحن نصغي بمحبة إلى آرائه الفريدة، وإلى نكاته وضحكاته المجلجلة أيضًا، وأيقنّا أنَّ ما يخفيه أكبر مما أبداه، خاصة بعد أن علِمْنا منه أنه سيُلقي قصيدة جديدة في المهرجان.

مهرجان ابي تمام 1971
خليل الخوري /رشدي العامل/ارشدتوفيق/وليد العبدلي/سالم الخباز/نزار قباني
لجمان ياسين/معد الجبوري /بلند الحيدري

في الأمسية الشعرية الأولى التي أقيمت في قاعة الإدارة المحلية (الربيع) تلا مقدم الحفل اسمَ الشاعر عبد الله البردوني ودعاه إلى الإلقاء، فنهض وسار بهدوء وهو يمسك بالرجل الذي يقوده، وصعد إلى المنبر وهو يمسح أنفَه بِكُمِّ معطفِه، ما أثار بعضًا من اللغط والدهشة في القاعة التي كانت تغصُّ بجمهور حساس محب للشعر.. وتنحنحَ البردوني ثم بدأ يقرأ قصيدته (أبو تمام وعروبة اليوم) بصوت أخَّاذ جميل، وبأداء أبقى على نطق (القاف) كما تُنطق في شمال اليمن:

ما أصدقَ السيف إنْ لم ينْضِهِ الكذِبُ
وأكذبَ السيف إن لم يصدق الغضبُ

أدهى من الجهل، عِلْمٌ يطمئنُّ إلى
أنصافِ ناسٍ طغوا بالعلم واغتصَبوا

قالوا همُ البَشَرُ الأرقَى، وما أكلوا
شيئًا، كما أكلوا الإنسانَ أو شربوا

عندها ضجت القاعة، إذ لم يكن من المتوقع أنَّ رجلًا كفيفًا بمثل تلك الهيئة يمكن أن يُفاجئ القاعة بمثل هذه الأبيات.

وتصاعد البردوني في إلقائه حتى شدَّ الحاضرين من أدباء وشعراء، وجمهور على مستوى عال من الاستجابة، إلى قصيدته، وهم يستعيدون العديد من أبياتها، مثل:

تسعون ألفاً لعمّورية اتَّقَدوا

وللمنجم قالوا: إننا الشُّهُبُ

قيل انتظارِ قطافِ الكرم ما انتظروا

نُضْجَ العناقيد، لكنْ قبلَها التهبوا

واليوم تسعون مليوناً، وما بلغوا

نضجاً، وقد نضجَ الزيتونُ والعِنَبُ

ومثل هذين البيتين:

ماذا أحدِّثُ عن صنعاء يا أبتي؟

مليحةٌ عاشقاها: السِّلُّ والجرَبُ

ماتتْ بصندوقِ (وضَّاحٍ) بلا ثمنٍ

ولم يمُتْ في حشاها العشقُ والطرَبُ

أو:

ماذا أتعجبُ من شيبي على صِغَرٍ

إني ولدتُ عجوزاً، كيفَ تعتَجِبُ؟

وعندما نزل عن المنبر، ظل التصفيق يتوالى، ثم التفَّ حوله العشرات، في القاعة وفي صالة فندق الإدارة المحلية، وظل يستقبل العشرات من أبناء المدينة المعجبين، وهم يُشيدون بقصيدته، لأنه كان بحق نجمَ المهرجان.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن في المدينة أيُّ بثٍّ تلفزيوني سوى محطة تلفزيون الموصل التي كانت تنقل بالأسود والأبيض وقائع الأمسية نقلًا حيًّا مباشرًا على الهواء إلى جمهور الموصل، فدخل المهرجان إلى البيوت والمقاهي والمحلات العامة، وتابعه الناس بشغَفٍ واهتمام.

وبهذه القصيدة التي لم تزل حتى اليوم عالقةً في الأذهان، فتحَ الشاعر عبد الله البردوني أولَ باب لشهرته، في المحافل الأدبية العربية وبين قراء الشعر وعشاقه.

بعد سنين التقيتُ البردوني في مهرجان المربد الخامس بالبصرة يوم الخامس من تشرين الثاني عام 1983 وكنتُ أحد المشاركين فيه، ولا تزال في الذاكرة أبياتٌ من قصيدتين ألقاهما في الجلسة الشعرية الأولى للمهرجان، يستهِلُّ الأولى التي اتسمت بجرأتها، بقوله:

لنـــــا بطونٌ، ولـديكُمْ بنوكْ　　　هذي المآســـي نَصَّبَتكُمْ ملوكْ

لنــــا شروطٌ، ولكُمْ شرطـةٌ　　　تخطُّ بالكرباج (حُسْنَ السُّلوكْ)

أنـتـمْ تحـوكـونَ الـذي لا نَـرى　　　وتستشـــفُّونَ الذي لا نحوكْ

ويقول في الثانية المتسمة بغورها في أعماق الذات:

كـان يبكي، وليس يـدري لمـاذا　　　ويغنـــي، ولا يُحِـــسُّ التذاذا

لا يعي مَنْ دعـا ولا مَن يُلبِّي　　　كـان في صـوتِه يُلاقي مَلاذا

وما أتذكَّره هنا أنّ هاتين القصيدتين، رغم شهرة شاعرهما الذي كان قد غدا من الأصوات الشعرية المعروفة التي لها رصيدُها في الأذهان، لم تحظَيا بما حظيتْ به قصيدتُه في مهرجان أبي تمام، فقد تلقى الحاضرون من شعراء ونقاد عرب وعراقيين وجمهور بَصْريٍّ ذَوَّاق، ما ألقاه الشاعر في مهرجان المربد الخامس بأدنى ما يمكن مِن الاهتمام، إن لم نقل ببرود غريب.

ومما أتذكّره من طرائفِ ذلك المهرجان، أنّ البردوني لم يتخلَّ عن معطفه وهو في البصرة، مع أن الجوَّ فيها، في مطلع شهر تشرين الثاني، لم يكن باردًا إلى حدٍّ يستدعي ارتداء المعاطف، كذلك فإنّ الشاعر العراقي نعمان ماهر الكنعاني، لم يتخلَّ هو الآخَر عن حَملِ العصا، مع أنه كان قويَّ البنية منتصب القامة لا يحتاج إلى أن يتوكأ عليها، ما دعا أحد الصحافيين الظرفاء إلى أن ينشر في جريدة المهرجان تعليقًا ظريفًا على معطف البردوني وعصا الكنعاني، يقول عن المعطف: "لم نعرف إلى الآن من كان وراء إقناع البردوني بأنّ الشتاء قد نزل عندنا.. لكننا نعرف أنّ معطفه الذي يحمله حيثما سار، أصبح من أبرز معالم المربد". وعن العصا يقول: "أضيفت عصا الشاعر نعمان ماهر الكنعاني لمأثورات المربد الخامس.. سألناه: أهي علامة الكِبَر؟ فقال: بل هو تقليد مربدي".

وفي حوار مع البردوني، نُشر في جريدة المهرجان نفسها، تحدث عن مشاركته في مهرجان أبي تمام، قائلًا: هي أول مرة أقرأ

فيها على منبرٍ عالٍ وبين أيدي جمهور الموصل لحساسيته الفنية وثقافته المعروفة، وسُميت القصيدة التي قرأتُها (قصيدة الضجّة).

أما أجمل لقاء لي مع البردوني، فقد كان في مدينة صنعاء عام 1998 ضمن الأسبوع الثقافي العراقي الثاني في اليمن.

ففي صباحيَّةٍ شعرية حاشدة أقيمتْ في جامعة صنعاء للشعراء العراقيين المشاركين في ذلك الأسبوع، وهم كلٌّ مِن: نعمان ماهر الكنعاني، عبد الرزاق عبد الواحد، معد الجبوري، محمد حسين آل ياسين، علي الياسري، جواد الحطاب، كان الشاعر عبد الله البردوني، والشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح، رئيس جامعة صنعاء، والسيد حسن اللوزي، وزير الإعلام والثقافة اليمني، والناقد العراقي علي جواد الطاهر، وحشد من الأساتذة والطلبة، في مدخل قاعة الجامعة لاستقبالنا والترحيب بنا، وكان من المقرر أن يقوم البردوني بتقديمنا للجمهور عند إلقاء قصائدنا. وحين تقدم منا للترحيب بنا، قلتُ له وأنا أصافحه: إنني من مدينة الموصل، فتذكَّر وضمني قائلًا: "أهلًا بابن الموصل المدينة الأصيلة التي لن أنساها ما حييت، ولن أنسى تذوق أبنائها العالي للشعر، ففيها عُرفتُ كصوتٍ شعري، وأخذ اسمي ينتشر في الساحة العربية".

وقرب المنبر بمواجهة جمهور القاعة، توسَّطَ الشاعر عبد الله البردوني جلستَنا خلف طاولة طويلة، ثم قَدّمَنا واحدًا

واحدًا للجمهور، ولم يفُتْهُ أن يذكرَ ضمن تقديمي أنني من مدينة الموصل، وأخذ يُعقِّبُ على كلِّ قصيدةٍ بعد إلقائها، بعباراتٍ موجزة دقيقة". (نهاية الشهادة).

الخطبة التي سجنت البردوني

وقد حدثني المناضل السيد ناصر السقاف، وكان معارضًا لنظام الاستعمار في عدن، ويتنقل بين صنعاء وتعز والبيضاء، وارتبط بصداقة وعلاقة مع البردوني، عن الخطبة التي ألقاها بمناسبة عيد الفطر في مدينة ذمار، فقال إنّ البردوني حضر إلى الاحتفال حاملًا معه بطانية، وعندما سأله البعض من أصدقائه: لماذا أحضرت البطانية معك في هذه المناسبة؟ أجابهم: "إنني أتوقع اعتقالي بعد الخطاب الذي سألقيه ضد الحكم الإمامي الذي حكم اليمن لأكثر من 800 سنة"، وبالفعل، فقد اعتُقِل بعد أن ألقى خطبته الشهيرة التي أدت إلى تمرد بعض المناطق في الشمال برفض دفع "الزكاة" للدولة. وأشاد السقاف حينها بشجاعته النادرة وموقفه الشجاع أمام المسؤولين، وقد كسر بهذا الخطاب حاجز الخوف عند البعض، وكأنه يبشر بفجر جديد وبالثورة التي اندلعت في 26 سبتمبر 1962.

وعن هذه الحادثة قرأت مقالًا كتبه الصحافي علي المقري عام 2014 على موقع العربي الجديد. نورد هنا مقتبسًا من المقال المنشور:

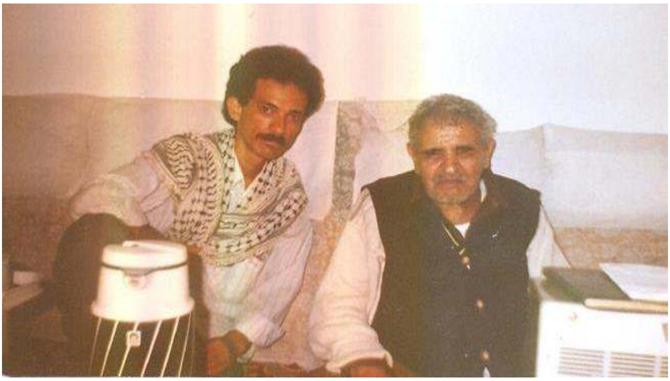

"ما تزال صفحات كثيرة من حياة شاعر اليمن عبد الله البردوني مجهولة. ليس لأنَّ الراحل لم يبح بها، أو لم يدوّنها، بل لأنّ هناك من يتحفّظ على نشر بعض جوانب هذه السيرة، إضافة إلى أنَّ البردوني كان، أحيانًا، يكتفي بالإشارة ولا يمضي في التفصيل.

قبل أكثر من نصف قرن كانت خطبة البردوني حديث الصحافة والمجتمع اليمني في شماله وجنوبه. فقد نشرت صحيفة "النصر" اليمنية خبر اعتقال الشيخ الضَّرِير عقب خطبة له بمناسبة عيد الفطر العام 1960 في مدينة ذمار. لينتقل الخبر إلى صحف عدن، التي كانت حينها أكثر انتشارًا من صحف شمال اليمن. وأبرز هذه الصحف "فتاة الجزيرة"، التي من خلالها نكتشف الكثير من التفاصيل.

فقد أبرزت الصحيفة خبر الاعتقال ونشرت تفاصيله بعنوان: "اعتقال عبد الله البردوني لإلقاء خطاب ثوري في عيد الفطر"، وبدأت باستعراض ما جاء فيه، وذكرت أنهَّ "قد بدأ خطابه بقوله إنَّ الله تعالى يقول في محكم كتابه: "إنَّ إلينا إيابهم

ثم إنَّ علينا حسابهم." صدق الله العظيم. وخطابي اليوم يدور حول الحكم الفردي في بلادنا العزيزة. فلقد أصبحنا عبيدًا لا حقّ لنا في حياة حرّة سعيدة..".

ويومها نقلت الصحيفة عباراته الخطابية، كما جاءت: "ألا أيّها المسؤولون عن دمار هذا الشعب إنَّ يد الله فوق أيديكم وإنَّ يوم الحساب عسير، اتّقوا يومًا لا ينفعكم فيه مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم".

"اليمن قطر عربي مستقلّ يعيش في أقدم عصور الظلام، يحكمه إمام وابنه وإخوانه. سيوف الإسلام يسوسون شعبًا كما يشاؤون وهو غير شاعر بوجوده، يحكمونه حكمًا إقطاعيًا غاشمًا منذ أكثر من ثمانية قرون. ومشكلة البلاد اليوم أنّ خزانة الدولة أو بيت المال خاوٍ من المال، بينما الحكومة تخبط خبط عشواء وتستجدي المعونة من الدول ذات المصالح، وهذه قد عَرَضت على الإمام مشاريع لإدخال بعض الإصلاح، والإصلاح مهما كان نوعه قد يأتي الشعب بالخير والرفاهية. وهذه لا تتّفق وحكمة الحاكم بأمره، وهو الذي لا يريد لنا هذه الدنيا لأنَّها، كما يقول، دار غرور ونهايتها الفناء، ونحن لا نبدي ولا نعيد. لكنّ الشعب اليمني بدأ يشعر بحالة التخدير التي هو فيها ولا يبعد أن تتحرّك قواه في سبيل الخلاص من هذا الفساد والمطالبة بإشراك الشعب في حكم نفسه".

انتهى الاقتباس من المقال

أبو بكر سالم... صمتت القيثارة

التقيت الراحل الكبير الفنان أبو بكر سالم بلفقيه (رحمه الله) لأول مرة في عدن، التي أحبها وظل يحبها إلى الأبد إثر عودته إليها في سنة 1984 بعد غياب طويل... طويل... وهو الذي كان يغني: "كل شيء إلا فراقك يا عدن".

من هذه المدينة انطلقت شهرته التي طبّقت الآفاق، وكانت عدن التي جاءها من مسقط رأسه (تريم) الغنَاء بحضرموت في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي صانعة المشاهير مثلما كانت بيروت والقاهرة، فكانت محطته الأولى التي حملته على أجنحة المجد ليس إلى اليمن وحدها، بل إلى الخليج والجزيرة وبقية الوطن العربي.

كانت فرحته بالعودة إلى عدن عظيمة، مثلما كان فرح واستقبال الناس له كبيرًا، مسؤولين وكتّابًا وفنانين وجماهير.

كانت عودته من أيام عدن المشهودة، كيف لا وقد عاد طائرها المهاجر الذي ظل في وجدانها كما ظل هو في وجدانهم طوال كل هذه السنين، وكأنه لم يغب عنها وعنهم قط، وكان صوته وغناؤه أنيسهم في كل وقت. كان أبو بكر طوال الرحلة التي حملته إلى عدن يردد باشتياق أغنيته التي غناها قبل سنوات (بالله يا طيار عجل بالمسير.. شمسان دا بعده على قلبي عسير). كانت الآن لسان حاله ويستعجل الوصول إلى عدن.

أتذكر أن عودته صادفت عيد الأضحى المبارك، وحظيت عودة أبو بكر سالم الفنان والإنسان باهتمام على أعلى المستويات، وعلى المستوى الشعبي. كنت يومها رئيس الدولة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، دعوت فنّاننا الكبير إلى حفل غداء في دار الضيافة في الرئاسة حضره كبار المسؤولين وأدباء وكتّاب وفنانون ومدعوون من مختلف شرائح المجتمع، تكريمًا له. وعقب الغداء، كما هي العادة، (مقيل)، وقد أجلست أبو بكر الى يميني. كان الضيوف يتوافدون للتهنئة بعيد الأضحى، كما جرت العادة في السنوات الأخيرة. أتذكر لحظة دخول الفنان الكبير محمد مرشد ناجي، وهو قامة فنية كبيرة، حيث نهض الجميع وأخذ يسلّم عليهم باليد، وعندما وصل إلى حيث أقف سلّم عليّ، وقدّم إليّ التهنئة بالعيد، لكنه لم يسلّم على أبو بكر الذي كان يقف إلى يميني، وتجاوزه للسلام على الآخرين، مع أن المناسبة والصداقة التي تربط بينهما منذ قدم المرشدي الفنان الشاب أبو بكر سالم في حفل له في عدن لأول مرة في الخمسينيات من القرن الماضي، وعودته بعد غياب طويل، ولكون أبو بكر ضيفي، كلها تقتضي منه غير ذلك. كان الموقف محرجًا، وقد لاحظ الكثيرون ذلك. عندما جلسنا التفت إلى أبو بكر وشاهدت على وجهه حبّات العرَق، وكان وجهه محمرًّا. سألته عن السبب الذي جعل المرشدي يتصرف على هذا النحو، فأجابني:

1. مجرد خلاف قديم... ما كنت أظن أنه لا يزال يتذكر ذلك!!!

المرشدي بعد أن أنهى السلام على بقية الضيوف، اختار الجلوس أمامنا، لكني دعوته للجلوس بقربي وأجلسته على يساري فيما أبو بكر على يميني. وتحدثت معهما بلطف وبطريقة ودية دون أن يسمع الآخرون، ودعوتهما إلى تناسي خلافاتهما، واتفقت معهما على أن يتصافحا في نهاية الجلسة (المقيل). وفعلًا، ضجّ الحاضرون بالتصفيق عندما قاما وتصافحا وتعانقا، وكانت تلك لحظة نادرة ومؤثرة، لكنّ أحدًا من الحاضرين لم يعرف السبب.

ومما أتذكره عن تلك الزيارة في جلسة أخرى، أن أحد المسؤولين الذين لا يعرفون تاريخ الرجل وفنه ومكانته بين الناس، طلب من الفنان أبو بكر أن يغني أغنيته المشهورة التي يقول فيها: (كل شيء معقول.. كل شي مقبول.. كل شي إلا فراقك يا عدن)، لكنه اعتذر بلباقة، لأن الجو لم يكن مهيَّأً للغناء، ولم يكن عوده معه، وكانت الجلسة ودية، وقال له إنه لم يعد يتذكر كلماتها، فقال له ذلك المسؤول بطريقة غير موفقة (نسيتها كما نسيت وطنك)!!

هنا ردّ عليه أبو بكر: أنا ما نسيت وطني، ولا نسيت عدن التي غنيت لها وأحببتها وأحببت شعبها الطيب، ولكن تصرفات البعض هي التي جعلتني وغيري نترك عدن، ولكننا لم ننسَها ولم ننسَ وطننا، فهو في قلبي ووجداني. وأضاف:

2. لولا هذا الرجل (والتفت نحوي) الذي أعاد البسمة والروح إلى عدن، لما وجدتني الآن هنا في عدن.

لعدن غنّى أبو بكر بلفقيه كما لم يغنِّ لمدينة: (يا طائرة طيري لابندر عدن.. زاد الهوى.. زاد النوى.. زاد الشجن.. عالبعد ما أقدرش أنا... ع الهجر ما أقدرش أنا.. أشوف يومي سنة.. دي جنة الدنيا حوت كل فن)، وغيرها من الأغاني الخالدة. كذلك غنّى للوطن، والمئات من الأغاني العاطفية والوجدانية، ونال جائزة أفضل صوت عن أغنيته (أقوله أيه) من كلمات وألحان الشاعر الكبير حسين أبو بكر المحضار.

أقام أبو بكر عدة أيام في عدن، حضر خلالها زفاف ابنته أنغام، وأقام حفلًا غنائيًا في المسرح الوطني بالتواهي امتلأ عن آخره بالحضور من كلا الجنسين، وأجرى معه تلفزيون عدن لقاءً تاريخيًا أداره الإعلامي أحمد ناصر الحماطي، وطفرت عيناه بالدموع وهو يستعيد ذكرياته في عدن وعن عدن. وتجول في المدينة وشواطئها الجميلة، والتقى عشرات الناس من محبّي فنه، كذلك سافر إلى حضرموت وأقام حفلًا فنيًا في المكلا، وغنّى خلال تلك الحفلات كما لم يغنِّ من قبل. كان الآن يغني في وطنه وبين أبناء وطنه بعد سنوات طويلة من الغياب.

استمرت لقاءاتي بعدها بالفنان الكبير، وتواصلت اتصالاتنا، وكان يحرص على أن يهديني أحدث أغانيه، لأنه كان يعرف كم أحب صوته وأغانيه، كما أحب أشعار المحضار

وأغانيه التي جعلت منهما ثنائيًا ناجحًا طوال عقود، مثلما هو الحال للطفي جعفر أمان وأحمد قاسم، وعبد الله عبد الوهاب النعمان (الفضول) وأيوب طارش، ومصطفى الخضر ومحمد عبده زيدي وغيرهم.

كنت أتابع باهتمام وقلق رحلته الأخيرة مع المرض، وعندما بلغني نبأ وفاته، شعرت بحزن عميق. لقد صمتت القيثارة التي ظلت تعزف بأشجى الألحان وأعذبها في الزمن الجميل طوال أكثر من ستين عامًا، لكنه سيظل حيًّا بإرثه وصوته الذي لا يَبلى في قلوب الملايين من محبيه وعشاق فنه، وقد قدمت واجب العزاء لأبنائه أصيل وأديب وأحمد وأفراد أسرته كافة. تغمّد الله فقيدنا أبو بكر سالم بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

موقف الفن والفنانين من الأحداث

كان بعض الشعراء والفنانين قد كتبوا ولحّنوا وغنَّوا بعض الأغاني في خضمّ الصراع والخلاف في عدن، وقد اتخذ بعضهم موقفًا مؤيدًا للسياسة الداخلية والخارجية التي انتهجناها ما بين 1980-1985م (كما وصفها وزير الخارجية الأسبق سالم صالح محمد بالفترة الذهبية)، وكانت تحظى بتأييد شعبي وإقليمي ودولي. وقد عبّر الفنانون عن الموقف التضامني السياسي والإنساني بشعر ونثر وغناء، ولحّن الفنان أحمد بن غودل هذه القصائد التي غنتها فرقة الإنشاد الوطنية وبعض الفنانين والفنانات في بداية الأزمة التي مرّت بها البلاد عام1985م، بينما كان البعض يقفون ضد هذه السياسة

ويرفعون شعارات ويهتفون في بعض الأرياف "ثورة ثورة لا إصلاح".

ومن هذه الأغاني أغنية يا جمّال:

يا جمّال قل للجمل مهما طالت المرحلة
لازم بالحمولة يصــل وانته حارس القافله

عاد الدهر ما ابتســم يا محبوب والخير عم
والبســمة على كل فم وايام الهنا واصــله

يا من بالمحبة شــمل كل الناس وأعطى مثل
عمرك ما تشــوف المثل والمشــوار باتكمله

حبيناك أيوه نعم يا من بالقلوب التحم
حبك عهد حبك قســم في أعناقنا نحمله

لو الراعي غفل عالغنم بتفرح ذئاب القمم
كم قاســى الحبيب وكم يا اجيالنا المقبله

ما دمنا معك بانصل يا ناسج خيوط الأمل
مهما صار مهما حصل لازم توصل القافله

وقد كتب كلمات تلك الأغنية الشاعر علي عمر صالح، وغنّتها الفنانة أمل كعدل. والشاعر علي عمر تعرفت إليه عندما كنت وزيرًا للدفاع، وشجعته على أشعاره التي كانت تُنشَر وتُغنّى في كثير من المناسبات الوطنية، وكان صديقًا للفنان أحمد بن غودل، وأحمد بن أحمد قاسم. وعلي عمر صالح ناصر من

مواليد أبين عام 1941. عمل في السلك العسكري مدة عشر سنوات. أسهم في النضال المسلح ضد الاحتلال البريطاني لجنوب اليمن. غنّى له العديد من الفنانين اليمنيين قصائده العاطفية والثورية، وصدرت له ثلاثة دواوين، وله مشاركات فنية خارج اليمن. وله أغنية ثانية بعنوان مابا يهزك ريح، تقول:

مـابـا يهزك ريح يـا هـذا الجبـل.. مهما حصـــل
ولا العواصـــــف والرعــــــود

شـــامخ كما شــمســـان أو عيبان يا كل الأمل
أو مثـــل هـاذيك الســـــدود

جربت ذي ماسك عصا موسى ويحسبها حنش
كـل من خـــدع مـا بـايســـود

يعرض نحاســه يحســبك باتصــدق أنه ذهب
غشـــاش مـا يـرعـى العـهـــود

ويلف لـك ويـدور والهرجه كما طعم العســل
لـكنـه مـن داخـل حقــــــود

ما دام تمشـــي عالطريق المستوي ما شي خلل
العــــزم للمخلص وقــــود

خلي عيونك ســاهرة ما يهمّ لو ذقت القهد[1]
منـك تـعـلـمنـا الصــمــــود

---

(12) القهد: القهر والضيم والألم.

تبقى كما انتـه وانـا دايم معـك.. دايم معـك
بـالروح لاجلـك بـانجــــــــود

وأيضًا أغنية الشاعر ناصر علوي الحميقاني "يا خبز يدي والعجين":

الكل قلبه في يســاره وانت قلبك في اليمين
يا خبز يدي والعجين
عشـاك تحتك باتشـله بالرضـاء أو بالصـميل
اللي تحـدى الـدهر ويلـه من تقلاب السـنين
الـدهر مـا بـايرحمـك بـاتشــتكي بـالـدهر فين
ياخبز يدي والعجين
عشـاك تحتك باتشـله بالرضـاء أو بالصـميل
إن عـاملك جـارك بقسـوه عـامله انته بلين
وســمعـه كلمـة وفـاء تطن في أذنـه طنين
يا خبز يدي والعجين
عشـاك تحتك باتشـله بالرضـاء أو بالصـميل
يـا جـارنـا قـل لي حقوق الجـار تعرفهـا منين
وأنته تدورع المشـاكل في كل ما سـاعه وحين
يا خبز يدي والعجين
عشـاك تحتك باتشـله بالرضـاء أو بالصـميل

ناصر الحميقاني

الشاعر ناصر الحميقاني من مواليد عام 1940م، قرية "زارة" مديرية لودر في محافظة أبين، وهو أب لثمانية من الأبناء، وقد عمل مبكرًا في القوات المسلحة في القوى البحرية منذ التحاقه بها عام 57م، وحتى لحظة استشهاده في يناير 86م.

حظيت مختلف أعمال ناصر الحميقاني وقصائده الغنائية الإبداعية بالشهرة والذيوع، وقد بدأها بتقديم أول عمل غنائي يظهر له مع الفنان الشعبي سعيد عبد الله الشعوي في ستينيات القرن المنصرم، تلاها بأعمال غنائية أخرى لحّنها الفنان الشعوي للثلاثي اللامع المكوَّن من نادية عبد الله، منيرة شمسان وأسمهان عبد العزيز. كذلك تغنّى بأعماله الفنان أحمد عمر عوذلي، ولحّن له الفنان إسكندر ثابت عدة ألحان غنّتها منيرة شمسان، ومنها أغنية (سامح بربك) و(كلام الناس أثر فيك وتعذيبي بذا يرضيك)، وكذلك الفنان عبد الله حيدرة، الذي لحّن له أغنية (ساعي البريد)، وتغنت بها الفنانة منيرة شمسان، إلى أن حان اللقاء بالفنان المتألق آنذاك، المطرب عوض أحمد، حيث قدم له في "السبعينيات"، ومن ألحان محمد سالم بن شامخ (يا جمال) و(بلبل سحرني جماله) و(كفاية ذي حصل منك).

وإلى جانب هذه العطاءات الغنائية، غنّى له الفنان محمد عبده زيدي (حبيب العمر) و(كفاية حب كفاية عذاب) وكرامة مرسال وأحمد بن أحمد قاسم، الذي شدا له عدة أناشيد وطنية، من ضمنها (من كل قلبي أحبك يا بلادي يا يمن)، وكذلك الفنان شريف ناجي، الذي تغنّى برائعتيه الغنائيتين (يا غائب متى با تعود) و(انته الحسيني بكله). وهناك أغنية **لولاه أبو النوب** التي تقول كلماتها:

الشاعر والملحن جمل الليل الكاف، وعلى اليمين الفنان عبد الرحمن الحداد

لولاه أبو النوب[1] ما ذقنا لذيذ العسل
لولاه مانوبه وحده بقا في المحل

لولاه أبو النوب بانحرم السلسبيل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

قد جربوه بالملا أنه دوا للعلل
يشفي الذي حتى بالجسم عنده كلل

---

(1) أبو النوب: أبو الملمات.

حتى كبير الأطباء قال ماله مثيل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

وان باتشل[1] لك هدية منه شفها جبل
تكرم حبيبك بها في الحال لما تصل

وان باتعامل أحد باتصبح أحسن عميل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

من جبحنا الصافي من ذا يغش العسل
من غشنا ليس منا احذره يابطل

أقل ما فيه أنه باقول ماهو أصيل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

والخل دي هو وفي ما خاب فيه الأمل
يخلص بحبه ولا يرضى بغيرك بدل

وانته لنا ياحبيب القلب ما بك بديل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

لك حب راسي قوي ارسا منَ أقوى جبل
لك حب ما ينطوي حتى يحين الأجل

لك حب يبقَى مَثلْ للناس في كل جيل
شرب العسل يشفي من كان قلبه عليل

---

(2) وان باتشل: وإن بغيت.

كلمات وألحان الشاعر والملحن جمل الليل أحمد الكاف والمعروف باسم أبو أحمد والذي تعرفت إليه في عدن وصنعاء وغنتها الفنانة أمل كعدل. ويقال إن سبب التسمية "جمل الليل" أطلقت على جده الذي عرف عنه التعبد والاعتكاف لساعات طويلة من الليل حيث شبهوه بالصبر المعروف عن الجِمال لقوة تحمّلها وصبرها على الشدائد والأثقال والعطش.

وفي الأخير، ليس هناك أفضل من أن نرى كل ما قمنا به من أجل قضية الوطن والثقافة والأدباء والكتّاب والفنانين يلقى تقدير الآخرين واحترامهم، ويتضاعف هذا الإحساس بالسعادة عندما يأتي التقدير وأنت خارج السلطة، لأنه يأتي عن حب، خاليًا من النفاق والمصلحة، حينها تشعر بأنك لم تكن تحرث في البحر، بل في أرض تعطي الحصاد.

الكاتب والصحافي سعيد عولقي[1]

تعرفت إليه من كتاباته في الصحف والمجلات والمسرحيات، وفي وقت لاحق التقيته في منزلي أكثر من مرة مع صديقيه، أحمد بن غودل، والكاتب حسين السيد، وهؤلاء الثلاثة لا يفترقون، وكانوا يلتقون عندي كل عام في ذكرى عيد ميلادي، وفي العطل الرسمية في جلسات ثقافية وفنية بعيدًا عن سموم السياسة. ولم تنقطع اتصالاتي بهم بعد مغادرتي للسلطة في صنعاء ودمشق ومصر، وكانوا أوفياء معي عندما كنت في السلطة وخارجها، ولم يتنكروا لي كما تنكر البعض من وعاظ السلاطين، وكانت علاقتنا قائمة على الوفاء والإخاء والاحترام والتقدير لدورهم الثقافي والفني والسياسي، ولم ترتبط هذه العلاقة بأي مصلحة خاصة لأي منهم، ولهذا استمرت، ولم تنقطع.

سعيد عولقي

سعدتُ كثيرًا بما كتبه عني الصحافي سعيد عولقي، وعن الفترة التي كنتُ فيها رئيسًا لجمهورية اليمن الديمقراطية، في العدد الـ (47) من صحيفة (التجمع) الصادرة في عدن بتاريخ 25 نوفمبر 1991م، في مقال أسماه (في حب علي!)، وهو مقال

---

(1) وسعيد عولقي كاتب مسرحي، صحافي ساخر، ممثل، ناقد مسرحي، كاتب قصصي ولد عام 1946 في مدينة الشيخ عثمان، وكان والده قائدًا للجيش قبل استقلال الجنوب، تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدارس عدن.

نابع عن حب وتقدير ما كنت لأستحقه لولا تلك الصداقة الحميمة التي نشأت بيني وبين معشر المثقفين والفنانين في اليمن، حيث لم أشعرهم في يوم بأنني أتعامل معهم من موقع الرئيس، بل من موقع الصديق.

وهنا ما كتبه سعيد عولقي:

في حب علي!

أخي العزيز علي ناصر محمد...

ما أقلّ الزعماء الذين يحظون بمحبة شعوبهم في التاريخ.. أقصد المحبة الطوعية الخالصة المنزهة عن الأغراض والمترفعة عن المنافع.. أقصد الحب الحميم النابع من أنقى موقع في القلب.. حيث لا يصل الخوف أو الإكراه أو الخداع.

لقد وقفت كثيرًا في حيرة عظيمة أمام هذه الظاهرة.. الحب المطلق للزعيم بصرف النظر عن التفاصيل.. وما زلت متحيرًا؟! فمن أنت يا أخي؟ من أنت؟ ما المادة التي كوّنت شخصك وصنعت شخصيتك؟ وما زلت متحيرًا.. بعد كل هذه السنين والأحداث والمتغيرات.. فقط أعرف أن الذين يحبونك لا يسألون لماذا لأنك أنت الجواب.. وفي الوقت ذاته.. أنت السؤال..

يا أخي علي..

دعني أعترف لك..

كنت تقف على رأس نظام سياسي يؤيده البعض.. ويجامله البعض.. ويخافه البعض.. وينفر منه البعض.. ويعاديه

البعض.. ويكرهونه.. لكن عامة الناس من أبناء الشعب الطيب الصبور كانوا يحبونك برغم هذا كله، فكيف يمكن حلّ هذه المعادلة الصعبة يا أخي؟

قطعًا هنالك من لم يحبوك.. وربما يكرهونك.. لكنني هنا أتحدث عن القاعدة وليس عن الاستثناء.. ولقد دلتني فطرة الناس على أنك زعيم استثنائي.

مرت السنون وكرّت.. وتباعدت بيننا المسافات وانقطعت بنا السبل منذ سنوات ست كانت كفيلة بأن تجعل الحب يذوي ويطمره النسيان.. لكن الحب فتيًا ما زال مثلما كان في يوم ميلادك الذي سبق الرحيل وأنت في أوج تألقك وشموخك.

إن الانسجام الذي كان يسود جنة عدن دمره اختيار آدم وحواء بعصيانهما أوامر خالقهما الذي ألقى بهما إلى خارج الفردوس وطردهما شر طردة من النعيم كما جاء في الكتب السماوية المقدسة.. ومنذ تلك اللحظة أرغم الجنس البشري على العمل ليأكل خبزه من عرق جبينه. وبعد تلك اللحظة تقرر أن يقتل قابيل أخاه هابيل وأن يستغل الإنسان أخاه الإنسان.. وأن تنبني أنظمة للحكم على أساس تنظيم القتل وتشريع الاستغلال.. وتطبيع القهر.

واقتنع أبناء آدم بأنّ فكرة إقامة أنظمة للحكم مهما كانت مسمياتها ما هي إلا حيلة بارعة وماكرة للتسلط على رقاب الخلق.. وعندما فتحت الديمقراطية الجديدة أبواب الأمل والرجاء للجميع، اكتشف الإنسان أنه ليس له من اختيار حر سوى الحب أو الكره، مع أن حرية أبناء آدم الأوائل كانت أوسع

نطاقًا. وحتى هذا الاختيار بقي ناقصًا، لأن الإنسان لا يملك حق إعلانه دون تصريح.

يا علي، أجدد اعترافي بأنني أعلنت عليك الحب برغم علمي الأكيد بافتقار هذا الاختيار الصادق إلى الجدوى.. ذلك أن رطلًا واحدًا من فلز اليورانيوم يعطي ما يعادل الطاقة المستخرجة من مليونين ونصف مليون رطل من الفحم الحجري! هل ترى ما أفدح المقارنة إذا ما أدركنا بساطة الاختيار في الاستعمال؟ لقد كنت دائمًا واثقًا ثقة يقينية كاملة من صحة اختيارك عند المفاضلة. إنّ أعظم ما في حبنا لك يا علي لا يعني بالضرورة كرهنا للآخرين.. فأنت أوسع من بلاد الناس.. وأكبر من حدود الخريطة.. ونحن نيابة عنك نقبّل تراب أرض الوطن الذي أعطيته أفضل ما تستطيع.. وأعطاك الحب والشوق والوفاء.

عيد ميلاد سعيد مقدمًا.. وكل عام وأنت بخير.. فالرحلة ما زالت طويلة.. والفكرة ما زالت كبيرة.. والدولة ما زالت صغيرة!

سعيد عولقي

بداياته: بدأ سعيد عولقي دراسته في مدرسة الجيش الخاصة بأبناء الضباط الذين درسوا فيها وتخرجوا منها للعمل في الجيش أو لمواصلة الدراسة العسكرية في لندن وغيرها. وسعيد عولقي رجل مثقف ومتواضع، ولا يتحدث عن نفسه كثيرًا، بل تتحدث عنه أعماله الفنية والعسكرية، فهو ابن القائد العسكري

للجيش خلال فترة الاحتلال البريطاني قبل العقيد ناصر بريك، قائد جيش محمية عدن (جيش الليوي).

بدأ حياته الفنية ممثلًا مسرحيًا ضمن فرقة الجنوب للتمثيل في الشيخ عثمان بقيادة عمر الرخم عام 1965، كتب أعمالًا درامية كثيرة للإذاعة والتليفزيون والمسرح، مثل: الأرض، مشروع زواج، المهزلة الإدارية، القوي والأقوى، نداء الأرض، فوق الجبل، عودة الانتصار، التركة (جزءان) وقد انتشرت على نطاق واسع في عدن والمحافظات، وفي المعسكرات، وحظيت باهتمام كبير من قبل المشاهدين، نظرًا لهذا العمل الإبداعي الخالد الذي لا يُمَل من مشاهدته والاستماع إليه، وكانت تُبَثّ حلقات عن هذه المسرحية عبر الإذاعة باللهجة المحلية لأبناء دثينة والعواذل، وكان من أبرز الممثلين القائد عبد الله (المسيبلي) الذي حقق نجاحًا كبيرًا في أداء دور القائد العسكري مع ضباطه وجنوده الذين أتقنوا أدوارهم في المواقف السياسية والعسكرية والتطورات التي شهدتها اليمن بعد 1967م وحركة 22 يونيو 1969م وموقف الجيش منها.

له أعمال أدبية كثيرة غير المسرح، فلقد أبدع في كتابة الإسهامات الأدبية في مختلف الصحف والمجلات المحلية، وكان رئيس تحرير مجلة الفنون، ونُشرت له مجموعة قصصية بعنوان: الهجرة مرتين، ورواية بعنوان: السمّار الثلاثة. وتبوأ مناصب عديدة في الإعلام والثقافة وألّف كتاب: سبعون عامًا من المسرح اليمني.

مع الجواهري من موطن الثلج زحافًا إلى عدن

الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري

التقيتُ في براغ لأول مرة الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري[1] الذي لجأ إليها بعد تعرضه عام 1980م لاضطهاد أكثر من النظام في بغداد، كغيره من المفكرين العراقيين. زارني الجواهري في دار الضيافة في براغ عام 1983م، وزرته في شقته المتواضعة، وقرأ لي بعضًا من قصائده عن عدن وبائعة السمك في براغ، وأخبرني أنه عندما ركب الطائرة في طريقه إلى عدن، بدأ يكتب قصيدته من موطن الثلج زحافًا إلى عدن، كما أسماها.

في عام 2010م قدمت إذاعة العراق الحرّ برنامجًا عن الشاعر الكبير، جاء فيه:

---

(1)الجواهري: هو محمد بن عبد الحسين مهدي الجواهري، ولد في النجف في العراق (26 يوليو 1899) وتوفي في (1 يناير 1997). لُقِّب بشاعر العرب الأكبر، غادر العراق عام 1961 إلى لبنان، ومنه إلى براغ التي استقرّ فيها سبع سنوات، وصدر له فيها في عام 1965 ديوان جديد سمّاه "بريد الغربة"، وعاد إلى العراق في نهاية عام 1968 بدعوة رسمية من الحكومة العراقية، بعد أن أعادت إليه الجنسية العراقية، وخصصت له الحكومة، بعد عودته، راتبًا تقاعديًا قدره 150 دينارًا في الشهر، تنقل بين سوريا، مصر، المغرب، الأردن، ولكنه استقر في دمشق ونزل في ضيافة الرئيس الراحل حافظ الأسد. كرّمه الرئيس الراحل «حافظ الأسد» بمنحه أعلى وسام في البلاد، وقصيدة الشاعر الجواهري "دمشق جبهة المجد" تُعَدّ من أفضل قصائده.

"ما كاد الجواهري ينيخ في براغ 1980م، مغتربًا عن بلاده من جديد، بعيدًا عن دجلة الخير، بسبب الأوضاع الإرهابية التي سادت العراق آنذاك، حتى تكررت دعوات رسمية عديدة له لاستضافته، رمزًا ومبدعًا رائدًا، ومن بينها دعوة رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية علي ناصر محمد، التي تقبّلها بسرور، ولبّاها عام 1981، وفي عدن احتُفي به بما يستحقه من دولة شابة لم تبخل على الثقافة برغم قلة ما باليد، قلّ نظيرها هناك، كما ينقل شهود عيان[1].

ومن ضمن برنامج الزيارة، أُقيم على شرف الشاعر الخالد احتفال جماهيري حاشد في عدن حضره المئات من العراقيين الذين هربوا إلى عدن من بطش النظام، وبلغ عددهم أكثر من ألفين من أدباء وكتّاب وشعراء ومدرسين ومهندسين وفنانين وأطباء وأساتذة جامعات وطلاب، ومن مختلف التخصصات الأخرى، وفوجئ الجواهري بهذا الحضور الكبير من العراقيين، وشعر (كما أخبرني) كأنه في أمسية شعرية في بغداد.

وألقى في الحفل، إلى جانب مختارات من قصائده القديمة (وكل قديمه جديد بحسب تعبيره)... نونية عصماء نظمها

(1) – يتذكر الأخ علي محسن حميد أنه ومعه السفير طه غانم التقى الشاعر الكبير في برنامج عام 1985م، وأنه تحدث عن زيارته للجنوب بدعوة من الرئيس علي ناصر محمد، وأنه احتفى به وأهداه فيديو كان وقتها من العجائب، وقد عبّر الشاعر وقتها عن دهشته من رؤية نفسه في شاشة التلفزيون نقلًا عن كاميرا ترسل الصورة إليه فورًا.

بالمناسبة، ولم ينسَ أن يوثق في مطلعها انطلاق رحلته إلى اليمن، من براغ، موطن الثلج كما أسماها:

مـن مـوطـن الـثـلـج زحـافـاً إلى عـدن
تســـــري بي الريح في مهر بلا رسـنِ

كـاسي على صـــهوة منـه يصــفقهـا،
مـا قيّض الله لي من خلقـه الحســـن

من موطن الثلج من خضـــر العيون به،
لموطن السـحر، من سـمراء ذي يزن

مـن كـل ملتفـة الكشـــحين نـاعمـة،
ميـادة مثـل غصـــن البـانـة اللـدن

يـا لـلتصـــابي أمـا ينـفـك يجذبني،
على الثمانين جـذب النوق بـالعطن

قالوا أما تنتشـــــــي إلا على خطرٍ فقلت
ذلـــك مـــن لهـــوي ومـــن ددني

ســبحان من ألف الضـــدين في خلدي،
فرط الشــجاعة، في فرط من الجبن

لا أتـقي خـزرات الـذئـب تـرصــــدني،
وأتـقـي نـظـرات الأوعـج الشـــدنِ

ثم تستمر قصيدة الواحد والأربعين بيتًا، ليشبك فيها الجواهري – كعادته – في محاور متعددة بين العام والخاص

والإيحاءات والوصف والاستعارة، وغيرها كثير، فراحت أبياتها تتهادى على إيقاعات محسوبة بإتقان متفرد:

خبت بي الريح في إيماض بارقة
تلغي مسافة بين العين والأذنِ

لم أدرها زمناً تطوى مراحله،
أم أنها عثرات العمر بالزمن

والله ما بعدت دارٌ، وإن بعدت،
ما أقرب الشوط من أهلي، ومن سكني

واختتم الشاعر في أبيات تالية، التحية بمثلها، وأكثر، للمحتفين به، والحاضرين الذين كانوا كفاء تكريم شاعرهم الأخلد:

ألقي إليكم بما أنتم أحق به، مما ينفس عن شجوٍ وعن حزنِ
وناقل التمر عن جهل إلى هجر كناقل الشعر موشيًا إلى اليمن

وفي هذه المرة أيضًا، لم يفوّت الجواهري "مقامته" اليمنية الجديدة، فراح يتباهى بشعره وعطائه، وبرؤىً اختطّها مسارات ثابتة في حياته الرحيبة بالتمرد والشموخ والمواقف... فقال:

ويا أحبايّ صفحاً عن مكابرة
من ملهمٍ بغرور النفس مرتهن

تغفو على الخطر الملتف خاطرتي
كأنها نشوة العينين بالوسن

ويستبد بنفسي وهي حالمة،
من كبرياء القوافي، زهو مفتتن

ما أرخص الموت عندي إذ يَنِدُّ فمي،
بما تحوك بنات الشِّعر من كفني

وما أرقَّ الليالي وهي تسلمني
يوم النضال، لظهر المركب الخشن

حسبتني وعقاب الجو يصعد بي
إلى السماواتِ محمولاً إلى وطني

لقد حرصتُ على إدامة علاقات وطيدة مع الشاعر الرمز، على عقدين تقريبًا، ومن بينها لقاءات وزيارات أخرى عديدة في دمشق في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، حين كان أيضًا مثلي يستقر في دمشق، ضيفًا سياسيًا مكرَّمًا، لسنوات عديدة.

وكنتُ قد استعدتُ سماع هذه القصيدة من الأديب والشاعر والسفير والحفاظة محمد عبد الواسع حميد، رحمه الله، وعلمت منه أنه يحفظ أكثر من خمسة آلاف بيت من الشعر.

رسالة إلى الأسد:

مع السيد محمد دعبول "أبو سليم"

محمد دعبول المعروف بـ "أبو سليم" الذي عاصر عددًا من الرؤساء في سوريا، وهو كاتم أسرار الرئيس والرئاسة، وعبره تمرّ كل الاتصالات والتوجيهات، وكثير من الناس يسمعونه، ولكنهم لا يعرفونه شخصيًا، وقد سماه أحد الأصدقاء "الجبلاوي".

بعد سنوات من هذا اللقاء، شاءت الظروف أن نلتقي ونقيم في دمشق في ضيافة الرئيس حافظ الأسد، وكنا نلتقي من حين لآخر، وساءت حالته، وأتذكر أنه كان يرغب في أن يُدفَن في العراق، وحاول الذهاب إلى هناك ليموت فيه، لكنّ أسرته رفضت. وفي إحدى الليالي زارتني ابنته الدكتورة خيال[1] وزوجها بعد منتصف الليل، وطلبا مني أن أزور الوالد لأنه يرفض النوم. وبالفعل، قصدتُ منزله، ووجدته جالسًا وشاكيًا من الأصوات المزعجة، لأنه كلما حاول أن ينام يسمع رنين

---

(1) من مواليد مدينة بغداد 1946، وبعدها درست في الجامعة المستنصرية وتخرجت منها عام 1972، ومن ثم أكملت دراستها في براغ(دكتوراه في علم المكتبات)، بعدها توظفت في مكتبة الأسد بصفة (خبيرة) ومن ثمَّ أكملت دراستها ونالت (KNDR) مرشح علوم وهذه هي الدكتوراه الكبيرة كما هو معروف. وعملت بجامعة دمشق لمدة (12) عامًا. وعادت الى بغداد عام 2003 وعملت في دار الكتب والوثائق العراقية ورُشحت نائبةً في البرلمان العراقي. عضو اللجنة المركزية في الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العراقيين، عضو نقابة الصحافيين العراقيين، عضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب. ألّفت (13) كتابًا متنوعًا في المعارف والعلوم. وبعد وفاة والدها ألفت ثلاثة كتب اختصت جميعها بسيرته وتوثيق حياته الطويلة.

دقات مسامير في أذنه، ولا يعرف من هو هذا المتآمر عليه، ولهذا فقد كتب رسالة إلى الرئيس حافظ الأسد شعرًا ونثرًا، يشكو حالته ويطالب بمعالجته ووضع حد لهذه المشكلة التي يتعرض لها قبل النوم، وقدم إليّ الرسالة، وطلب مني تسليمها للرئيس الأسد مساء هذا اليوم، فقلت له: أستاذ، إنّ الرئيس يكون نائمًا الآن، وأنا أعرف أنه لا ينام إلا متأخرًا، وبعد أن تنام دمشق وكبار القوم فيها، وكانت ابنته تغمز بعينها وتشير بيدها وبصوتها أن اذهب بالرسالة إلى الرئيس فورًا، وفهمت الرسالة، وقلتُ: "على راسي"، كما يقولون في بلاد الشام، ورفض أن أغادر قبل أن يهدي إليّ دواوينه، وعلى الصفحة الأولى شعرًا، وشكرته وانصرفت، وفي الصباح اتصلت بمدير مكتب الرئيس محمد دعبول المعروف باسم "أبو سليم"، فأخبرته بما جرى مع الجواهري، وقلت له إنني سأرسل إليه الرسالة ليسلّمها للرئيس، فسألني: "هل هو يشكو من الطنين ومن أذنه ومن المسامير؟"، أجبت: "نعم"، فشعرت بأنه على علم، وقال: "الرسالة وصلت ولا تزعج نفسك ونزعج الرئيس بها"، فأدركت أن الجواهري أرسل الرسالة نفسها، وفي الوقت نفسه تأكد لي أنّ الأجهزة تسمع الطنين والحنين والأنين للضيوف والمواطنين، حتى في مرضهم. وأتذكر حديثًا لمحسن إبراهيم، القيادي في حركة القوميين العرب عندما كان ضيفًا في مصر، وكان المصريون يسمعون كل ما يدور في غرفة نومه، وقد فقد تقريرًا عن حزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق بعد

الانفصال، وعندما التقى عبد الناصر، قال له: "سيادة الرئيس، كنت سأحضر لك محضرًا هامًا، وقد فقدته. أرجو أن يكون قد وصلك"، فضحك عبد الناصر، ولم يعلِّق.

وقد كتب الجواهري قصيدته المشهورة "سلامٌ أيها الأسد سلمتَ ويسلم البلد" التي غنتها الفنانة أصالة، والتي عبّر من خلالها عن امتنانه للرئيس الأسد الذي استضافه في سوريا بعد أن ترك بلاده العراق مضطرًا:

سلامًا أيها الأسدُ سلمتَ وتسلم البلدُ
وتسلم أمة فخرت بأنك فخر من تلد
لها من حافظ سند ومنه الزند والعضد
يمينًا أنك الأسد له عن غابة رصدُ
صمودًا أيها الأسد رعاك الواحدُ الأحدُ

وحاولت السلطات الأردنية إغراءه بالمال، ووعدته بالتوسط له لدى القيادة العراقية للعودة إلى العراق، وأن لا يُلاحَق، وكان الغرض أن يأتي إلى الأردن وينظم قصيدة تشيد بالملك حسين بن طلال بمناسبة عيد ميلاده. ويُقال إنّ العرض جاوز المليون دولار من الأردن، ومثلها له من الحكومة العراقية، ولكنه لم يقبل الإغراء الأردني، وعاش فقيرًا ومات فقيرًا، ولم يتحقق حلمه المتواضع بالحصول على المليون دولار، كما حدثني بذلك السيد فخري كريم، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي.

محمود درويش ضمير فلسطين الذي لم يسافر

غاب عن عالمنا الشاعر الكبير المناضل الراحل محمود درويش[1] فكانت الفجيعة برحيله نكبة خاصة ومتفردة تضاف إلى النكبات التي مُنيت بها فلسطين والأمة العربية، رحل ولمّا

(1) ولد محمود درويش في عام 1941م في قرية البروة الفلسطينية الواقعة في الجليل شرق مدينة عكا الساحلية، وبعد حرب 1947م احتلت إسرائيل جزءًا من فلسطين، وشردت أهلها إلى البلدان المجاورة، فوجد محمود درويش نفسه في قريةٍ داخل جنوب لبنان مع عشرات آلافٍ من أهله اللاجئين الفلسطينيين، وكان عمره لم يتجاوز السادسة، وكان الاعتقاد لدى اللاجئين بأنّ عودتهم إلى ديارهم قريبة، إلا أنّ عائلة محمود درويش فهمت أنّ ذلك سيكون طويلًا، فعادت إلى قريتها، إلا أنّهم وجدوا قريتهم قد دُمرت تمامًا، واستوليَ على أملاكهم وبيوتهم، فسكنوا في بلدةٍ مجاورةٍ اسمها "دير الأسد"، ثمّ انتقلت عائلة محمود درويش إلى حيفا، ومكثت العائلة فيها عشر سنواتٍ، حيث أنهى محمود درويش المرحلة الثانوية فيها، وعمل محررًا في جريدة "الاتحاد". الشاعر محمود درويش من أكثر الشعراء الفلسطينيين شهرةً، وقد نشر أول مجموعة من قصائده، وكانت أوراق الزيتون، في عام 1964م، عندما كان عمره 22 عامًا، ومنذ ذلك الحين نشر درويش ما يقرب من ثلاثين مجموعة شعرية ونثرية تُرجمت إلى أكثر من 22 لغة. بعض من عناوينه الشعرية الأخيرة تشمل "أثر الفراشة"، وقد كان درويش يعمل محررًا في مجلة شهرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومدير مركز أبحاث المجموعة. وفي عام 1987 عُيِّن في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، واستقال في عام 1993 في معارضة اتفاق أوسلو. وعمل أيضًا في منصب رئيس تحرير ومؤسس المراجعة الأدبية الكرمل التي نشرت من مركز السكاكيني منذ عام 1997م. وحصل محمود درويش على العديد من الجوائز، وتشمل جوائزه وأوسمة شرفه جائزة ابن سينا، وجائزة لينين للسلام، وجائزة لوتس لعام 1969م من اتحاد الكتّاب الأفرو آسيويين، ومُنح رتبة نبيل في فرنسا للفنون، وميدالية بيلز ليترز في عام 1997م، وجائزة عام 2001م للحرية الثقافية من مؤسسة لانان، وجائزة ستالين للسلام من الاتحاد السوفييتي. توفي محمود درويش في الولايات المتحدة الأمريكية يوم السبت في 9 أغسطس من عام 2008م بعد إجراء عملية قلب مفتوحٍ في المركز الطبي في هيوستن، وأُعلِن الحداد لمدة ثلاثة أيامٍ على وفاته في فلسطين، وأُحضِر جثمانه إلى مدينة رام الله حيث دفن في ساحة قصر رام الله الثقافي.

يتحقق حلمنا الكبير الذي كان المترجم الأمثل له ضميرًا وقلبًا وفكرًا وشعرًا وكلمات لا تنسى.

إنه السفر الأخير لشاعرنا العملاق الذي طالما كان يردد ولا تزال كلماته تدق ناقوس الذاكرة (وطني ليس حقيبة وأنا لستُ مسافر). الآن قرر الاعتراف بالسفر، ولكن بعد أن خلق "محمود درويش" في كل محطة وفي كل ذاكرة وفي كل بلد عربي وأجنبي.

لقد جمعتني بالشاعر الكبير الراحل محمود درويش عدة مناسبات متفرقة زمانًا ومكانًا، ولا أزال أذكر جيدًا زيارته لعدن سنة 1972م، وهو في أوج شبابه وحيويته لا يألو جهدًا في إسماع صوت فلسطين والتعبير عنها بلغة قلّ نظيرها، إلى أن باتت لغة خاصة مملوكة له ومملوكين معًا لفلسطين وللقضية الفلسطينية. وفي زيارته تلك، طبع كعادته صوت درويش وصورته ولونه وجرحه. وكانت آخر مناسبة التقيته فيها، في باريس، بحضور الصديق فواز طرابلسي والسفيرة ليلى شهيد وآخرين، ولم يكن إلا كما عوّدنا، شاعرًا في أوج شبابه الشعري، وكان حينها في خلاف مع ياسر عرفات بسبب اتفاق أوسلو، ولكنه قال: نحن نختلف فيما بيننا، ولكننا لا نفرّط في القائد ياسر عرفات ووحدة منظمة التحرير. ونصحته بالحوار مع أبو عمار، لكنه كان مترددًا في الاتصال به، لكن أبو عمار بادر بالاتصال بدرويش في باريس ليكسر حاجز الجفوة بينهما،

وحدثه محمود درويش عن أنني نصحت بالحوار مع أبو عمار، وأكدت حرصي على وحدة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكان ردّ أبو عمار: هذا حبيبي وهو اللي بيفهمني يا محمود. وحدثني بذلك محمود درويش نفسه بعد اتصاله معه. وقد أهداني في هذه المناسبة ديوانه الجديد وقصيدته الجديدة أيضًا "أحد عشر كوكبًا". هناك كان يجدد العهد وينشّط الذاكرة العربية والعالمية، ويكرر غير آبه لكل المتغيرات وكل المستجدات وكل الخرائط الجديدة (وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر)، وهكذا يعبّر درويش عن رفضه الاستسلام للأمر الواقع المتمثل بالاحتلال والمأساة والشتات ورحلة البحث عن الوطن داخل الوطن، وليس خارجه كما يريد المحتل والغاصب للأرض وحلفاؤه الذين يتشدقون بقيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان.

لقد ترك الشاعر الكبير الراحل محمود درويش إرثًا شعريًا يكفي لأن تشرب من معينه القضية الفلسطينية فتبقى واقفة كشجر الزيتون العصيّ على الزوال، وتبقى في الذاكرة العربية والعالمية منهجًا للمقاومة بسلاح الكلمة والصوت والحب والسلام.

رحم الله شاعرنا الكبير وتقبّله كما يتقبّل الشهداء والصدّيقين والصالحين والأولياء، فهو شهيد الكلمة، صدّيق الموقف، صالح الروح، وليّ الحب للأرض والإنسان.

وإذا كان (الموتى سواسية أمام الموت) كما كان يقول شاعرنا الكبير محمود درويش، فإنهم بلا شك مختلفون أمام الله.

مع الشاعر محمود درويش والسيد فواز طرابلسي والسفير علي مثنى.

خلود العظماء.. نجيب محفوظ..

مع الأديب العالمي نجيب محفوظ [1] في المعادي أتابع الجنازة الكبيرة على شاشة التلفاز، أشارك فيها من مقعدي كما تفعل الملايين في هذه اللحظة، تودع الراحل الكبير إلى مثواه الأخير بجنازة مهيبة تليق بالأديب العظيم، الذي وضع اسم العرب على لائحة حاملي جائزة نوبل التي استحقها عن روايته "أولاد حارتنا"، وتعرّض بسببها لمحاولة اغتيال من أحد العناصر الظلامية التي تقف ضد العلم والعلماء والأدب والتنوير. وقد جاء نيله لهذه الجائزة تقديرًا لإبداعه الذي وصل إلى معظم شعوب الأرض، واستحق بجدارة أن يحتل سدة الأدب لفترة طويلة ماضية وقادمة، لإنتاجه الغزير في الرواية، التي تحول بعضها إلى مسلسلات وأفلام، وفي مقدمتها بين القصرين، السكرية، وقصر الشوق.

---

(1) نجيب محفوظ (11 ديسمبر 1911 – 30 أغسطس 2006) روائي مصري، وأول مصري حائز جائزة نوبل في الأدب. كتب نجيب محفوظ منذ الثلاثينيات، واستمرّ حتى 2004. تدور أحداث جميع رواياته في مصر، وتظهر فيها سمة متكررة، هي الحارة التي تعادل العالم. من أشهر أعماله: الثلاثية وأولاد حارتنا التي مُنعت من النشر في مصر منذ صدورها وحتى وقتٍ قريب. بينما يُصنف أدب محفوظ باعتباره أدبًا واقعيًا، فإن مواضيع وجودية تظهر فيه. محفوظ أكثر أديب عربي نُقلت أعماله إلى السينما والتلفزيون. تُوفي في 29 أغطس 2006م عن عمر ناهز 95 عامًا إثر قرحة نازفة بعد عشرين يومًا من دخوله مستشفى الشرطة في حيّ العجوزة في محافظة الجيزة لإصابته بمشكلات صحية في الرئة والكليتين.

مشاهد الأسى والحزن تعلو الوجوه التي أعرف الكثير منها، من مسؤولين وأدباء وكتّاب وفنانين ومحبين، جمعهم حبهم وتقديرهم للعبقري الذي سال قلمه بحبر الواقع المصري.

ودّعته مصر بجنازة تليق بـ "أم الدنيا" التي خرّجت الأدباء والعظماء والزعماء، والتي أنجبت طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم ومحمود السعدني وأمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم وأحمد رامي وأم كلثوم وغيرهم من الأدباء والزعماء العظام، وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر.

ونجيب محفوظ "الظاهرة" لم يمت ولن يموت، بتأثيره الذي شمل أجيالًا كاملة، ليس في مصر وحدها، بل على امتداد الوطن العربي والعالم، وترك خلفه تراثًا عظيمًا من أجمل الكتب والروايات والمسلسلات والأفلام، وتلامذة كبارًا يخطو بعضهم مقتفيًا أثره إلى عالم النجوم.

تلامذة أحبوه وأحبهم ورافقوه حتى آخر لحظة من حياته بوفاء شديد، ومنهم مجموعته المميزة التي اعتادت اللقاء كل ثلاثاء في "فرح بوت"، اليخت الجميل الراسي على ضفة النيل، الذي تحول إلى منتدى فكري ضمّ أسماءً كبيرة، كيوسف القعيد وجمال الغيطاني وعبد الرحمن الأبنودي، وغيرهم من الأدباء الكبار الذين تعرفت عبرهم إلى مبدع "أولاد حارتنا".

كان آخر لقاء لنا في الثلاثاء الأخير من أبريل 2006، وكان جمال الغيطاني يومها أذنه التي يسمعنا بها، إذ إنّ الراحل الكبير الذي تجاوز التسعين وبقي مصرًا على الحضور والمشاركة بشجاعة في المحافل الأدبية، كان محتاجًا لعون تلامذته للتواصل مع الآخرين، خاصة بعد الحادث البشع الذي تعرض له وإصابته في عنقه ويده.

فاجأتني قدراته المتجددة التي قادت الحديث الغني الذي شمل الأدب والسياسة والتاريخ، وفاجأني اهتمامه ومتابعته للتطورات والأحداث الجارية، وأحببت كلامه عن ذكرياته في اليمن التي زارها مدفوعًا بحسّه القومي لمؤازرة ثورة 26 سبتمبر، التي قدّم لها الرئيس جمال عبد الناصر كل أشكال الدعم والتضحيات من خيرة أجناد الأرض من أجل الدفاع عن الجمهورية، وحدثنا عن انطباعاته الجميلة عن مدينة تعز وجبل صبر وجمال طبيعتها، التي أبدع في وصفها السفير الدكتور عبد الولي الشميري حين قال:

أما تعز التي فسطاطها صبر ... أبو الجبال زعيم في بواديها
سفوحه تكتسي الرمان زاهية ... من الرياحين كتان مراعيها
يقبّل النجم هامات العروس كما ... يقبّل القمر الزاهي أهاليها

ابتسم الأستاذ نجيب محفوظ وهو يصف جمال ملابس النساء الشعبية في تلك المنطقة، التي كانوا يسمونها "دمس" لشبهها بالنسيج الدمشقي "دامسكو"، ما ذكرني بالقصيدة

المغناة للشاعر عبد الله عبد الوهاب الفضول وغناء أيوب طارش:

طاب البلس طاب وا عذارى طاب
هــيــا صـــبــحــونــا بــلـــس

محـلا بـنـات الجـبـل حـيـنـما
يطوفين المـدينـة بـالـثـيـاب الـدمس

خـدود مثـل الـورد ضـــوء الفجر
أرواهـا وأعـطـاهـا المشـــاقـر حـرس

محوطـات الوجوه البيض بـالكـاذي
المســـقـى في بـــرود الــغــلــس

يســـقــيـك مــا أحــلى ورودك
وغرسـك وا صـبر يرحم أبوه من غرس

كـم فيـك مـن حسـن كـم فيـك
مـن ألـوان فتنـه لـيـت قـلـبي نَفَس

ولم يخلُ الحديث من حسّ الدعابة وسرعة البديهة، حينما علّق أحد الحضور بمكر، ممازحًا: "هل أعجبتك تعز المدينة أم بناتها يا أستاذ؟"، فردّ الرجل العجوز مبتسمًا: "بل عيون بناتها"، وضحك الجميع.

وكان ممكنًا أن يطول الحديث المشوّق، لولا أنّ "الرجل الساعة"، كما يدعوه أصدقاؤه، شعر بانتهاء الوقت بساعته البيولوجية الدقيقة، وأومأ إلى تلامذته الذين سارعوا إلى الوقوف ومرافقته إلى سيارته. وكان يحدد وقت التدخين، ووقت الذهاب إلى الحمام، ووقت الانصراف، وكان جمال الغيطاني قد نبهني إلى ذلك وهو يشير إلى ساعته قبل دقائق من هذا التوقيت، بل إنه كان أكثر دقة من الساعة، وهو يتصرف وكأنه يشاهد الساعة، ولم أشاهد في حياتي رجلًا مثله، وفي هذه السنّ، بهذه الدقة.

الجنازة انتهت، ورقد نجيب محفوظ بسلام في مثواه الأخير، لكنه من أكثر الأحياء حياةً، وباقٍ بعد فناء العديد من الأجيال القادمة، وسيبدأ منذ اللحظة حياة خلود العظماء.

الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودي

تعرفتُ إلى الشاعر عبد الرحمن الأبنودي[1] في عدن عندما جاء لزيارتها وزيارة حضرموت، كغيره من الأدباء والكتّاب الذين كانوا يزورون عدن من مختلف أنحاء الوطن العربي والعالم، ومنهم الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، والشاعر الفلسطيني محمود درويش، والشاعر السوداني الكبير د. مبارك حسن الخليفة، والشاعر المصري زكي عمر، والأديب والكاتب العراقي سعدي يوسف، والمفكر والفيلسوف حسين مروة، والأديب والكاتب لطفي الخوري، والأديبة الكبيرة نوال السعداوي، والكاتب الناقد الساخر محمود السعدني، والأديب والشاعر والسفير أحمد الحردلو، وغيرهم من الكتّاب والأدباء والفنانين والشعراء العرب الذين كانوا يترددون على زيارتها أو

---

(1) عبد الرحمن الأبنودي (11 أبريل 1938 – 21 أبريل 2015م): شاعر مصري يُعَدّ من أشهر شعراء العامية في مصر. وُلد عام 1938 في قرية أبنود بمحافظة قنا في صعيد مصر لأب كان يعمل مأذونًا شرعيًا، هو الشيخ محمود الأبنودي، وانتقل إلى مدينة قنا، وتحديدًا شارع بني علي، حيث استمع إلى أغاني السيرة الهلالية التي تأثر بها. الشاعر عبد الرحمن الأبنودي متزوج المذيعة المصرية نهال كمال، وله منها ابنتان، آية ونور. من أشهر أعماله السيرة الهلالية التي جمعها من شعراء الصعيد، ولم يؤلّفها. ومن أشهر كتبه كتاب أيامي الحلوة الذي نشره في حلقات منفصلة في ملحق أيامنا الحلوة بجريدة الأهرام، وجُمعَت في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة، وفيه يحكي الأبنودي قصصًا وأحداثًا مختلفة من حياته في صعيد مصر. توفي يوم الثلاثاء 21 أبريل 2015م.

يقيمون فيها، وتحديدًا في السبعينيات والثمانينيات، عندما تعرّض هؤلاء للاضطهاد من قبل الحكام في مصر والعراق والسودان، وغيرها من البلدان العربية. فقد كانت عدن ملجًا أيضًا للمناضلين من مختلف البلدان العربية. ولم تنقطع اتصالاتي وعلاقتي بالأبنودي في كل من القاهرة ودمشق والإسماعيلية، لكنّ اللقاء الأجمل والأفضل كان في الغردقة ومنتجع "الجونة" السياحي على البحر الأحمر الذي تمتلكه أسرة أنسي سويرس، فقد كنا نلتقي باستمرار طوال هذه الرحلة والإجازة الممتعة التي قضيناها على شواطئ البحر الأحمر، وكنت أشعر وكأنني في خليج عدن ومدينة عدن.

ولم أنسَ حديثًا وديًا دار بيننا في أثناء زيارته لنا في دمشق عندما أحضرنا له شايًا بالحليب والهيل على الطريقة العدنية، وقد فوجئت زوجته المذيعة نهال كمال، وابنتاه الحلوتان، آية ونور، بطريقة إعداد الشاي، الذي كنّ يرونه لأول مرة، والتفتت زوجته إليه، ونادته: "عبد الرحمن، عبد الرحمن"، فردّ عليها، سائلًا: "ما الأمر؟"، فقالت له: "بص بص كيف يحضروا الشاي بالحليب والهيل". وردّ عليها ساخرًا: "يا شيخة، هديتي هيلي". وضحكنا. كذلك حدثنا عن الطريقة التي جرى بها زواجه بنهال، التي كانت تتردد عليه كأستاذ لها، ولفت نظر والدته جمال البنت ونظراتها نحو ابنها، وقالت له: "عبد الرحمن، البنية تحبك". وعلّق ساخرًا: "هي صغيرة وبيضاء، وأنا أسمر

وكبير بالسن". ولكنها أقنعت الاثنين بطريقتها بالتقارب والتفاهم، الذي تُوِّج بالزواج وإنجاب ابنتيهما الجميلتين. وكان قد تحدث معي كثيرًا عن العادات والتقاليد والتراث المتشابه بين حضرموت بمبانيها الطينية وأبوابها وغير ذلك، وقال لنا إنّ هناك تشابهًا كبيرًا بين قريته أبنود وصعيد مصر ووادي النيل، ووادي حضرموت.

وبوفاة الأبنودي خسرتُ أخًا وصديقًا كنتُ أتردد عليه في زياراتي لمصر، كذلك كنت أتردد أيضًا على مجالس نجيب محفوظ ومحمود السعدني وجمال الغيطاني ويوسف القعيد وغيرهم. وفي إحدى المرات قررتُ زيارة الأبنودي في الإسماعيلية، ورافقني في هذه الزيارة الصديق العزيز والكاتب إسكند شاهر، رحمه الله، الذي كتب مقالًا جميلًا بعد زيارتنا للإسماعيلية، وأترك للقارئ أن يطّلع على هذه القطعة الأدبية الرائعة:

"الأبنودي وناصر وأنا"

إسكندر شاهر

07 سبتمبر 2013

"ذات صباح قاهري اتصل بي الصديق الرئيس علي ناصر محمد، طالبًا أن أرافقه إلى مدينة الإسماعيلية لزيارة الكاتب والشاعر العربي الكبير عبد الرحمن الأبنودي، فما كان مني إلا أن رحبت بهذا الطلب الذي يشكل فرصة رائعة للالتقاء بصاحب (السيرة الهلالية) وتجاذب أطراف الحديث وإياه، ولا سيما في

ظل المتغيرات التي تعيشها مصر والمنطقة، بعد ما يُسمى الربيع العربي، و(ليس ربيعًا ولا عربيًا ولكن شُبِّه لهم).

اصطحبتُ نسخة من كتابي (مسألة الأقليات وسبل تخفيف التوترات الدينية والإثنية في الشرق الأوسط) الذي صدرت طبعتاه الأولى والثانية عن المركز العربي للدراسات الاستراتيجية الذي أسّسه ويرأسه الرئيس علي ناصر، فإذا كان خير جليس الكتاب، فهو خير رفيق أيضًا في رحلة كهذه بصحبة سياسي وقائد له صولاته في عالم السياسة، وليكن هديتي المتواضعة لكاتب له جولاته وأجواله في عالم الكتابة.

حدثني الرئيس علي ناصر عن علاقته القديمة بالأبنودي، التي تعود إلى زيارة الشاعر لعدن قبل نحو أربعة عقود من الزمن. في الطريق إلى الإسماعيلية رحلت الذاكرة إلى ذلك الزمن الجميل، وتواردت أغنياته الأجمل التي كتب الأبنودي جلّها وغنّاها أهمّ المطربين العرب من (أحلف بسماها وبترابها)، و(أنا كل ما أقول التوبة)، و(ابنك يقول لك يا بطل) وغيرها من أغنيات العندليب عبد الحليم حافظ التي تسكن الوجدان العربي جيلًا بعد جيل، مرورًا بأغانٍ لا تزال تطبع ألوانًا من (قصص الحب الجميلة) لنجاة الصغيرة صاحبة أغنية (عيون القلب) التي لكأن الأبنودي قد أبصر بها كل القلوب، وصولًا إلى (مربعاته) التي لا يزال يرسمها حتى اليوم في صحيفة (التحرير) القاهرية.

في الطريق أيضًا يتنهّد واحدنا، وهو يتذكر أنه متجه صوب الشاعر الأسمر الأبنودي، فيدندن دون أن يطلق إشعارًا مسبقًا: (آه يا اسمراني اللون)، تلك الأغنية التي غنّتها شادية من كلماته، ونتساءل عمّا بقي من الطريق إلى الإسماعيلية، فتهبط أغنية (ساعات ساعات) التي غنّتها له صباح، وأحسب أن صديقي الرئيس القادم من بيروت لتوّه قد أذعن لسلطان أغنيتين (جايي من بيروت) و(بهواك يا مصر) اللتين غنتهما ماجدة الرومي، من كلمات الشاعر الأبنودي، وأما أنا فقد كانت (كل الحاجات بتفكرني)، كما يغني الفنان محمد منير لشاعرنا الذي تفصلنا عنه بضع ساعات حيث يقيم في الإسماعيلية التي بُنيت على الضفة الغربية من بحيرة التمساح - وتُعَدّ جزءًا من ممر قناة السويس - في منتصف المسافة بين بورسعيد شمالًا، والسويس جنوبًا، لكي تكون مركزًا لشركة قناة السويس العالمية للملاحة في عهد الخديوى إسماعيل.

واختار الشاعر الأبنودي هذه المدينة مقرًا لإقامته، لتميّزها بالمزارع والمتنزهات والهواء النقيّ، وهو الذي لم يعد يستطيع مقاومة هواء القاهرة المليء بالعوادم، لشدة ما استفحل في صدره من حشرجات الزمن، ما يجعله أحوج ما يكون إلى القدر الأكبر من الأوكسجين لرئتيه ليبثّ فيهما الحياة، فتنعكس أوكسجينًا شعريًا يقاوم شبح الموت وشبح الأحياء الأموات.

تطل الإسماعيلية أخيرًا كمدينة سويسية وسياسية، ويشير إلينا مستقبلونا الإسماعيليون قبل وصولنا إلى مزرعة الشاعر الأبنودي إلى خط بارليف عن بُعد، هناك حيث تجسدت إرادة العبور إلى النصر في أكتوبر 1973م، حين جاء تتويجًا لإرادة لم ينهض بها لأول مرة قرار تأميم القناة 1956م لصاحبه الزعيم جمال عبد الناصر، ولم تعصف بها لآخر مرة نكسة حزيران 1967م، ولئن كان الرئيس السادات، وهو "صاحب قرار أكتوبر"، كما يصفه الأستاذ محمد حسنين هيكل، قد وقّع قرار النصر الأكتوبري، فإنه لم يوقع الهزيمة على مصراعيها في كامب ديفيد، لولا أنّ قاتليه ومن حاولوا اغتيال عبد الناصر قبله كانوا، ولا يزالون، عشاقًا للجحور، حتى بعد أن انفتح لهم الربيع الإسرائيلي ليوصلهم إلى القصور. إنهم الإخوان الذين لم يحققوا نصرًا يستحق الثناء كنصر أكتوبر، ولا هزيمة تستحق الرثاء كنكسة حزيران. هنا إذًا، موعدنا مع التاريخ، وبعد بضع دقائق سنكون على موعد مع الشاعر الأبنودي، ليقول كلمته، وقد عاش ذلكم التاريخ، ونال نصيبه من كل ما سبق.

وصلنا إلى مزرعة الشاعر الأبنودي لنلقاه (تحت الشجر يا وهيبة)، وهذه واحدة من قصائده التي غنّاها محمد رشدي والذي غنّى له أيضًا (عدوية)، (وسّع للنور)، و(عرباوي)، فيخرج الشاعر الكبير لاستقبالنا إلى مدخل المزرعة، متعكزًا عصاه، واهبًا ابتسامة فارس هلالي لضيفه ومرافقيه، ويعرّف

الرئيس علي ناصر بنا، ولا ينسى كعادته أن يُعلي من شأن أصدقائه على تواضعهم، ولا يستحق المضيف شيئًا من ذلك، فهو أشهر من نار على علم. كان حضورنا بالنسبة إليه حضورًا لتوأم مصر، كما عبّر في حديث مقتضب عن العلاقة والتشابه بين اليمنيين والمصريين بلغة الأبنودي، حين يتحدث ببساطة وعمق وقراءة مكثفة. ويحضر المحضار هنا حينما نتذكر وإياه هذا الشاعر الكبير الراحل والصديق المشترك بينه وبين علي ناصر وصاحب كلمات أغلب وأجمل أغاني الفنان الكبير أبو بكر سالم بلفقيه، وكان الأبنودي قد سافر إلى اليمن ووصل إلى حضرموت لاكتشاف هذا اللون الغنائي حينما سمع قبل أربعة عقود أغنية لأبي بكر سالم، واستغرب صلة بعض كلماتها ببعض المصطلحات المتداولة في صعيد مصر. هنا يتجلى الفارس الهلالي الذي لا يألو جهدًا في التنقل والرحيل بحثًا عن أصل شعري وفصل فكري، وأيام للعربية بكل لهجاتها التي لا تخلو من ظلال حميرية.

كانت هذه الزيارة للأبنودي في عهد الرئيس المصري المعزول محمد مرسي، ولم يكن في خاطر أيٍّ منّا أنّ خاتمة الأخير ستؤول إلى هذا المآل، على أنّ كل مؤشرات الحياة في مصر كانت تشي بنهاية غير سعيدة لمصر لو استمر الإخوان في حكمها وللجماعة إذا لفظتهم مصر، وهي منبتهم قبل أن يتحولوا إلى تنظيم دولي يتجاوز الوطنية والشعور بها إلى الانتماء العائم فوق

مسطح أيديولوجي وسياسي لا مرسى له فوق أنه لم يعد له (مُرسي) أيضًا بعد خروج حركة (تمرد) وانتصار الجيش لإرادة الملايين من المصريين. كان الأبنودي قد قال لنا بوضوح في أثناء الزيارة إنهم، الإخوان، لا يصلحون للحكم، وإنهم اعتادوا الجحور ومينفعوش للقصور، وهذا ما حدث فعلًا بعد عزل مرسي والطريقة التي أدار بها الإخوان أزمتهم، فاستطاعوا العودة إلى الجحور بامتياز وجدارة. كان الأبنودي يقولها كما لو أنه يرى سقوطهم بأمّ عينه قبل وقوع هذا السقوط بأشهر، تمامًا كما كان يشير بأصبعه إلى صورة جمال عبد الناصر الملصقة على ساعة معلقة على حائط غرفة الاستقبال التي كنا فيها، وهو يقول لنا إنه تعرّض للسجن في عهده، إلا أنه يضع صورته هناك.

الأبنودي، وهو صاحب قصيدة (الاستعمار العربي)، كان واعيًا على الدوام لدور القصيدة والأغنية في صناعة التاريخ والأحداث، فكان ينظر إلى هذا الدور بموضوعية، وهو دور يتحرك ويتراكم ويتعاظم، فلا يختزل المشكلة في "السلطة هي الغاية"، ولا الشعار في (الإسلام هو الحل)، وهذه الحركية التي كان ولا يزال عليها أن تكون ذات أثر فاعل في إحداث التغيير المنشود في مصر واليمن وكل بلداننا العربية بعيدًا عن استاتيكية القوى التقليدية - على تنوعها -التي لطالما كانت رافعة للاستعمار وأداة للاستحمار.

كان لحضورنا سلطان المناسبة للحديث عن اليمن، وكان للأبنودي سلطانه في اختزال علاقته باليمن بأبلغ القول نثرًا وشعرًا وثقافة وعادات ونكتة لا يعوزها أي مصري، فكيف بهذا المصري الذي يعيش بأنفاس الملايين وبتموجات حياتهم، على أن الرئيس أبا جمال كان قادرًا على إحياء الذاكرة المحضارية من وحي زيارة الشاعر حسين المحضار برفقته إلى الهند والتي ارتجلها هناك عند أعجوبة (تاج محل) ولا يزال أبو جمال يحفظها ويترنّم بها فألقاها على مسامعنا محركًا آثار الاغتراب فينا وملهبًا نار البعد عن الوطن الذي نكتوي بفراقه، ويقول المحضار فيها:

الهند فيها الهنا .. الهند فيها المنى
والجو في الهند غايم تحسب أنه ربيع

حسك تغرك نيودلهي وتلهي
عزك بلادك بها تأمر وتنهي

وإن ضاق بك عيش فيها صدرها لك وسيع... (إلى آخر القصيدة)

وأما شاعرنا (الخال) عبد الرحمن الأبنودي، فيناجي الغربة على طريقته.. ولئن رأينا روحه شابة، فإنه يخاطب نفسه وشيبته وغربته على طريقته الصعيدية، وسنراه يستعمل كلمة (مُسرع) التي نستخدمها في إحدى عامياتنا اليمنية حين يقول:

والله وشبت يا عبد الرحمان
عجزت ياواد

(مُسرَع)..

ميتى وكيف؟!

عاد اللي يعجز في بلاده

غير اللي يعجز ضيف!! ....

إيماءة:

أطال الله في عمر (الأبنودي وعلي ناصر)، وأما أنا فيقف السؤال منتصبًا أمامي.. هل يا ترى ستسمح لنا الأقدار بأن نعجز في بلادنا أم أن المشيب سيلحق بالشباب الذي يضيع نهبًا للاغتراب؟!

انتهى المقال

وقد توفي الصديق إسكندر شاهر في يونيو 2019م، وهو في عزّ شبابه، وكأنه كان يتنبأ بأنه لن يعجز في بلاده. رحم الله الشاعر الكبير الأبنودي والكاتب المبدع إسكندر شاهر.

مع الشاعر عبد الرحمن الأبنودي والكاتب إسكندر شاهر

وبعد عام من زيارتنا له، كرّمته جريدة الأهرام، بحضور الأستاذ محمد حسنين هيكل، حيث جرى الاحتفال بعيد ميلاده

السادس والسبعين الموافق لـ 11 أبريل، كذلك احتُفِل بتوقيع كتابه "المربعات" الذي قدمه الكاتب محمد حسنين هيكل. وكان هذا الحفل والتكريم بمثابة الوداع الأخير للشاعر الكبير الكبير.

وفاة الأبنودي

شُيِّع الشاعر المصري الكبير عبد الرحمن الأبنودي الذي توفي عن 77 عامًا، منهيًا سلسلة شائعات عن موته في الآونة الأخيرة، التي سخر منها ذات مرة وهو في المستشفى، قائلًا: "لن أموت قبل أن أخبركم".

ونُقل الجثمان من مستشفى للقوات المسلحة بالقاهرة، حيث كان الأبنودي يعالج، إلى الإسماعيلية حيث أُجريت مراسم التشييع.

وللأبنودي، شاعر العامية البارز، الكثير من الدواوين، وألّف العديد من الأغاني التي تغنّت بها أسماء بارزة في العالم العربي، وكتب السيرة الهلالية.

وُلد الأبنودي يوم 11 أبريل نيسان 1938 في أبنود بمحافظة قنا على بعد نحو 700 كيلومتر جنوب العاصمة التي رحل إليها في مطلع الشباب مع صديقين من المحافظة نفسها، هما الشاعر أمل دنقل (1940–1983) والأديب يحيى الطاهر عبد الله (1938–1981).

لكنّ القاهرة التي منحت الأبنودي شهرة عريضة حرمته أن يواصل الإقامة فيها، إذ تعرّض لأزمات صحية في السنوات الأخيرة، ونصحه الأطباء بالابتعاد عن هواء العاصمة الذي لم يعد ملائمًا لرئتيه العليلتين، فأقام في منزله الريفي القريب من مدينة الإسماعيلية. وأخبرني عند زيارتي له في الإسماعيلية أنه كان يخرج عندما يشعر بالضيق من منزله المتواضع ليسير ويستنشق الهواء ويعود إلى الجلوس على كرسيه الذي يقع خارج المنزل بالقرب من باب فيلته. وحدثني أيضًا عن أنه نقل جانبًا من مكتبته إلى منزله الجديد.

ونعت رئاسة الجمهورية في مصر الأبنودي "الشاعر الوطني"، وقالت في بيان إن "مصر والعالم العربي فقدا شاعرًا عظيمًا وقلمًا أمينًا ومواطنًا غيورًا على وطنه وأمّته العربية. أثرى شعر العامية من خلال أشعاره وأزجاله الوطنية.. وعبّرت عن الوطن في أفراحه وأحزانه وفي انتصاراته وآلامه، وسيظل رمزًا وطنيًا وعربيًا".

لم تكن علاقتي مقتصرة على الأدباء والكتّاب اليمنيين وحدهم، فقد كان لي دومًا علاقات وثيقة بالعديد من الأدباء والكتّاب العرب، مثل محمود درويش، وسعدي يوسف، ونجيب محفوظ، وجمال الغيطاني، ويوسف القعيد، وحسين مروة، وجواد علي، وكريم مروة، ومحمد مهدي الجواهري، وعبد الرحمن الأبنودي، وخالد جلال العظم، ونجاح العطار، وأدونيس، ومحمد الماغوط، وسهيل زكار، وعبد الوهاب البياتي، ومحمود أمين العالم وسواهم.

لكني لم ألتقِ سلطان العويس[1] إلا مرة واحدة في حياتي، والمرة الوحيدة والأخيرة التي تلاقينا فيها شاء حظي وحظه أن

(1) شاعر من الإمارات، وُلد في بلدة الحيرة بإمارة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، عام 1925م. وعُرف سلطان شاعرًا في كثيرٍ من الأوساط الأدبية المشهورة في كل من لبنان وسورية ومصر، وضمّته علاقات صداقة وأدب مع كثير من الشعراء والأدباء المعروفين في العالم العربي. له ديوان شعر مطبوع، وقد تناوله العديد من النقّاد والدارسين وكتبوا عنه، وقد جُمعت هذه الدراسات في كتاب أصدره اتحاد كتّاب أدباء الإمارات بعنوان "سلطان العويس تاجر استهواه الشعر". أوقف جزءًا من أمواله وخصص ريعه لجائزة ثقافية تحمل اسمه،= =وله

يكون لقاءً عابرًا في الفضاء على متن إحدى طائرات الإمارات المتجهة إلى دمشق، حيث التقيت وجهًا لوجه الشاعر والأديب سلطان العويس، وكانت طائرتنا قد أقلعت لتوّها من دبي بعد زيارة قمت بها لدولة الإمارات العربية المتحدة، وبعدما فرغت من افتتاح فرع في مدينة رأس الخيمة للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية الذي أسسته في دمشق عام 1995م.

قبل ذلك، لم أعرف العويس إلا من خلال الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، وعبر أعماله الخيرية والاجتماعية والتعليمية والثقافية التي لم تقتصر على وطنه الإمارات، بل تعدته إلى عدد من البلدان العربية والإسلامية، حيث اقترن اسمه دائمًا بأعمال الخير، وفي السنوات الأخيرة بجائزة العويس التي عرفت طريقها إلى العديد من كبار المفكرين والكتّاب العرب في مختلف المشارب، من دون تحيّز أو حكم مسبق. ومن الذين شملتهم الجائزة أديب وشاعر اليمن الكبير، المرحوم عبد الله البردوني، وعبد العزيز المقالح، ومهدي الجواهري وزكريا تامر.

مساهمات عديدة في مختلف النواحي الإنسانية والخيرية والثقافية على مستوى الوطن العربي. وهذه الجائزة التي تحمل اسمه وتُعَدّ واحدة من أبرز الجوائز في الوطن العربي، جاءت مبادرة منه تعبيرًا عن اهتمامه بالإبداعات الفكرية والأدبية، لتُمنح للعديد من المبدعين العرب في مجالات فكرية وأدبية إبداعية متعددة. وقد تطورت الجائزة التي كانت تحت إشراف اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، إلى مؤسسة ثقافية خاصة مستقلة. توفي في الرابع من يناير/ كانون الثاني 2000م.

أعطى العويس أمته شعرًا ونثرًا، ولم يبخل عليها بالمال. وأعطى الثقافة العربية مؤسسة مستقلة، وجائزة دورية لها قيمتها المادية والمعنوية، ولم يخلّف أولادًا، لكنه خلّف شعرًا ومؤسسة تخلّده.

ها أنا وجهًا لوجه أمام سلطان علي العويس في لقاء رتبته المصادفة في الفضاء على الخطوط الجوية الإماراتية، حيث أجريتُ حوارًا عميقًا في فكر وعقل وضمير رجل الخير والشعر سلطان العويس، وتطرّق حديثي معه إلى اليمن وأحوالها والعديد من الموضوعات الأخرى.

عندما رآني طلب إليّ أن أجلس إلى جانبه.

وعندما قدمت له نفسي قال:

أنت الذي حكموا عليك بالإعدام منذ شهر في اليمن!

قلت له:

لا، ولكنهم حكموا عليّ بالإعدام قبل عشر سنوات!

قال في دهشة:

ومَن الذي حُكم عليه بالإعدام قبل عشرة أيام إذًا؟

قلت:

علي سالم البيض.

قال: والعطاس؟!

قلتُ: سمعتُ عن ذلك.

قال وعلى وجهه النحيل علامة حزن وأسى:

ألم يقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنكم: الإيمان يمان والحكمة يمانية، وإنكم أرقّ قلوبًا وألين أفئدة؟ أين الحكمة اليمانية؟! أين أنتم من هذا الحديث النبوي؟!

قلت له: ما تتحدثون عنه من حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) والحكمة اليمانية صحيح. وحكم الإعدام بحقي أو بحق البيض لا يغيّر من نظرتنا نحو الشعب اليمني العظيم الذي شارك في صنع الحضارات الإنسانية وفي الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، رغم أنني حزين لما جرى ويجري في بلادي السعيدة.

قال: إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربما كان يتحدث عن سكان تهامة، وعن أبي موسى الأشعري، ولا يتحدث عن سكان الجبال، فهم يبدون أشدّ قسوة بحكم طبيعة الجبال.

قلت: قد يكون ما تقوله صحيحًا، ولكن المشكلة لا تكمن في سكان الجبال أو سكان السهول بقدر ما تكمن في الصراع على الحكم والسلطة وصراع إقليمي ودولي على الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به اليمن في البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر العرب والقرن الأفريقي.

وأضفت: ألم يبدأ الصراع على السلطة والخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة في ثقيفة بني ساعدة. ألم يكن أبو موسى الأشعري الرجل الصحابي الجليل مَن خلع الإمام عليًا كرّم الله وجهه لتجنيب المسلمين الحرب والقتال في معركة صفين

والمعارك اللاحقة، عندما خلع الخاتم من يده كما كان اتفاقه مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، الرجل والصحابي الداهية الذي دبّر ذلك المقلب للأشعري، حيث نقض الاتفاق وثبّت صاحبه معاوية في الحكم لتبدأ الفتنة منذ ذلك التاريخ، ولا تزال مستمرة حتى اليوم، ولو بصورة أخرى؟! كذلك قُتل الخلفاء عمر وعثمان وعليّ في الصراع على الخلافة.

قال العويس: فلنترك عليًّا ومعاوية جانبًا، ونتحدث عن رئيسكم علي سالم، وعن القتل والاختطافات للسيّاح والثأر بين القبائل آنذاك.

قلت مصححًا: اسمه علي عبد الله صالح.

قال وهو يضحك: كثرت علينا الأسماء والتبست. علي ناصر وعلي سالم وعلي صالح وعلي عنتر.

وأضاف: أنتم شيعة زيدية لهذا تتسمَّون بعلي كثيرًا.

أفهمته أن الاسم لا علاقة له بالشيعة أو المذاهب أو حتى بالمذهب الزيدي، فهو اسم متداول كغيره من الأسماء.

وقلت له: كان في منطقتنا مودية (أو ما تسمى جمهورية دثينة) أسماء ثلاثة من الحكام، وكلها تبدأ باسم علي.

علي هادي، من آل حسنة – حسني.

علي سليمان، من آل حسنة – حسني.

علي عبد الله الصالحي، من آل المياسر.

قال: الحسني معناه أنكم تنتمون إلى الحسن والحسين، ابني علي بن أبي طالب.

قلت: بل نسبة إلى منطقة يسكنها عدد من القبائل يطلق عليهم آل حسنة.

سكت الشيخ الذي اقترب من السبعين قليلًا ثم سألني:

ماذا تفعل الآن؟ وهل تذهب لزيارة اليمن؟ وهل لك علاقة بعلي صالح؟!

أوضحت له أنني أرأس المركز الذي أنشأته في دمشق "المركز العربي للدراسات الاستراتيجية"، وله فروع في بعض البلدان العربية، منها اليمن، وقلت له إنني أذهب أحيانًا إلى اليمن كلما اقتضت الظروف والضرورة ذلك، ولا توجد تحفظات على عودتي إلى اليمن في أي وقت أشاء وأرتبط بعلاقة صداقة طيبة مع الرئيس علي عبد الله صالح.

قال العويس: لما كان الأمر كذلك، لماذا لا تنصح الرئيس بأن يضرب بيد من حديد على كل من يخلّ بالأمن، لأن ما يجري يسيء إلى الشعب اليمني والرئيس، فاليمن اليوم بحاجة ماسّة إلى حاكم مستبد وعادل!

سكت العويس قليلًا، ثم واصل بعد لحظات:

أنتم بحاجة إلى حاكم مثل ابن سعود، عبد العزيز، الذي أخضع القبائل والعشائر بالسيف، وبنى دولة في شبه الجزيرة المترامية الأطراف، وبعضها في غير أرضه، وأنتم اليمانيين شعب

عظيم وعريق، لكنّ الفوضى الحاصلة الآن في بلادكم ستؤخركم عن الشعوب الأخرى في المنطقة.

وأضاف:

لماذا لا تستفيدون من حكمة الشيخ زايد الذي وهبه الله للإمارات وللعرب وللمسلمين؟

قلت له موافقًا: إنه رجل عظيم وحكيم.

قال: وعادل. ولهذا تنطبق عليه مقولة رسول كسرى عن الخليفة عمر بن الخطاب الذي قال:

حكمت فعدلت فأمنت فنمت. والذي قال إنني بعد عمر طويل سأترك بلدًا بلا ديون وبلا أعداء.

قلت: إنه حكيم العرب وآخر عمالقة القرن العشرين.

قال العويس: حاولوا أن تستفيدوا منه، ومن خيره وخبرته وحكمته.

وتمنينا له معًا طول العمر.

ثم إنني قلت للعويس: الكل ينظر إليك باحترام، مثقفين ومفكرين ومواطنين، ليس بسبب الجائزة التي تمنحها كل عام لعدد منهم فقط، بل لاهتمامك الدائم بالثقافة والمثقفين والمفكرين وبأعمال الخير، جزاكم الله كل خير.

وأضفت: لو كان في المنطقة العربية عشرة من أمثالكم من رجال المال والأعمال يهتمون بالثقافة وبالمفكرين والأدباء العرب، لزاد إنتاجهم واهتمامهم بالفكر والثقافة والأدب.

أجاب: لا، لا يا أخ علي، بل قل لو كان في العرب عشرة من أمثال الشيخ زايد، لتطور الوطن. العربي من المحيط إلى الخليج، ولولا الشيخ زايد لما تحقق هذا الاستقرار، ولما سمح لنا بأن نكرّم المثقفين والمبدعين، فبعض الحكام العرب لا يريدون أن تمنح مثل هذه الجوائز إلا من قبلهم وباسمهم، لا بأسماء الآخرين. العرب محتاجون إلى أكثر من زايد، وليسوا بحاجة إلى أكثر من سلطان العويس.

قلت: أوافقك الرأي، نحن أحوج إلى رجال من أمثال الشيخ زايد الذي أنشأ دولة عصرية في زمن قياسي، وازدهرت في ظله الحركة الثقافية والأدبية، وتحولت الإمارات بفضله إلى دوحة لكل المثقفين والمبدعين العرب، وتتعايش فيها بسلام أكثر من مئتي جنسية.

ضحك العويس وسكت قليلًا قبل أن ينشد بعض الأبيات[1].

أخذت الطائرة تقترب من مطار دمشق الدولي، وحان الوقت لكي نربط الأحزمة، وأن أنتقل إلى مقعدي في الجانب الآخر قريبًا من النافذة.

وعندما هممت بذلك. قال لي: "وين رايح"؟!

قلت: إلى اللقاء في دمشق.

قال: هل تحتاج إلى دعم للمركز العربي؟!

---

(1) **أهديك شعري يا رئيس وخاطري يشكو من الماضي بسوء الحاضر**

قلت له: شكرًا، فأنا يهمني تكريمكم للآخرين المبدعين والمفكرين العرب، وأعتبر أنّ هذا أكبر دعم للمركز.

قال: أنا لا أمزح الآن معك.

أجبته: وأنا أشكرك على هذا العرض. لقد استمتعت كثيرًا بالحديث معكم.

وأصرّ العويس على أن أجلس إلى جانبه حتى نغادر الطائرة، وكان آخر ما قاله لي قبل الوداع:

لأول مرة أعرض مساعدة على أحد ويرفض عرضي.

قلت له:

وأنا لأول مرة يعرض عليّ تقديم دعم للمركز، فأنت تذكرني بزايد في كرمه وحبه للآخرين ودعمه من دون اللجوء إلى طلبه، ولهذا فإنني أعتبر أن العلاقة والصداقة معكم أهمّ من المال.

وقبل الوداع أهداني ديوانه، وعليه إهداؤه وأبيات من الشعر، فشكرت له هديته القيّمة وودعته عند باب الطائرة، حيث كان في استقباله سفير الإمارات في سورية علي سيف، ولم أكن أعلم أنّ ذلك سيكون اللقاء الأول والأخير معه.

رحم الله سلطان العويس وعوّض الأدباء والكتّاب بأمثاله.

الفصل الرابع

الرؤساء والسياسيون

حزيران

شهر الأحزان والأحداث الجسام

غاب فيه عن السلطة الرؤساء الأربعة في اليمن قحطان الشعبي، عبد الرحمن الإرياني، سالم ربيع علي وأحمد حسين الغشمي.

يرتبط شهر حزيران في ذاكرتنا بالحزن. جرح لم يلتئم منذ أكثر من خمسين عامًا، جرح "النكسة" التي كسرت شيئًا داخلنا. مع اغتصاب أراضينا العربية في فلسطين والجولان وسيناء... شهر شهد عددًا من الأحداث والتغييرات في اليمن، كالانقلاب على الرئيس قحطان الشعبي في حزيران عام 1969م، والانقلاب على الرئيس القاضي عبد الرحمن الإرياني 1974م. كذلك شهد حزيران 1978م استشهاد ومقتل الرئيسين اليمنيين سالم ربيع علي في عدن، وأحمد حسين الغشمي في صنعاء.

ومن أكثر ذكرياته مرارة بالنسبة إليّ شخصيًا، رحيل الصديق الوفي والقائد الخالد الرئيس حافظ الأسد رحمه الله في العاشر من حزيران عام 2000م، الذي قاد العمليات العسكرية ضد القوات الإسرائيلية في عام 1967م، وكان يومها وزيرًا للدفاع، ورفع العلم العربي السوري على أراضي القنيطرة

المحررة في تشرين الأول/ أكتوبر 1973م، وهو رئيس للجمهورية.

وبمناسبة الذكرى الأربعين لحرب حزيران، أودّ أن أتوقف قليلًا عند العوامل العسكرية للهزيمة - بغضّ النظر عن عواملها السياسية – فقد ذهب عدد من الساسة والمؤرخين إلى ربط هزيمة الجيش المصري في حربه مع إسرائيل بتورطه في جبال اليمن الوعرة وخسائره فيها، التي قُدِّرت بأكثر من 17000 شهيد، إضافة إلى انشغال وحدات فاعلة منه بعيدًا عن معركته مع إسرائيل.

وهذا الأمر – في رأيي – غير دقيق، إذ لم يكن في اليمن آنذاك أكثر من عشرين ألف مقاتل مصري، وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد سحب أضعاف هذا العدد في فترات سابقة، في إطار الاستعداد للحرب مع إسرائيل، ولا يعقل أن يكون هذا العدد المحدود قد أثّر في مجرى الحرب، خاصة مع تأكيد العديد من العسكريين والاستراتيجيين أن الهزيمة المصرية قد تسللت عبر "ثغرة" ضعف الإدارة والقيادة وإخفاق خططها المتعلقة باحتواء هجوم العدو وسوء تقديرها لقوته وإمكاناته. فضلًا عن أسباب أخرى متعلقة ببنية المؤسسة الحاكمة في مصر، وبالخلافات بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر.

ثمة من يذهب إلى أنه لو زُجَّ بالقوات الباقية في اليمن، في معارك سيناء، لانقلب ميزان المواجهة لمصلحة مصر. وهو قول يمكن الرد عليه بأنّ القوات المصرية البرية لم تستطع القتال أصلًا، لافتقارها إلى غطاء جوي لها في صحراء سيناء، عقب ضرب الطائرات المصرية وهي جاثمة في مدارجها.

والرد المفحم على مَن يعلّقون هزيمة حزيران على شماعة وجود القوات المصرية في اليمن، أقدمه لكم بكلمات الرئيس جمال عبد الناصر نفسه، في تقييمه لأسباب تلك الهزيمة، الذي نشرته مجلة (آخر ساعة) المصرية في عددها الـ (3319) الصادر بتاريخ (1968/5/3)، وهو تقييم حقيقي ورؤية واضحة للشاهد الأول في الموقع الأهم من المسؤولية، وهو لا يذكر فيه وجود القوات المصرية في اليمن بين النقاط الست الأساسية التي حددها، رحمه الله، أسبابًا للهزيمة، وهي:

1- الثقة الزائدة بالنفس إلى حد الغرور، وفي تعبيره الحرفي "ورحنا نتكلم ونتكلم حتى صدقنا أننا نستطيع أن نتصدى لإسرائيل وأمريكا، ولم يكن الجيش بالكفاءة التي نقدرها"، وباسم الأمن جلس أناس في غير مقاعدهم، للأسف لم يُستفد من دروس سنة 1956م، ولا من دروس الانفصال، وهذا يفسّر بقاء صدقي محمود قائدًا للطيران 11 سنة بعد السويس!

2- عدم أخذ الأمور بجدية، نتيجة نقص المعلومات، ويقول عبد الناصر: "وأنا شخصيًا حذرت صدقي محمود، قائد الطيران، وقلت له في آخر اجتماع حضرته برئاسة هيئة أركان الحرب: إنّ الهجوم سيحصل يوم الاثنين، وإنّ الضربة الأولى ستكون ضد الطيران، وأنا في هذا لم أكن متنبئًا، أنا كنت أحسب حسابًا، ومقدرًا أنّ ذلك سيحدث!".

ويضيف: "وكلمتهم يوم الجمعة 2 يونيو على أساس أنّ الضربة قادمة يوم الاثنين 5 يونيو، ويوم السبت قام الطيران بمظلة جوية للإنذار المبكر والاشتباك، ويوم الأحد حدث الأمر ذاته وخرجت مظلة جوية، ويوم الاثنين لم تكن هناك مظلة جوية، وفوجئنا بالطائرات الإسرائيلية فوق مطاراتنا دون أن يشعر بها أحد!".

"وهذا موضوع نحقق فيه [والكلام ما زال للرئيس عبد الناصر] عندما قابلني نائب قائد الدفاع الجوي السوفييتي، ومعه صدقي محمود قبل الأزمة بوقت طويل، قال لي إنّ خطة الدفاع التي رآها على الورق وعلى الطبيعة معقولة جدًا، وإنه وخبراءه لاحظوا وجود ثغرات فيها، وقد أخطر بذلك صدقي محمود، وتمّ الاتفاق على عمل تكملة، ولكن هذا لم يحدث كما يظهر لي الآن، فدفاعنا الجوي أصيب بالشلل. لماذا وكيف؟".

3- كان لدى القيادة العسكرية المصرية تصور محدد، ولم يكونوا مستعدين لقبول أي شيء يختلف عنه. وعلى سبيل المثال، فقد سألهم الرئيس عبد الناصر في اجتماع يوم الجمعة 2 يونيو: "على أيّ أساس تقولون إنّ إسرائيل لديها خمسة ألوية، بينما الروس - ولديهم كل إمكانات المعلومات - يقولون إنّ عندها تسعة...؟".

وكان ردّ عبد الحكيم عامر وعدد من القادة أنّ معلومات السوفييت "مبالغ فيها، وهم يهوّلون لكي يخيفونا، فلا ندخل المعركة"، وكانوا يعتقدون أن الروس قد حسبوا الدبابات الإسرائيلية القديمة من طراز شيرمان التي لم تعد صالحة للعمل، وكان هذا كله ضمن عوارض الثقة الزائدة بالنفس، وسوء تقدير إمكانات العدو!

على كلٍّ، فالسوفييت لم يشجعوا المصريين يومها على بدء المعركة مع إسرائيل، ففي 20 مايو 1967م، التقى رئيس الوزراء السوفييتي ألكسي كوسجين، وزير الدفاع المصري شمس بدران، الذي طلب موافقة السوفييت على توجيه ضربة احترازية ضد إسرائيل تسبق ضربتها لسورية، ورفض كوسجين الذي اعتبر أنّ توجيه مصر ضربة عسكرية إلى إسرائيل سيجعلها "معتدية"، والسوفييت - حسب سياستهم الخارجية - لا يدعمون المعتدين، وقال لشمس بدران الذي عاد بعد ذلك إلى القاهرة بخفَّي حنين: "لن تسمح الولايات المتحدة للعرب

بإلحاق الهزيمة بإسرائيل، فهل تريدون جّرنا إلى حرب مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية؟".

4- هذه الثقة الزائدة بالنفس للقيادة المصرية حكمت خططها العسكرية، فقد تحدث عبد الناصر عن دهشته بأنه لم تكن في تلك الخطط دفاعات وراء العريش، ولذلك فحين تمكنت القوات الإسرائيلية من دخول العريش، لم يحدث قتال وراءها في القطاع الشمالي، وإنّما اندفعت المدرعات الإسرائيلية على طريق أسفلت جديد بناه المصريون بين العريش والقنطرة، ووصلت دون قتال إلى شاطئ قناة السويس!

5- ثم يتحدث عبد الناصر باستياء عمّا سماه "الأوهام" حين يقول: "أنا قلت للقيادة من البداية إننا حاندخل معركة دفاعية، وهي تتفق مع خططنا التي كانت موجودة، مع إمكاناتنا المتوافرة. ولا أعرف منين ركبتهم حكاية أنهم لازم يبدأوا الهجوم، بينما هو أمر مستحيل من الناحية السياسية".

6 – أخيرًا، كان عبد الناصر مذهولًا بما حدث للقيادة العامة بعد ضربة الطيران، ووصفها بتعبيره الحرفي: "مثل واحد حصل له انفجار في المخ وأصاب الشلل جسمه كله".

بعد الهزيمة بحوالى شهرين، عُقد مؤتمر القمة العربية في الخرطوم في آب/ أغسطس 1967م، وشكلت الهزيمة في الحرب

ضاغطًا على مصر للشروع في سحب بقية قواتها من اليمن دون إبطاء، وشكلت لجنة برئاسة محمد أحمد محجوب، رئيس وزراء السودان، شاركت فيها كل من مصر والسعودية وبعض الشخصيات اليمنية، واتُّفق في الاجتماع الذي عُقد في أركويت، شرقيّ السودان، بتاريخ 29 أكتوبر 1967م على وقف إطلاق النار وأعمال العنف، والتمهيد لعقد مؤتمر وطني يمني في مدينة يمنية، غير أن الأسابيع اللاحقة شهدت عملية انسحاب القوات المصرية العاملة في اليمن في نهاية 1967م. وبعد أسبوعين من حرب حزيران 1967م، قام الثوار في عدن – في ردّ فعل على النكسة، وتأييدًا ووفاءً لمصر وشعب مصر وللزعيم جمال عبد الناصر – بانتفاضة وتوجيه ضربة عسكرية إلى قوات الاحتلال البريطاني في حيّ كريتر، وقُتل وجُرح عدد كبير من جنوده، وسيطروا على حيّ كريتر، قلب مستعمرة عدن، ولم يهدأوا إلا بالنصر وجلاء القوات البريطانية عن عدن في نوفمبر 1967م.

وأريد هنا أن أسجل شهادة للتاريخ، أنّ مصر دفعت غاليًا ثمن مواقفها القومية في مواجهة الاستعمار والأحلاف والقواعد العسكرية، ودعمها لحركات التحرر الوطنية، وأنّ الوجود المصري في اليمن قد أسهم – إلى جانب مشاركتهم في الحرب – في خلق نواة الإدارة الأولى في اليمن، وأسهم أيضًا في انتشار التعليم الإعدادي والثانوي بمناهجه الجديدة، إضافة إلى

بناء المشافي وإدارتها، وكانت اليمن تحتاج إلى هذا العمل التحديثي والحضاري الذي لا يقلّ أهمية عن المجهود الحربي.

أهم ما نتج من قمة الخرطوم، لاءاتها الثلاث (لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف). وللأسف، حلّ محلها اليوم (نعم للصلح، نعم للتفاوض، نعم للاعتراف)، في غياب الزعامات العربية التاريخية، كالرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل بن عبد العزيز والرئيس هواري بومدين والمشير عبد الله السلال وغيرهم من القيادات العربية التي شاركت في تلك القمة، حيث "هرولت" بعض الأنظمة العربية لتقديم التنازلات والمبادرات، في الوقت الذي لم تقدّم إسرائيل فيه أي محاولة أو مبادرة لإيجاد تسوية شاملة وعادلة لإحلال السلام في المنطقة.

وهل يكون السلام دون حل عادل وشامل؟ دون استعادة أراضينا في فلسطين والجولان ومزارع شبعا؟

أهم ما نتمناه في الذكرى الأربعين للنكسة، هو أن نكون قد تعلمنا من أخطائنا، عرفنا من دروسها مكامن ضعفنا ومواطن قوتنا...

أذكر أن الرئيس حافظ الأسد رحمه الله أكّد لي مرارًا أنه لن يتنازل عن شبر واحد من الجولان، وأنه سيستعيدها مهما طال الزمن وغلا الثمن، وفي سعيه للسلام الحقيقي العادل والشامل، لم يكن مستعدًا للمساومة على أي أرض عربية.

وأتذكر دائمًا عبارته: "حاربنا الصليبيين-وكانوا قوة زمنهم الضاربة -مئتي عام، وانتصرنا في النهاية "...

كان رحمه الله محقًا، ألم تقدم المقاومة اللبنانية للعالم أعظم مثال على ذلك، في الهزيمة السياسية والنفسية والعسكرية التي ألحقتها بالقوات الإسرائيلية في عامي 2000 و2006؟

أتفق معه، لأن إيماننا الصادق بحقوقنا، هو السلاح الأهم الذي ندافع به عن وجودنا وحدودنا وهو الذي يحدد نتيجة المعركة، مهما طال زمنها وفدحت خسائرها.

المناضل قحطان الشعبي

وُلد المناضل قحطان محمد الشعبي في وادي شعب، أحد أودية مدينة طور الباحة، عاصمة إقليم الصبيحة، عام 1923م، ولم يرَ أباه قطّ، فقد وُلد يتيمًا، حيث توفي والده قبل أشهر من ولادته.

كفله بالرعاية قريبه الشيخ عبد اللطيف عبد القوي الشعبي، شيخ "وادي شعب"، وهو والد الشهيد المناضل فيصل. وقحطان ثالث أخويه، حيث يكبره شقيقان، هما سعيد، وقد توفي في سنّ الشباب وقبل انطلاق ثورة 14 أكتوبر بسنوات كثيرة، ومريم وقد توفيت في ثمانينيات القرن الماضي بعد رحيل قحطان عن الدنيا.

في البداية، تعلّم قحطان في وادي شعب القراءة والكتابة، وحفظ أجزاءً من القرآن الكريم، وعندما كبر قليلًا أنزله الشيخ عبد اللطيف إلى عدن وألحقه بالدراسة في "مدرسة جبل حديد" التي كانت تُعرَف أيضًا بـ"مدرسة أولاد الأمراء"، وأحيانًا تُعرَف بـ"مدرسة أبناء الشيوخ"، لوجود عدد من أبناء السلاطين وأهمّ الشيوخ الذين يدرسون فيها، وهذه المدرسة أشهر مدرسة في تاريخ عدن حتى اليوم، ولا تزال معالم المدرسة قائمة.

في أوائل الأربعينيات من القرن المنصرم، توجّه قحطان في بعثة دراسية إلى السودان، وكان التعليم الجامعي هناك متطورًا لوقوعه تحت إشراف السلطات البريطانية، حيث كان السودان يرزح حينئذٍ تحت الاحتلال البريطاني، وأكمل قحطان تعليمه بتخرجه مهندسًا زراعيًا في كلية الزراعة في جامعة جوردن بالخرطوم.

مارس العمل السياسي وهو في سنّ الشباب عندما كان طالبًا جامعيًا في السودان، فقاد المظاهرات ووزّع المنشورات المعادية للاحتلال البريطاني للسودان، وتعرّض جراء ذلك للاعتقال والضرب مرارًا.

بعد تخرجه عاد إلى عدن ومارس العمل في مجاله، مهندسًا زراعيًا، وعمل لفترة مديرًا للزراعة (وزيرًا للزراعة) في أبين، وفي بداية الخمسينيات من القرن الفائت انتقل للعمل في المنطقة الشرقية من الجنوب، أي حضرموت، حيث عمل ناظرًا للزراعة (أي وزيرًا للزراعة) لسلطنتي حضرموت، القعيطية والكثيرية. وفي أواسط الخمسينيات عاد إلى ما كان يُعرَف بسلطنة لحج المجاورة لإقليم الصبيحة، السلطنة العبدلية، حيث عمل قحطان مديرًا للزراعة (أي وزيرًا للزراعة بالسلطنة).

في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين أصبح قحطان الشعبي واحدًا من مؤسسي "رابطة أبناء الجنوب" التي اعتُبرت

حينئذ حزبًا تقدميًا ووحدويًا، فقد كانت تطالب باستقلال الجنوب ووحدته.

مع ازدياد النشاط السياسي لقحطان كقيادي رابطي مناهض للاستعمار، دخلت القوات البريطانية في عام 1958م إلى "الحوطة" عاصمة سلطنة لحج لاعتقاله، ولحسن الحظ كان حينها موجودًا في عدن، فاتجه إلى منطقة "الوهط " القريبة من "الحوطة"، ونزل لساعات عند أصدقاء حميمين له، ومن ثم غادر إلى تعز، ومن تعز اتجه إلى القاهرة طالبًا اللجوء السياسي.

أسّس المناضل فيصل الشعبي فرع حركة القوميين العرب في اليمن عام 1956م، عندما كان طالبًا بالمرحلة الثانوية في مصر، وانضمّ قحطان وآخرون سرًّا إلى الحركة. وفي عام 1960م استقال قحطان وزملاؤه من الرابطة، وبينهم سيف الضالعي، علي أحمد السلامي، طه مقبل، سالم زين محمد، علي محمد الشعبي، أحمد عبده جبلي، وعبد الكريم سروري وعبد الله باذيب وغيرهم.

في أكتوبر 1959 وضع قحطان وفيصل كتيّبًا باسم حركة القوميين العرب بعنوان "اتحاد الإمارات المزيف مؤامرة على الوحدة العربية"، وهو يُعتبَر أهم وثيقة سياسية وطنية خلال مرحلة الاحتلال البريطاني لجنوب اليمن، وفي هذا الكتيّب ظهرت أول دعوة إلى انتهاج الكفاح المسلح وسيلة لتحرير الجنوب.

في مايو 1962م صدر لقحطان كتابه الشهير "الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن" (وهو أهمّ مرجع للباحثين عن حقيقة أوضاع جنوب اليمن في زمن الاحتلال البريطاني)، وكرّر فيه دعوته القديمة إلى إقامة الجبهة القومية على مستوى جنوب اليمن وشماله لتعمل على إقامة نظام جمهوري في الشمال اليمني، ومن ثم الانطلاق لتحرير الجنوب اليمني من الاستعمار البريطاني، وهذا الكتاب نُشر قبل 26 سبتمبر 1962م بنحو أربعة أشهر، وعقب 26 سبتمبر 1962م انتقل قحطان من القاهرة إلى صنعاء، وعُيِّن مستشارًا للرئيس عبد الله السلال لشؤون الجنوب المحتل.

في فبراير 1963م ترأس اجتماعًا لعدد كبير من أبناء الجنوب الأحرار الموجودين في الشمال، وأعقب ذلك بيان بقيام جبهة لتحرير جنوب اليمن المحتل، وهي التي أصبح اسمها لاحقًا الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، والتي أصبح قحطان أمينًا عامًا لها، وظلّ في هذا الموقع حتى تحقق الاستقلال في 30 نوفمبر 1967م، وظلّ فيه وهو رئيس لدولة الاستقلال (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية) حتى استقالته في 22 يونيو 1969. وفي أثناء حرب التحرير مثّل الجبهة القومية في كثير من المؤتمرات والزيارات لدول عربية وغير عربية من المؤيدة لحركات التحرر الوطني، وكانت الجبهة قد تشكلت من عدد

من المنظمات السرية في الجنوب، أهمّها فرع حركة القوميين العرب بقيادة فيصل عبد اللطيف.

في 13 أكتوبر 1963 هاجمت قوات الحكومة الاتحاد الفدرالي للجنوب مجموعة من مشيخة القطيبي بردفان، وقُتل في الهجوم الاتحادي اثنان من أهل ردفان (أحدهما الشيخ راجح بن غالب لبوزة العائد من الشمال)، وأُصيب أربعة.

وفي مساء اليوم التالي، 14 أكتوبر، وصلت أنباء المعركة إلى قيادة الجبهة القومية الموجودة في شمال اليمن (قحطان الشعبي ونائبه في مكتب الجنوب ناصر السقاف)، فكتب الشعبي من فوره بيانًا باسم الجبهة يعلن ثورة تحرير الجنوب ابتداءً من 14 أكتوبر 1963، وأوصل السقاف البيان إلى إذاعات مصر واليمن، فلم تبثّه بسبب عدم علمها والتنسيق معها.

كتب الشعبي في 18 أكتوبر بيانًا آخر باسم الجبهة يحمّس أبناء الجنوب، وبخاصة أبناء ردفان، لمقاومة الاحتلال البريطاني وحكومة الاتحاد، ولم يحدد فيه يوم بدء الثورة، لكنه بشّر بقرب حدوثها، وبعد مماطلات، وافقت السلطات المصرية، على مضض، على بثّه من إذاعات مصر واليمن، فبُثّ في 26 أكتوبر! وكان الهدوء قد ساد ردفان، فأشعل بيان الجبهة الفتيل، فاندلعت انتفاضة قبلية في ردفان على القوات البريطانية والاتحادية، ووفّر قحطان الدعم بجميع أشكاله للمقاتلين

هناك، وجعل من ردفان أول جبهة قتال في ثورة التحرير، وعيّن لها قائدًا من دثينة، هو عبد الله المجعلي.

وأنا تعرفت إليه لأول مرة من كتابه **الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن المحتل،** وكان إلزاميًّا علينا نحن أعضاء حركة القوميين العرب، والجبهة لاحقًا، قراءة هذا الكتاب كمادة تثقيفية كغيره من كتب حركة القوميين العرب، وكتب ساطع الحصري، كما كنت أتابع أخباره قبل ثورة 26 سبتمبر، وبعدها عُيّن مستشارًا لشؤون الجنوب في صنعاء، وكان ذلك يُعَدّ دعمًا لقضية الجنوب ولحركة القوميين العرب وللجبهة القومية بعدها. وبعد قيام ثورة الرابع عشر من أكتوبر عام 1963م التقيته لأول مرة وجهًا لوجه في تعز بهندامه المرتب وهيبته القيادية، باعتباره القائد للجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل. وفي عام 1965م التقيته، وطلب منّا المشاركة في وفد الجبهة القومية لحضور مؤتمر القوى الوطنية في الجامعة العربية بمقرها في القاهرة، واختير وفد "الذئاب الحمر"[1] كما كانوا يطلقون على الثوار في تلك الأيام من مختلف جبهات القتال: ردفان،

(1) كان الوفد برئاسة الرئيس التنفيذي للجبهة القومية قحطان الشعبي، وعضوية عبد الله الخامري، عبد الملك إسماعيل، محمد أحمد البيشي، سالم ربيع علي، عبد الله مطلق، عبد الكريم الذيباني، عبد الله المجعلي، بالليل بن راجح لبوزة، الشيخ محمد صالح الأزرقي، الشيخ علي عبد الله العريفي، الشيخ فضل محمد هرهرة، بخيت مليط، قاسم الزومحي، الشيخ المحرابي، محمد سالم عكوش، سالم علي الكندي، هاشم عمر إسماعيل وعلي الهلالي وآخرين وكاتب هذه المذكرات.

الضالع، المنطقة الوسطى، الحواشب، الصبيحة، يافع، بيحان، حالمين، العوالق، وعدن.

وبعد هذا المؤتمر نُظمت لنا دورة في مدرسة الصاعقة بأنشاص في القاهرة مع بعض الرفاق من جبهات القتال. وكنا في الإجازة نزور بين حين وآخر المناضل قحطان الشعبي في منزله، وكان يحرص على أن يشرف ويقدّم الأكل لضيوفه بنفسه.

كان المناضل قحطان يتنقل بين القاهرة وتعز وبعض العواصم العربية لمتابعة نشاط الجبهة القومية التي فتحت لها مكتبًا في تعز بعد زيارة الرئيس جمال عبد الناصر لتعز عام 1964م، عندما أعلن منها أنّ على الاستعمار البريطاني أن يحمل عصاه ويرحل عن عدن. وفعلًا، رحل الاستعمار بعد أن فتحت جبهات القتال في معظم المحميات، وفي المقدمة عدن، روح الثورة وقلبها النابض، وتُوِّج هذا النضال بالاستقلال في 30 نوفمبر 1967م، ونالت جمهورية اليمن الجنوبية استقلالها برئاسة المناضل قحطان الشعبي الذي شهدت فترة حكمه سلسلة من الصراعات، وأهمها حركة 20 مارس التي قادها الجيش، وحركة 14 مايو التي قادتها مجموعة ممّا سُمِّي "أغلبية القيادة العامة للجبهة القومية"، إضافة إلى ما سُمِّي حينها "صراع اليمين واليسار" الذي كان ينظر إليه نايف حواتمة، إضافة إلى المشاكل الاقتصادية والمالية بعد تخلي البريطانيين عن التزاماتهم المالية التي وعدوا بها، وهي 60 مليون جنيه إسترليني. كذلك تأثر

ميناء عدن بإغلاق قناة السويس بعد نكسة حزيران 1967، والبطالة التي شهدتها عدن بعد انسحاب القوات البريطانية من عدن، ثم بعد ذلك التمردات في ردفان والعوالق من قبل ما كانت تسمى "الجبهة الوطنية"، ولكنه استطاع تجاوز كل هذه الصعوبات. غير أنّ المشكلة الكبرى كانت مع رفاقه في الجبهة القومية في 22 يونيو 1969م، ففضل الاستقالة هو وفيصل عبد اللطيف الشعبي وبعض الوزراء المحسوبين عليه. وهذا كان أول انقسام في قيادة الجبهة القومية والدولة.

يجب أن نعترف بعد هذا التاريخ بأنّ المناضل قحطان الشعبي قد ظُلم هو ومن معه، فقد كانوا يمثلون خيرة الكفاءات في بداية إقامة الدولة، وهم الذين قال عنهم وزير المستعمرات، شاكلتون، بأنهم رجال من عيار ثقيل.

سالم ربيع علي

وُلد الرئيس سالم ربيع علي في زنجبار، ودرس فيها، وانتقل بعد ذلك إلى المكلا، واشترك في دورة تدريبية في الإدارة، وقد عمل في إدارة المالية في أبين، ثم حاكمًا عرفيًا في الوضيع، والتحق بحركة القوميين العرب بداية الستينيات مع رفيقه في النضال ناصر صدح وحسين عبد الله ناجي وجاعم صالح وغيرهم من الشباب، وكان عضوًا نشطًا في الحركة، واستحق أن يكون مسؤولًا لفرع الحركة في ما كانت تُسمى "السلطنة الفضلية".

شاهدته أول مرة في زنجبار بالقرب من قريته "المحل"، وهو يركض نحو السيارة الخاصة بعمر وعبد الله البطاني التي كانت في طريقها إلى عدن ليلتحق بنا وبها ويتسلق ظهرها، وقميصه كان لا يزال مفتوحًا، لأنه كان يخشى أن تفوته السيارة، وبعد أن استقرّ على سطحها، فإذا به يغلق الأزرار. وكان عبد الله البطاني يعرفه ويعرف أسرته، وكان يمزح معه ونحن في الطريق، بينما كان كل منّا يتمسك بالحديد، فهذه السيارات لشحن البضائع والمواشي والأعلاف، ولكن حاجة الناس اليها تتطلب ركوبها والوقوف والتمسك بجسمها، سواء كان حديدًا أو خشبًا، وسعيد الحظ من يركب في المقدمة إلى جانب السائق،

وذلك قبل دخول سيارات اللاند روفر واللاند كروزر المريحة. ولم أصدق أن ذلك الشخص الذي كان يركض خلف السيارة سيأتي يوم ويركض ويهتف باسمه الآلاف بعد أن أصبح في السلطة! كما التقينا أكثر من مرة بعد ذلك في عدن بعد أن أصبحنا في خلية قيادية يشارك فيها المسؤولون في حركة القوميين العرب ممثلين للمحميات.

وبعد ذلك التقينا في تعز بعد أن طُلب منه الانتقال إليها والالتحاق بجبهات القتال، واختير حينها عضوًا في قيادة الجبهة الوسطى (دثينة والعواذل والفضلي)، وهنا تعززت العلاقات الشخصية والأخوية بيننا.

وأتذكر أنّ السيدة خزانة، والدة المناضل سالمين، قد جاءت إلى تعز وهي تحمل رسالة معلومات هامة من بعض القياديين في عدن وأبين عن بعض العملاء الذين يتآمرون على الثورة والثوار في الجنوب، وقد قابلتها صدفة وتعرفت إليها، وكانت تسأل عن ابنها سالم ربيع علي، وأخذتها إلى المنزل الذي كنّا نسكن فيه، وسألتها عن أخبارها وأخبار البلد وما الذي جاء بها، فأجابت: "لديّ معلومات، ولكنني قلتُ للمسؤولين إنني سأسافر إلى تعز لزيارة ابني"، وأضافت: "لا أخفي عليك أنني كلما وضعت ولدًا، مات، ونذرت لأحمد بن علوان أنه إذا عاش "سالم"، فسأنذر له زيارة من أجل أن ربي يحفظ ابني".

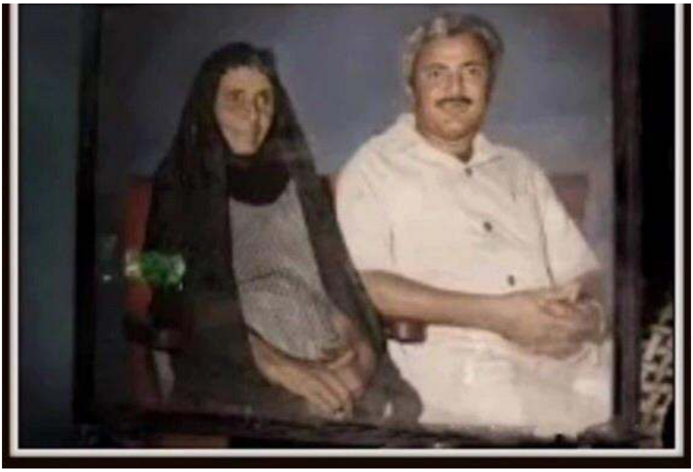

سالم ربيع علي مع والدته

كان سالمين قد تأخر، وسألتُ عنه وقيل لي إنه دخل سينما شعبية في تعز، فذهبنا إليها، وتوجهتُ نحو الموظفين الذين يشرفون على آلة عرض السينما، وطلبتُ منهم أن يوجهوا نداءً إلى سالم ربيع علي أن يخرج فورًا، وبالفعل قطع مواصلة الفيلم وخرج، وكنا وجهًا لوجه عند باب السينما، وكان منزعجًا، وسألني: ما الذي جرى؟ فقلت له: خيرًا يا ابن خزانة ويا نذر ابن علوان، فضحك وقال: أمي وصلت. وانتقلنا إليها، وقال لها مازحًا: "فضحتيني"، فقالت: "شو فضحتك لولا هذا النذر ما عشت، وخلينا نتحرك لزيارة أحمد بن علوان ونشتري كبش أسود وديك أسود وهدية للمناصيب الذين يشرفون على رعاية الولي وزواره"، وفي اليوم الثاني توجهوا إلى ضريح الشيخ أحمد ابن علوان الذي يقع خارج تعز، وقدموا "النذر"، وقد أصرّت الوالدة على أن تضع ترابًا على رأسه من قبر الشيخ أحمد بن

علوان ليحفظه من أيّ شر! والناس يتباركون به وينذرون له بحضرة مجلس ذكر وطعام، أو بمولد النبي وإطعام الفقراء، أو بترميم المسجد أو القبة، أو بزيارته كما فعلت والدة المناضل سالمين.

وجمعنا بعد ذلك وفد الجبهة القومية إلى مؤتمر القوى الوطنية في القاهرة. ولم تنقطع اتصالاتنا طوال حرب التحرير عندما كان مسؤولًا قياديًا بارزًا في جبهة عدن، واشتهر حينها باسم سالمين، وهو الاسم الحركي له الذي استمر معه حتى بعد أن أصبح رئيسًا في 22 يونيو عام 1969م.

انتقلت الرئاسة إلى سالمين، وكنتُ متأكدًا حينها أنه لم يكن يريد أن يصبح رئيسًا للبلاد عشية نجاح حركة 22 يونيو 1969م، بل لم يكن موجودًا عندما اجتمعت "القيادة العامة" للجبهة القومية وانتخبته رئيسًا لمجلس الرئاسة. فقد رُشّح محمد صالح عولقي رئيسًا لمجلس الرئاسة، وسالم ربيع علي وزيرًا للدفاع، وقد عارض البعض هذه المقترحات، ونجح ترشيح ربيع رئيسًا للدولة.

بدأ "سالم ربيع" حكمه بداية جيدة، وبرز بسرعة زعيمًا شعبيًا، قريبًا إلى قلوب الناس، يتحرك بسيارته في حراسة لا يزيد أفرادها على عدد أصابع اليد الواحدة، وينزل إلى أوساط الجماهير في المدن والقرى والأرياف يتحسّس همومها اليومية ويتابع قضاياها ويحلّ على الطبيعة مشاكلها، ما عزّز صدقيته لدى الشارع.

كان على نقيض الرئيس قحطان الشعبي، الذي كان يتحرك في مواكب رسمية من الرئاسة كغيره من الرؤساء العرب. على عكسه، لم يكن الرئيس سالم ربيع علي يمكث في مكتبه الرئاسي إلا نادرًا، وكان يفضل الزيارات الميدانية، ليلًا ونهارًا، على العمل المكتبي، وكان يقوم بها بلا مواعيد أو مقدمات، ليفاجئ بها مسؤولي تلك المؤسسات.

كان سالم ربيع يفضل النوم بعد الظهر، ويصحو مساءً، ويبدأ بتفقد وزيارة من خطر بباله من المسؤولين والأصدقاء في العاصمة عدن، وكثيرًا ما كان يذهب إلى أبين أو لحج القريبتين من العاصمة لتفقّد المزارع والأبقار وثلاجات الأسماك. وبسبب هذه العادة، لم يكن ينضبط بمواعيد، ولم يكن في وسع مدير مراسم الرئاسة أن يخطط لتحركاته، بل لم يكن يلتقيه إلا عند زيارة وفد من الخارج، أو يوم العيد، حيث يخرج للصلاة مع المواطنين. وغالبًا ما كان ذلك في مسجد الهاشمي أو مسجد النور في مدينة الشيخ عثمان.

عاش ربيع في منزل متواضع بالمدينة البيضاء، إحدى أحياء خورمكسر التي كان يقطنها الضباط البريطانيون. ثم انتقل إلى منزل آخر في مدينة التواهي. ومن هذا المنزل انتقل إلى منزل بالقرب من وزارة الدفاع في التواهي. وفيما بعد خُصِّص له جناح في "دار الرئاسة" الذي لم يكن يدخله إلا للنوم!! وكان هذا الجناح المتواضع مقرًا للمندوب السامي، تزين أرضيته

قطيفة حمراء لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار. وفي وسطه منضدة متواضعة وبعض الكراسي المتناثرة حولها.

لم يعرف مكتب المندوب السامي السجاد الفاخر، والقاعة الكبيرة المخصصة للضيافات بالقرب من مكتبه، لم يكن فيها سوى "بيانو"، وسيفين من هدايا السلاطين المتواضعة.

يبدو لي أنّ سالمين، بحكم نشأته الدينية، كان متأثرًا إلى حدٍّ ما بشخصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، مع الفارق في الزمان والمكان. كذلك فإن سالمين، بفعل شخصيته المتواضعة وشعبيته الواسعة وانشغاله الكامل بهموم الجماهير اليومية ومشاغلها ومعيشتها، لم يتمكن من إعطاء الوقت الكافي لاختيار الكفاءات في إدارة المشاريع، وركز على اختيار بعض المناضلين الذين لا يمتلكون الخبرة والكفاءة، فبرز الكثير من الارتباكات التي صاحبت تجربته الرئاسية.

كل ذلك خلق بطانة أحاطت بالرئيس، وبدأت باستغلال وضعها بنحو سيّئ، ومارست - بكل أسف - تقديسًا للرجل، على غرار ستالين وماوتسي تونغ، أساء إليه أكثر مما أفاده، حيث بدأوا بإطلاق اسمه على المدارس والمزارع والآبار، ونظموا فيه الشعارات والهتافات والأناشيد، وأخذوا بتعميمها يوميًا في كل أجهزة الإعلام. وأتذكر أنه قال لعلي شايع الذي انتقده لاحقًا: "أنا لم أطلب من أحد أن يكتب لي مثل هذه الشعارات أو الهتافات". وكان من أكثر الناس الذين يكتبون تلك الأناشيد

ويرددونها، قيادات وسطى، من أمثال حسن باعوم وعلي شايع وأحمد مساعد حسين وصالح منصر السييلي، الذين سرعان ما أصبحوا من قيادات الصف الأول.

تسعة أعوام كاملة، بين 1969م و1978م، حكم خلالها سالم ربيع علي اليمن الديمقراطية، ولم يكن أحد من المخططين لإزاحته يتصور أنه سيصبح لقمة سائغة وسهلة، بل كان يبدو عصيًّا عسير الهضم. لكنه أخيرًا خرج وأُعدم بعد أحداث 26 يونيو 1978م بعد مقتل الرئيس الغشمي في صنعاء.

ما بعد مقتل الغشمي

كان مقتل الغشمي سببًا إضافيًا في خلق مخاطر أكبر للرئيس سالم ربيع من تلك التي كان يفكر فيها أو يتوقع حدوثها. وبدلًا من تجنّب الأزمة التي كان يعانيها أصلًا، فتح على نفسه بابًا للمخاطر يصعب تجاوزه. فالظروف الجديدة التي أراد الرئيس خلقها لم تحدث على النحو الذي كان يتوقعه.

وجرت الأمور على نقيض ما كان يريد، وبدلًا من أن تتحقق مقاصده، استغلّ خصومُه هذا الحادث.

لشهر يونيو في اليمن خاصية عجيبة، فباعتباره مفتتح أشهر الصيف القائظة، كان على الدوام يأتي بكثير من المفاجآت[1] في السنوات الماضية. ففيه أُقصيَ الرئيس قحطان الشعبي، وجاء

---

(1) 25 نكسة حزيران.

الرئيس سالمين إلى الحكم عام 1969م. وفيه أُقصي وعُزل القاضي الإرياني، وحلّ محله الرئيس الحمدي. وفيه سقط الرئيسان أحمد الغشمي وسالم ربيع علي قتيلين. فكيف سارت الأحداث بعد مقتل أحمد الغشمي في 24 حزيران/ يونيو 1978م؟

بعد حادث الاغتيال، الذي سمعناه من إذاعة صنعاء، وأوردته في بيان يتعلق بالحادث، اتهمت اليمنَ الديمقراطية بتدبير اغتيال الرئيس المقدم أحمد الغشمي، ولخطورة الموقف عقد "المكتب السياسي" اجتماعًا له في 25 حزيران/ يونيو 1978م، ودُعيت "اللجنة المركزية" إلى الانعقاد في الوقت ذاته لمناقشة الوضع الخطر الناشئ عن مقتل الرئيس أحمد الغشمي، الذي كان ينطوي على مخاطر كبيرة على اليمن والمنطقة كلها. وكنا نتساءل جميعًا: ماذا سنفعل الآن؟

كان الرئيس ربيع في وضع لا يُحسَد عليه، بل كنا جميعًا كذلك، ولقد تألمت كثيرًا على الصعيد الشخصي لوضعه ذاك، لأنّ العلاقة الشخصية بيني وبينه، بالرغم من كل الصعوبات، كانت حميمة جدًا، وظللنا على علاقة صداقة طيبة، وكان على الدوام يزورني ثلاثًا إلى أربع مرات في الأسبوع الواحد في مكتبي.

بعد أن انتهى اجتماع المكتب السياسي، غادرتُ أنا والرئيس إلى مكتبي في رئاسة الوزراء. وكنتُ أقود السيارة وهو بجانبي، ومحمد صالح مطيع في المقعد الخلفي. لم يبدُ في تلك اللحظات

ذلك الرجل الذي عهدته قويًا صلبًا على الدوام، فأدركتُ أنه في ورطة حقيقية، وأنّ علينا أن نبحث عن مخرج من هذه المشكلة.

وفي ذروة قلقه سألني:

- "ما العمل وما الحل؟".

كان سؤالًا صعبًا، لأنّ الخيارات أمامه وأمامنا لم تكن كثيرة. كانت مشاعري معه، لكنّ حادثًا بمثل تلك الفداحة كان من الصعب أن يمرّ دون تحمّل نتائجه أو تحديد المسؤولية عنه، وقد صارحته بذلك.

كان على المقعد ينتظر جوابًا مني. وفي هذه اللحظة اكتشفتُ حلًا. اقترحتُ عليه أن نعلن أنني ووزير الداخلية صالح مصلح وراء تلك العملية، ومن ثَمّ أُقال من رئاسة الحكومة، وأبقى في مقرّ إقامة خاص حتى نتمكن من احتواء الموقف، وتُعلَن استقالة الحكومة، وتؤلَّف حكومة جديدة وتُشكَّل لجنة للتحقيق معنا. وكان من شأن ذلك أن يوجِد مخرجًا للأزمة، بأقلّ الخسائر.

ويبدو أنّ فكرتي لم ترُق الرئيس، فقال على الفور بشجاعته المعهودة:

- لن تكون أنت كبش الفداء، وإذا كان على أحد أن يتحمل المسؤولية، فهو أنا، وليس أحد غيري. والخيار الآخر تنفيذ الخطة التي اتفق عليها مع صالح مصلح لإسقاط صنعاء وإسقاط طائرة علي عبد الله صالح الذي كان متجهًا من تعز إلى

صنعاء لأنه الرئيس المحتمل القادم، وكان صالح مصلح متحمسًا لهذا الخيار، ولكنني رفضته، وقلت له: "عليك أن تحرك قوات الصاعقة والمظلات التي وعدت بتحريكها"، لكنّ صالح مصلح ظلّ متمسكًا برأيه بإسقاط صنعاء عسكريًا، وهذا مرفوض محليًا وإقليميًا ودوليًا.

بعد ذلك، زار الرئيس سالمين عبد الفتاح إسماعيل في منزله في معاشيق للتشاور معه في حلّ المشكلة، لكنّ عبد الفتاح رفض لقاءه، واتصل بي في مكتبي بالتواهي، وطلب مني الحضور فورًا، لأنّ الرئيس موجود في منزله، فتوجهت إليهما ووجدت الرئيس سالمين جالسًا وحده كالأسد الجريح، وسلمتُ عليه، وكان منزعجًا من أنّ عبد الفتاح لم يستقبله في بيته، وكان عبد الفتاح منزويًا في ركن من أركان بيته، وتوجهتُ إليه وطلبتُ منه أن يلتقي الرئيس للتشاور والبحث عن حلّ ومخرج للأزمة، فوافق وخرجنا واجتمعنا وقدمتُ إليهما من جديد مقترحي الذي عرضتُه على الرئيس ربيع، لكنّ الأمين العام عبد الفتاح إسماعيل، رفض مناقشة الفكرة، لأنّ ذلك لا يعنيه، ولأنه لا علم له بهذه العملية التي جرت وأدخلتنا في هذه الأزمة.

بعد ذلك غادر الرئيس سالمين وتوجه إلى مكتب علي عنتر في وزارة الدفاع للقائه، لكنّ علي عنتر أيضًا قال له إنه يجب أن يتحمل مسؤولية ما حدث، وذهب إلى دار الرئاسة وأجرى

اتصالات ببعض أنصاره من المكتب السياسي واللجنة المركزية وبعض القيادات الأخرى.

وبعد التشاور مع بعض أعضاء المكتب السياسي في مكتبي، اقترح "صالح مصلح"، وزير الداخلية، أن يقدّم الرئيس استقالته، وكأنْ لا دخل له في المصيبة التي حدثت، والتي كان هو مهندسها. وذهب محمد صالح مطيع وعلي عنتر إلى دار الرئاسة لإقناع الرئيس بالاستقالة، لكنهما عادا إلينا قائلين إنّ الرئيس رفض أن يستقيل، فاقترح صالح مصلح حينها فرض الحراسة على دار الرئاسة حيث يقيم سالم ربيع علي، لكننا كلفناه شخصيًا الذهاب إليه وإقناعه للمرة الأخيرة بتقديم استقالته، وأعطيتُ الأوامر في الوقت ذاته لمحاصرة دار الرئاسة إذا رفض الاستقالة.

وفعلًا، فوجئنا بعودة صالح مصلح، حاملًا استقالة الرئيس بخطّ يده شخصيًا. وعندما سُئل كيف تمكن من إقناعه، أجاب: "قلتُ له: يجب أن تحترم إرادة التنظيم وتقدم استقالتك". وبحسب روايته، ردّ قائلًا: "منذ متى يا صالح تؤمن بالديمقراطية؟ ألسنا نحن اللذين اتخذنا القرار معًا؟" (يقصد قرار اغتيال الغشمي).

كان وزير الداخلية يروي وقائع ما دار بينه وبين الرئيس في اجتماع اللجنة المركزية التي انعقدت في الساعة العاشرة والنصف لمناقشة استقالة الرئيس ومواجهة الأوضاع الخطيرة

التي ظهرت على السطح من دون توقّع. وفي هذا الاجتماع انتخبتني اللجنة المركزية رئيسًا لمجلس الرئاسة في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد والتوتر. وكان شبح الموت والخوف يخيّم على اللجنة المركزية، وعلى كل مكان في العاصمة عدن.

فقد رُشِّحتُ لتحمُّل منصب "رئيس هيئة الرئاسة" خلفًا للرئيس ربيع، وقد تقدّم بهذا المقترح علي سالم البيض، في اجتماع "اللجنة المركزية"، خوفًا من ترشيح عبد الفتاح إسماعيل لهذا المنصب المهم في الدولة. وكان الخوف يسيطر على الكل، وكانوا يريدون إنهاء الاجتماع في أسرع وقت خوفًا من سالمين وأنصاره، فصُوِّت بالإجماع على هذا المقترح، وجرى تصفيق حارّ على غير المعتاد في مثل هذه الاجتماعات.

سهلت استقالة "الرئيس" التي جاء بها صالح مصلح "مكتوبة" مهمة اللجنة المركزية، فقبلت الاستقالة، معتبرة الأمر منتهيًا عند هذا الحد. وبعد الاجتماع انتقلنا إلى منزلي مع بعض أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية لمناقشة تفاصيل إجراءات سفر الرئيس إلى إثيوبيا بناءً على رغبته، وكان ذلك في ظل أجواء ملبّدة بالغيوم والأخطار، حيث كان الوضع متأزمًا في كل ركن ومكتب ومعسكر، وقابلًا للانفجار في أيّ لحظة، وهو ما لم يتأخر.

ليس المهم من أطلق الطلقة الأولى والرئيس يستعد للرحيل إلى أديس أبابا، لأن الأصابع كلها كانت على الزناد من الطرفين.

لكنّ بعض حراسه الذين كانوا يخشون مصيرهم المجهول بعد رحيل ربيع، سواء بالفصل أو السجن أو القتل، تصرفوا بطريقة خاطئة، وأطلقوا النيران باتجاه اللجنة المركزية، في الوقت الذي كان الرئيس يُعدّ فيه نفسه للسفر. ولا شك في أنه لم يصدر قرارًا بالمقاومة، وهكذا حصل الانفجار بإطلاق النار على منزلي في التواهي، الذي كان فيه عدد من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية، وقد نجونا بأعجوبة بعد أن سقطت القذائف على جذع شجرة كبيرة حالت دون انفجارها في المنزل، لكنّ الزجاج المتطاير من النوافذ لشدة الانفجار أصاب البعض بجروح، وأصدرنا الأوامر بالردّ على القصف من دار الرئاسة، وتطور إلى تدخل القوات البرية والجوية والبحرية.

ماذا جرى في 26 يونيو؟

في الساعة الثانية والنصف من صباح الاثنين 26 حزيران/ يونيو 1978م انفجر الموقف عندما سُمعتْ أصداء طلقات نارية بالقرب من المدخل الرئيسي لدار الرئاسة في منطقة الفتح بمدينة التواهي، وكان مصدرها معسكر "الشرطة العسكرية" القريب من تلك البوابة، وعلى أثرها بدأ التراشق بالنيران من كل جانب من قبل حراسة الرئيس سالمين والشرطة العسكرية، وأضيئت السماء من جراء القصف الذي تردد صداه في منطقة

التواهي. وفي الوقت ذاته تقريبًا، كانت المعارك قد اشتعلت في منطقة دلتا أبين، مسقط رأس الرئيس سالمين.

في ذلك الوقت، كان الرئيس في دار الرئاسة، ومعه أفراد حراسته وبعض أنصاره الذين لا يزيد عددهم على مئتي رجل. وكان إلى جانبه جاعم صالح محمد، عضو المكتب السياسي والسكرتير الأول لمنظمة التنظيم في أبين، وعلي سالم لعور، عضو اللجنة المركزية، وزير الدولة لشؤون مجلس الرئاسة، بينما انتقل بعض أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية بطائرة عمودية من التواهي إلى قلعة معاشيق في كريتر، حيث سكن الأمين العام عبد الفتاح إسماعيل.

لم يستمر صمود أنصار الرئيس طويلًا، فقد قُطعت الكهرباء والماء والهاتف عن دار الرئاسة، لكنهم استطاعوا صدّ بعض الهجمات التي شنتها بعض الفرق العسكرية المسلحة على دار الرئاسة، وردّها على أعقابها، في الوقت الذي كان سلاح البحرية يوجه فيه قصفًا بالمدفعية على مقرّ الرئيس والقصر المدور. وشاركت في القصف مدفعية منطقة رأس مربط. وفي مرحلة لاحقة، اشترك سلاح الطيران في القصف، موجهًا قذائفه الصاروخية إلى مواقع أنصار الرئيس.

في أثناء ذلك تحركت قوات من خرز تابعة للمحور الغربي لمساندة الرئيس، لكنها قبل أن تصل اصطدمت بقوات من معسكر صلاح الدين، وقد استخدم الطيران لوقف تقدمها،

واستمرت تلك المعارك حتى فجر يوم 27 حزيران/ يونيو 1978م.

إلّا أنّ الرئيس الذي استمر صامدًا حتى الساعة الخامسة والنصف من عصر اليوم الأول الذي انفجرت خلاله المعارك، قَبِلَ أن يستسلم في الأخير، بشرط أن يسلِّم نفسه تحديدًا لعلي عنتر الذي كان يعدّه صديقًا، طالبًا منه أن يكتب له ضمانًا بسلامة حياته. وبالفعل، كتب علي عنتر التزامًا بخطّ يده، بضمان حياة الرئيس في حالة تسليمه نفسه ووقف إطلاق النار. ووافق الرئيس على ذلك، فتوقفت المعركة في دار الرئاسة، وسلَّم الرئيس نفسه ومعه جاعم صالح وعلي سالم لعور ومئة وخمسون من أنصاره كانوا يقاتلون معه. وأرسل الثلاثة إلى منطقة معاشيق حيث كان المكتب السياسي في حال انعقاد في المنزل الذي يقطنه الأمين العام عبد الفتاح إسماعيل، ووُضعوا في منزل مجاور حتى يُبَتّ في أمرهم.

إعدام الرئيس

عندما أُبلغ المكتب السياسي باستسلام الرئيس، استُدعيَ علي عنتر من وزارة الدفاع وصالح أبو بكر بن حسينون، رئيس هيئة الأركان الذي أدار العمليات العسكرية ضد الرئيس. بعد مجيئهما نوقش مقترح إعدام الرئيس، وشارك في ذلك الاجتماع عبد الفتاح إسماعيل، علي ناصر محمد، أنيس حسن يحيى، علي

باذيب، صالح مصلح، علي سالم البيض، علي عنتر، صالح أبو بكر بن حسينون، راشد محمد ثابت، محمد سعيد عبد الله (محسن)، وعبد العزيز عبد الولي وعلي شايع، وهم من المكتب السياسي واللجنة المركزية. وأقرّ المجتمعون إعدامه، باستثناء ابن حسينون الذي اقترح سجنه.

وأصدرت اللجنة المركزية بيانًا تعلن فيه إعدام الرئيس ربيع وانتهاء المعارك والسيطرة الكاملة على الوضع وانتخاب علي ناصر محمد رئيسًا لمجلس الرئاسة. وبهذا الإعلان استسلم جميع أنصار الرئيس ربيع، ولم تحدث أيّ مقاومة بعد ذلك.

يجب أن نعترف بأنّ الأمور سارت على هذا النحو، وتحوّل معها اجتماع القيادة إلى جلسة محاكمة عاجلة واستثنائية، نظرًا لخطورة الوضع والرغبة في وضع حدٍّ لمسار الأحداث وإيقاف تداعياتها الخطيرة حفاظًا على الاستقرار وإيقاف نزف الدم الذي كان يمكن أن يُسال بسببها.

أما البقية من مناصري الرئيس في دار الرئاسة والقصر المدور، وعددهم مئة وخمسون، فأغلبهم من العسكريين الذين قاتلوا بشجاعة، وعلى رأسهم صالح شيخ ومحمد امزربة وناصر امزربة وفضل صالح باعش وغيرهم من مواقعهم المحصنة التي بُنيت في عهد البريطانيين، في ملاجئ وخنادق وممرات لا يمكن إصابتها بالرماية المباشرة، ولا بالمدفعية، ولا حتى بالطائرات، وكانت نقطة ضعفهم انقطاع المياه والأكل

والاتصال مع الخارج، ما اضطرهم إلى الاستسلام بعد نفاد الذخيرة، وقد صدرت الأوامر باحتجاز معظمهم حتى تهدأ الخواطر.

بعد شهر من الأحداث، وبعد إجراء تحقيقات سريعة، أُطلِق سراح أغلب مَن اعتُقِلوا بسببها، وبقي في السجون والمعتقلات عدد قليل من الكوادر الأساسية المدنية والعسكرية. وبعد مضيّ ستة أشهر، أُطلق نصف ذلك العدد، وجرى التحفظ على البقية في إجراء وقائي، وكان أغلبهم من الذين تحمّلوا مسؤوليات قيادية في عهد الرئيس، أبرزهم علي صالح عباد مقبل، وعبد الله البار، وحسن باعوم، وسالم باجميل وآخرون، وأُفرِج عنهم بعد عام 1980.

وباستشهاد الرئيس سالمين خسرت الثورة والدولة قائدًا سياسيًا، كذلك خسرت بعض القيادات العسكرية والسياسية.

عبد الفتاح إسماعيل

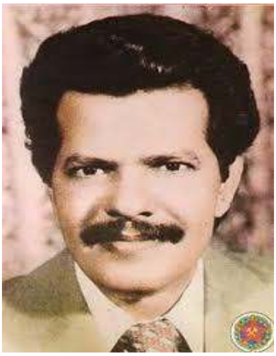

وُلد عبد الفتاح إسماعيل في يوليو 1939م في قرية الأشعب بعزلة الأغابرة بحيفان التابعة لقضاء الحجرية، محافظة تعز شماليّ اليمن. تلقى تعليمه في عدن، حيث عمل فيها بعد ذلك متدربًا في مصفاة لتكرير النفط من عام 1957م إلى 1961م. أسهم في تأسيس حركة القوميين العرب في جنوب اليمن.

تعرفت إليه لأول مرة في الشيخ عثمان في حيّ القاهرة عندما جمعني به لقاء تنظيمي في منزله، وشاهدت له صورة زيتية بريشة أحد الرسامين، مكتوبًا تحتها اسمه، عبد الفتاح إسماعيل الجوفي، وهو ابن قاضٍ انتقل من الجوف بشمال اليمن إلى الحجرية، كما شرح هو لي.

لم تنقطع به الاتصالات التنظيمية في عدن وكريتر والمعلا والمنصورة، حتى اتخاذ قرار إعلان الكفاح المسلح في تعز ومصر، وأصبح مسؤولًا تنظيميًا في عدن، ولكنه اكتُشف وغادر إلى تعز، وفي تعز تعرض لمحاولة اغتيال بسبب التهمة التي وُجهت إليه، بأنه أعطى مسدسه لأحد الفدائيين، الذي استُخدم في اغتيال النقابي علي حسين القاضي في عدن. وهذا النقابي من

محافظة البيضاء، وله أخ ضابط في الأمن، واسمه عيدروس القاضي، الذي حاول اغتيال عبد الفتاح، ولكنه فشل وحاول اختطافه، وفشل أيضًا.

وقبل أن ينجح الأمن في القبض على عبد الفتاح، حضرت إلى صيدلية الصديق محمد حسين العطاب في شارع 26 سبتمبر سيارة للأمن، وتوقفت عند الصيدلية ونزل منها الضابط عبد الواحد السياقي، وكان يسأل عن عبد الفتاح وأنور الخالد، لأننا، أعضاء الجبهة، كنا نلتقي في هذه الصيدلية، ولم يكونا حينها موجودين، وقد أشعرنا ضباط الأمن بذلك. وسألونا: "أين يسكنان؟"، فقلنا لهم: "لا نعرف". وغادر الضابط بسيارته. وبدوري، توجهت إلى المنزل الذي يسكنه عبد الفتاح وطرقت الباب، وفتح لي وكان يتناول العشاء، وقلت له: "إنّ رجال الأمن يبحثون عنك، وعليك أن تخرج فورًا من البيت"، ولكنه طلب مني أن أتناول العشاء معه، ورفضت وقلت له: "أنصح بأن تخرج فورًا!"، وغادرت المنزل.

وبطبيعته الهادئة، فقد أخذ الموضوع بعدم جدية، وكانت تربطه علاقات ببعض المسؤولين في تعز، اعتقادًا منه أنهم سيحمونه، ولكنه اعتُقِل بعد ذلك ونُقل إلى صنعاء، وفي الطريق بين تعز وصنعاء جرت محاولة اغتياله، لكنّ الحراسة الأمنية المشددة منعت حدوث ذلك. وكان القرار من قبل القيادة العربية المصرية في صنعاء بترحيله إلى مصر في 1966م حفاظًا

على حياته، واستقر فيها إلى نهاية 1967م عندما سُمح لقيادة الجبهة القومية في القاهرة بالمغادرة، بعد نكسة حزيران، وفي المقدمة قحطان الشعبي وفيصل عبد اللطيف وبقية القيادات الأخرى التي خرجت من القاهرة عبر بيروت وصنعاء للدخول إلى عدن، لأن جبهة التحرير بقيادة عبد القوي مكاوي وعبد الله الأصنج ومحمد سالم باسندوة لم تكن تسمح لقيادات الجبهة القومية بالقيام بأي نشاط حتى العبور من عدن وإليها، وبعد سقوط المناطق في المحميات منطقة تلو منطقة، حسم الأمر لمصلحة الجبهة القومية في 5 و6 نوفمبر 1967م، وعادت معظم قيادات الجبهة القومية إلى عدن والمحافظات، وغادرت بعض قيادات جبهة التحرير إلى تعز والقاهرة. وشارك عبد الفتاح إسماعيل في وفد الجبهة القومية في جنيف برئاسة قحطان محمد الشعبي، وأصبح بعد الاستقلال وزيرًا للثقافة والإرشاد القومي وشؤون الوحدة اليمنية. وفي عام 1969م أصبح أمينًا عامًا للجبهة القومية وعضو مجلس رئاسة، وانتُخب أمينًا عامًا في المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي اليمني أكتوبر 1978م.

وبعد أن أصبح وزيرًا للثقافة وشؤون الوحدة في حكومة قحطان الشعبي، وكان ضمن تشكيل الحكومة باسم عبد الفتاح إسماعيل الجوفي، وبعد ذلك شطب (الجوفي) من اسمه الثلاثي، وبقي اسمه الثنائي فقط منذ 1969 حتى استشهاده.

وفي نهاية عام 1978م انتقلت الرئاسة إليه وأصبح رئيسًا وأمينًا عامًا للحزب، ورئيسًا لمجلس الشعب الأعلى، أسوة بتجارب البلدان الاشتراكية[1] التي جمعت بين الأمانة العامة للحزب والرئاسة، وبهذا تحمّل عبد الفتاح كل المسؤوليات التنفيذية والتشريعية والحزبية الرئيسية في البلاد، ما عدا رئاسة مجلس الوزراء، وربما كانت هذه أول مرة يتحمّل فيها مسؤولية تنفيذية مباشرة.

في مرحلة سابقة أخذ عبد الفتاح يشكو أنّ الرئيس سالم ربيع علي، الأمين العام المساعد للجبهة القومية، حدّ من صلاحياته، وعندما آلت إليه كل السلطات بدأت السهام توجه نحوه مباشرة وتطالب بإقالته، لأنه لم يملأ الفراغ الذي تركه سالم ربيع، الذي كان أنشط من الجميع، ويتمتع بشعبية واسعة في البلاد. وأمام ضغط بعض القيادات وتحريض نايف حواتمة[2]، قدّم استقالته وكُرِّم في حفلٍ رسمي بالرئاسة، مُنح فيه وسام الثورة وغادر إلى موسكو حسب طلبه للإقامة فيها من 1980م وحتى مطلع عام 1985م. وكانت بعض العناصر التي

---

(1) وقد حدث ذلك في الاتحاد السوفييتي وألمانيا وبلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وفي سورية والعراق ومصر والجزائر.

(2) كان نايف حواتمة يطالب بإقالته، إن لم يقدم استقالته، ويقول لي: لقد أثبت عبد الفتاح فشله، وإن لم تتحمل مسؤوليتك فسيتجاوزوكم (عني وعن عبد الفتاح) ويقومون بانقلاب عليكم. وهذا ليس صحيحًا، فقد كان من الصعب تجاوزنا. وفي عام 1985م كان حواتمة نفسه يطالب بعودة عبد الفتاح بالتنسيق مع السوفييت.

كانت تطالب بطرده من الحزب وعدن، هي التي كانت تطالب بعودته إلى عدن، ليس حبًا في عبد الفتاح، ولكن كراهية في علي ناصر، بعد أن شعروا بتقليص نفوذهم في الحزب والدولة. وكان السوفييت قد قدموا كل التسهيلات للقاءات التي كانت تجري بين بعض القيادات من عدن وعبد الفتاح إسماعيل. وكان قد حذّره البعض من التفكير في العودة إلى عدن أو الانحياز إلى أي طرف من أطراف الصراع. والتقيته في موسكو لأكثر من أربع ساعات، ويومها كنت في طريقي إلى كوريا الشمالية، وأصرّ حينها على العودة إلى عدن، ونصحته بعدم الاستعجال.

وقال لي: هل تمنعني من العودة إلى وطني؟

قلت له: أنا لا أخشى عودتك! ولكنني أخشى عليك من الذين يكذبون عليك ويطالبونك بالعودة، وهم الذين طالبوا بإخراجك عام 1980. لكنّ كل محاولاتي كانت دون جدوى.

وبعد ذلك وافقتُ على عودته، وعاد إلى عدن وانحاز إلى الصف المتطرف بقيادة البيض والذين قتلوه بعد أحداث 1986م في منزل أحد المسؤولين، ولم يُعرف له قبر أو كما قال خاله سعيد الجناحي في إحدى مقابلاته: "لقد ضاع في الزحمة".

وقد حزنتُ عليه كصديق ومناضل، وكنتُ أتمنى ألّا تكون له هذه النهاية المحزنة والمؤلمة، ولكنه اختار هذا الطريق بإرادته عندما شجعته بعض العناصر المتطرفة على العودة، كما أشرنا، وبتشجيع من بعض القادة السوفييت الذين كانوا يرون في

عودته خطوة على طريق وصوله إلى السلطة مرة أخرى، بعد التخلص من الطرفين (علي ناصر وعلي عنتر). وقد أشارت إلى ذلك وثيقة الـ "كي جي بي" الصادرة عن مكتب السيد بروتنتس، النائب الأول في مكتب العلاقات الخارجية في الحزب الشيوعي السوفييتي، التي نُشرت في صحيفة كينيا إكسبرس بعد أحداث 1986م، وقد تحدثتُ عن ذلك بالتفصيل في كتاب "ذاكرة وطن.. جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية 1967 – 1990م".

وكان بروتنتس قد ظهر في إحدى المقابلات في قناة روسيا اليوم، وهو يتحدث عن عبد الفتاح إسماعيل، ويشيد به وبالعلاقات المتميزة بينهما، وأنه يعتبر أفضل زعيم عربي. كذلك تحدث السيد بروتنتس عن الرئيس سالم ربيع علي، وعن اتهامه بالخيانة والتآمر مع الأمريكان، وأنه قُتل قبل يوم من وصول وفد أمريكي كان في طريقه إلى عدن، وأن الأمريكان قد فشلوا في مراهنتهم على الرئيس سالم ربيع علي، ولم يكن ذلك صحيحًا، فالرئيس سالم ربيع علي قد فتح قناة مع الولايات المتحدة الأمريكية كرئيس دولة لمصلحة اليمن الديمقراطية عبر عضو الكونغرس الأمريكي، السيد فيندلي، الذي زار عدن من أجل الإفراج عن مدرس أمريكي كان يعمل في الكويت، وزار عدن وهو في طريقه إلى أمريكا، وقد اعتُقل في أثناء تصوير بعض

المنشآت العسكرية، وأُفرِج عنه وسُلِّم للسيد فيندلي، وهو مواطن أمريكي في دائرته الانتخابية.

وكان المعسكر الاشتراكي، وعلى رأسه الاتحاد السوفييتي، يقيم علاقات مع أمريكا، بينما ينتقدون رئيس دولة يعمل لمصلحة وطنه وشعبه.

فيصل عبد اللطيف الشعبي

وُلد فيصل عبد اللطيف في قرية شعب، مديرية طور الباحة -الصبيحة، في محافظة لحج حاليًا، عام 1935م. والده الشيخ عبد اللطيف الشعبي، شيخ مشايخ شعب آنذاك، وكان من أوائل الذين أكملوا تعليمهم الثانوي في عدن. كان لوالده عبد اللطيف دور وطني في محاولاته لتوحيد قبائل الصبيحة ووحدة موقفهم وكلمتهم، وهو ما أزعج الإنكليز وسلطنة لحج اللذين كانا يديران مناطق الصبيحة، وكان أن تآمرا لاغتياله في مدينة الحوطة، عاصمة سلطنة لحج.

نشأ فيصل يتيمًا، حيث كفله عمه الشيخ محمد عبد القوي الشعبي، الذي عُرف بمحمد رشاد الشعبي. وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة جبل حديد، أو مدرسة أولاد الرؤساء

والمشايخ والأعيان، وهي المدرسة التي تقع فوق جبل حديد المشرف على الدكة البحرية التي تحولت الآن، أي الدكة، إلى ملاهٍ للأطفال. بعدها انتقل للدراسة المتوسطة، أو الإعدادية، في المدرسة المحسنية العبدلية في الحوطة/ لحج التي كانت تديرها بعثة تعليمية مصرية، وقد أظهر فيصل نبوغًا وذكاءً تقرر بناءً عليه إرساله في منحة إلى مصر لمواصلة الدراسة. التحق بعد ذلك بجامعة عين شمس، كلية الاقتصاد والتجارة في مصر، وحصل على شهادة البكالوريوس.

كان لإرثه العائلي الوطني ووجوده في مناخ ثورة يوليو بمصر أثره في صقل وعيه وإثرائه، ووجد حينها في حركة القوميين العرب ضالته، وهي الحركة التي نشأت وقامت على أثر النكبة الفلسطينية 1948م.

بعد التحاقه بحركة القوميين العرب، حضر عدة دورات في دمشق، ثم كُلِّف مهمة تأسيس فرع الحركة في اليمن، ما تطلّب منه الاستفادة من الإجازات السنوية التي يعود فيها إلى الوطن وكذلك قطع الدراسة أحيانًا للعودة لقيادة العمل التنظيمي وترسيخ عملية التأسيس والإنشاء.

منذ بداية عام 1959م استطاع فيصل، بما كان يتمتع به من ذكاء وخبرة تنظيمية وثقافية واسعة وقدرة قيادية، تشكيل أولى الخلايا التنظيمية للحركة في اليمن، وبعد انضمامي إلى حركة القوميين العرب في بداية الستينيات، كنتُ أسمع من حين لآخر

عن المناضل والمفكر والقائد فيصل عبد اللطيف، الذي كان أحد القادة المؤسسين.

وشاءت الظروف والعمل التنظيمي أن نلتقي في عدن أكثر من مرة عندما كنا نزورها بين حين وآخر، وكان أهم لقاء ذلك الذي جمعنا به في منزل نور الدين قاسم في المنصورة، وترأسه حينها وقدّم عرضًا حيًّا وعميقًا لاتجاه الأحداث والدعوة إلى الإعلان الرسمي للكفاح المسلح بقيادة الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل. وعندما أبدى البعض ملاحظات على الثورة المسلحة في عدن والمحميات وخشيتهم من فشل الثورة، وأن الوضع في عدن والتحصينات والبوابات والأسوار والأسلاك قد تمنع دخول الأسلحة إلى المستعمرة، أتذكر مقولته:

"إننا إذا انهزمنا في هذه المعركة، فسيسجل التاريخ أننا قد حاولنا، وإذا انتصرنا، فهو نصر لشعبنا وللأجيال القادمة".

وحديث المناضل فيصل عبد اللطيف عن النجاح والفشل للثورة المسلحة في الجنوب عام 1963 يذكرنا بخطاب جمال عبد الناصر يوم 22 يوليو 1962 بمرور عشر سنوات على الثورة عندما حاول البعض ثنيهم عن تنفيذ الخطة بسبب اكتشافها في اللحظة الأخيرة من قبل الملك، وتحرك قادة الجيش لاعتقال الضباط الأحرار، لكن عبد الناصر رفض التراجع عن تنفيذ هذه الخطة، وقال في خطابه:

"إنّ العجلة كانت قد دارت ولن يستطيع أحد إيقافها، وإذا لم يكتب لها النجاح في القضاء على النظام الملكي، فليس أقل من أن نضحي ونثبت للأجيال القادمة أن الجيل الذي عاش عام 1952 لم يستكن لهذا الظلم والاستبداد، بل قام وقاتل واستشهد من أجل الثورة والتغيير في مصر لتواصل الأجيال القادمة ما عجزنا عنه. لكن الحظ كان حليفنا عندما تحرك الضابط يوسف صديق بقواته الساعة الـ 12 قبل موعد قيام الثورة بساعة". وليلتها التقى عبد الناصر وعبد الحكيم عامر هذه القوة التي كانت جاهزة للانطلاق، وتحركت لاعتقال القيادة العسكرية التي كانت مجتمعة لمواجهة الضباط الأحرار، وكان هذا سبب انتصار الثورة.

وأكد عبد الناصر حينها أنّ عدد الضباط الأحرار الذين حركوا القوات ليلتها لا يزيدون على 90 ضابطًا، ولكنّ الجيش المصري جيش وطني عبر التاريخ.

أما عند قيام الثورة في الجنوب، فكان أعضاء الحركة لا يزيدون على 60 عضوًا في عدن، ولكنهم كانوا مؤثرين في أوساط الجماهير، إضافة إلى بعض خلايا الحركة في شمال اليمن وتنظيم قطاع القبائل المناضلة.

حضرت الاجتماع بصفتي مسؤولًا لتنظيم الحركة في لحج. وكنت من المتحمسين لفتح جبهات جديدة لحرب التحرير. وتوصل الاجتماع في نهاية الأمر إلى أهمية وضرورة البدء

بالعمليات الفدائية في عدن لإرباك السلطة الاستعمارية، وفتح جبهات جديدة لمنع البريطانيين من الاستفراد بجبهة ردفان التي انطلقت منها الثورة. ويُعَدّ هذا القرار من أهمّ وأخطر القرارات التي اتُّخذت في تاريخ الثورة والكفاح ضد الاستعمار البريطاني، إذ نقل المعركة إلى قلب القاعدة البريطانية في عدن، وكانت جبهة عدن هي الحاسمة في معركة التحرير في الجنوب. ومما له دلالته، أنّ الثوار استطاعوا أن يخوضوا حرب عصابات منظمة وناجحة في مدينة صغيرة محاصرة بالجبال والبحر، وقليلة المنافذ، ومحاطة بالأسلاك الشائكة(1) وبمعسكرات القوات البريطانية والجواسيس والكلاب البوليسية، والقيام بالنشاط العسكري في المدن والريف، "واستطاعوا أن ينتصروا في هذه المعركة التي تُوِّجت بالنصر النهائي في 30 نوفمبر 1967م". وعلى هذا الطريق مضينا لإعداد خطط فتح جبهات جديدة، بانتظار قرار القيادة النهائي(2).

وقد أشرف على العمل الفدائي في بدايته الأولى فيصل عبد اللطيف وعبد الفتاح إسماعيل وأحمد صالح الشاعر وسالم ربيع علي الذي استمر إشرافه من بداية 1966م حتى الاستقلال. وفي

---

(1) – وضعت هذه الأسلاك الشائكة في أكتوبر من عام 1965م.

(2) – حضر الاجتماع علي السلامي وفيصل عبد اللطيف، وسيف الضالعي، وعلي عبد العليم، وسالم ربيع علي، وناصر صدح، وحسين الجابري، ومحمد علي هيثم، ونور الدين قاسم، وعبد الرزاق شايف، وعبد العزيز سلام، بالإضافة إلى كاتب هذه المذكرات.

عام 1967م، وفي أثناء سقوط المناطق في المحميات، تعرّض فيصل الشعبي ومحمد أحمد البيشي للاختطاف في لحج من قبل عناصر جبهة التحرير، ونُقلوا إلى القيادة المصرية في تعز، وقد رُحِّلوا إلى مصر بملابسهم الوطنية. وأتذكر أننا استقبلناهم بعد وصولهم في القاهرة، واستقرّ في مصر حتى بعد نكسة حزيران، وغادر إلى بيروت، ومنها إلى عدن، وانضمّ بعد ذلك إلى وفد المفاوضات في جنيف.

وفي مفاوضات الاستقلال في نوفمبر 1967م ترأس قحطان الشعبي وفد الجبهة المفاوض الرسمي، وضمّ في عضويته فيصل عبد اللطيف، وعبد الفتاح إسماعيل، وسيف الضالعي، وخالد عبد العزيز، والعقيد عبد الله سبعة (من الأمن)، ومحمد أحمد البيشي، وعددًا من المستشارين، منهم المقدم محمد أحمد السياري (من الجيش)، المقدم حسين سالم المنهالي (من قوات البادية)، وعادل خليفة، وعبد الله علي عقبة، وأبو بكر سالم القطي، وأحمد علي مسعد (سكرتير الوفد)، ومحمود مدحي وملكة عبد اللاه، وضمّ أيضًا عددًا من المستشارين العرب، بينهم الأخضر الإبراهيمي وعدنان ترسيسي وغسان كنفاني. وجاء قرار الجبهة المتعلق بتشكيل الوفد أنه مكلَّف "مفاوضة الحكومة البريطانية في الأمور المتعلقة بسيادة واستقلال ومستقبل جنوب اليمن المحتل، بما في ذلك جزر كمران وميون وكوريا موريا وسقطرى والجزر الأخرى التابعة". وأُعطي

الوفد صلاحيات اتخاذ القرارات النهائية والتوقيع على الوثائق التي تنبثق من المفاوضات المزمع إجراؤها.

وفد الجبهة القومية المفاوض: تمثيل العسكريين بملابس مدنية، الوفد المفاوض في جنيف، ويظهر في الصورة قحطان محمد الشعبي، وإلى يساره عبد الله صالح سبعة، وبعده باثنين عادل محفوظ خليفة وخالد عبد العزيز وفيصل الشعبي وعبد الله علي عقبة، وفي أقصى الصورة محمد البيشي، وعلى يمين قحطان يظهر العقيد محمد أحمد السياري وسيف الضالعي وعبد الفتاح إسماعيل وأحمد علي مسعد والمقدم حسين المنهالي وملكة عبد الإله ومحمد عمر الحبشي وأبو بكر القطي وخالد محيرز، وآخرون لم نعرف أسماءهم.

فور عودة وفد الجبهة القومية المفاوض، عقدت القيادة العامة اجتماعًا مهمًا صباح يوم «إعلان الاستقلال»، في الثلاثين من نوفمبر، وترأسه قحطان الشعبي بحضور كل من فيصل عبد اللطيف، عبد الملك إسماعيل، أحمد صالح الشاعر، عبد الفتاح إسماعيل، علي سالم البيض، سلطان أحمد عمر، سيف الضالعي، محمد علي هيثم، سالم ربيع علي، عبد الله الخامري، محمد أحمد

البيشي، محمود عشيش، محمد صالح عولقي، حسين الجابري، وعبد القادر أمين.

وتحدث في هذا الاجتماع، بصدد الحكم، فيصل عبد اللطيف الذي صاغ أفكاره على الوجه الآتي: «لقد انفردنا بالسلطة، والمسؤولية ضخمة وكل ما عندنا طرحناه على الجماهير. مشكلتنا في الجبهة القومية – التنظيم السياسي، يوجد التعاطف وقلة الكفاءات... إنّ الأوضاع صعبة، ومواجهتها تتطلب الشجاعة والمسؤولية التاريخية». وحذّر من الرأي الذي تداولته بعض الأوساط الحركية في بيروت من «أن الحكومة مؤقتة وستحترق بمشاكل الاستقلال». وشدد على ضرورة الانتقال بإطار التنظيم القائم إلى إقامة «الحزب الثوري»، وهذا – كما قال – «لا يمكن إلا بتوافر قدر كبير من المصارحة ومعرفة واقعنا اليمني... وتوافر نوع من الدراسة حول واقع الجبهة القومية، وأهمية أن يكون هناك فهم شامل. وبما أنّ السلطة امتحان للتنظيم، ولكنه امتحان لا مفر منه، وعلينا اجتيازه، ليس بالتهرب... البعض يريد التهرب من المسؤولية ومواجهة المصاعب لكي يحرق الآخرين. فأين رفقة النضال، وقد بدأنا نفكر سوءًا في بعضنا؟».

والحق أنّ مداخلة فيصل عبد اللطيف لامست كثيرًا من القضايا الحساسة والظنون والدواخل، وكانت موجهة إلى عبد الفتاح إسماعيل بعد أن أسرّ نايف حواتمة، وهو من قادة حركة

القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بأنه ينبغي أن يفسح المجال أمام قحطان الشعبي ليتولى الرئاسة، ليحترق ثم يُطاح!

شُكِّلَت الحكومة برئاسة قحطان الشعبي، وعُيِّن فيصل عبد اللطيف وزيرًا للاقتصاد والتجارة والتخطيط.

كنا نرى في شخص المناضل فيصل عبد اللطيف مشروع قائد يتمتع بالذكاء والقدرة التنظيمية والقيادية التي برزت منذ وقت مبكر، يمكنه تلطيف الأجواء ومدّ جسور الثقة مجددًا بين أعضاء القيادة ومساعدة الرئيس الذي أنهكته الصراعات والمزايدات والمؤامرات، وكان تفكيري وتفكير بعض زملائي يتجه إلى الدفع بتشكيل حكومة جديدة برئاسة فيصل عبد اللطيف، وكان الرئيس قحطان يجمع ما بين منصبَي رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء. كنا نعتقد أنه سيكون لفيصل عبد اللطيف وعلاقته النضالية والتنظيمية بالرئيس لسنوات طويلة أثر كبير في تجاوز بعض الأزمات التي تمرّ بها البلاد والعباد.

وقد شُكلت في أبريل من عام 1969م حكومة برئاسة المناضل فيصل عبد اللطيف الشعبي، واستمرت من أبريل 1969م حتى يونيو من العام نفسه، وكان الرئيس قحطان الشعبي قد نُقلت إليه معلومات عن أنّ وزير الداخلية محمد علي هيثم كان يراقب تليفوناته ويتآمر عليه مع بعض ضباط الجيش في المنطقة الوسطى في أبين، فما كان منه إلا أن أصدر قرارًا بإعفائه

من الوزارة، فسبّب أزمة بين الرئيس وبعض الوزراء وأعضاء القيادة العامة للجبهة القومية. ومَن كان مختلفًا مع الرئيس قحطان الشعبي تعاطف مع محمد علي هيثم، ليس حبًا فيه، ولكن كراهية في الرئيس، بهدف التصعيد ورفع التوتر ضد الرئيس الذي كان يعاني من الصراعات والمزايدات والتطرف والتآمر منذ 1967م وحتى تقديم استقالته في 22 يونيو 1969م.

ولما كان مقررًا أن تواصل القيادة العامة اجتماعها في الساعة الحادية عشرة من نهار 20 يونيو 1969م، تخلَّف الرئيس قحطان ورئيس الوزراء فيصل عبد اللطيف وسيف الضالعي وعلي عبد العليم عن الحضور، بهدف الحيلولة دون مواصلة الاجتماع، حتى لا يؤدي إلى خلاف وصدام، بينما كان أعضاء القيادة في "دار الرئاسة" بانتظار وصولهم. وإذ علمت القيادة بأنهم مجتمعون في منزل الرئيس، فقد كلفتني وعلي عنتر الذهاب إلى هناك وإشعار الموجودين فيه من بقية أعضاء القيادة بأنهم في انتظار وصولهم لاستئناف الاجتماع.

لكن قبل الوصول إلى منزل الرئيس، قابلنا فيصل عبد اللطيف، رئيس الوزراء، فتحدثنا معه عن اجتماع القيادة العامة، وأخبرناه بأنّ بقية الأعضاء ينتظرون في "دار الرئاسة" لمواصلة الاجتماع الذي كنّا قد بدأناه يوم 19 يونيو.

بدا رئيس الوزراء منزعجًا، وقال بصوت ينمّ عن الأسى والحزن:

ما الذي تريد القيادة العامة أن تصل إليه؟ القرار بشأن إعفاء محمد علي هيثم، وزير الداخلية، من منصبه قد صدر، ومن العيب أن يصدر قرار بإلغائه، ولا داعي لإثارة المشاكل لأنفسنا إلا إذا كانت القيادة العامة تريد إثارة المشاكل، وماذا تريد منها على وجه التحديد؟

قلت له: "الجواب عن هذا السؤال تملكه القيادة العامة، ولكي تحصل على أجوبة عن هذه الأسئلة أو غيرها، من الأفضل أن تحضروا الاجتماع. وكما تعلم، فإنّ موعده قد تقرر في اجتماع أمس".

قال فيصل بصورة قاطعة: "لا فائدة من ذلك".

وقلتُ له: "أنا أتفق معك في ألّا يتراجع الرئيس عن قراره". واقترحنا عليه أن تُشكل حكومة جديدة برئاسته وأن يُعين محمد علي هيثم في منصب آخر وتشكيل مجلس رئاسة من ثلاثة أشخاص برئاسة قحطان الشعبي وعضوية عبد الفتاح إسماعيل وفيصل الشعبي، رئيس الوزراء.

ولكنه رأى أن لا جدوى من ذلك. وتركنا، وانطلق بسيارته إلى منزله.

كان فيصل عبد اللطيف ذكيًا، ورجل دولة من طراز فريد. وبهذا الموقف، فإنه استشعر أنّ الخلافات تعصف بالقيادة، وأدرك أنْ لا جدوى من الاجتماع، وبرهنت الأحداث بعد ذلك على صحة كثير من مواقفه.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها فيصل عبد اللطيف، إذ لم يحضر اجتماع القيادة تلك الليلة، وقد قُتل بعد ذلك في ظروف غامضة، وكان مقتله خسارة كبيرة للثورة والدولة.

ومُنح بعد ذلك في عام 1989م وسام الثورة.

محمد علي هيثم

وُلد محمد علي هيثم عام 1940م في قرية الحسكة التي تقع جنوب غرب مودية على هضبة صغيرة، ودرس الابتدائية في مودية، ثم انتقل إلى المدرسة المتوسطة في زنجبار، وانتقل إلى كلية عدن التي تقع على حدود مستعمرة عدن ودار سعد في السلطنة العبدلية.

تعرفت إليه في مدينة عدن خلال الدراسة في دار المعلمين بعدن، وكان يقطن في القسم الداخلي لكلية عدن، ولم يكن سكننا الداخلي بعيدًا عنهم، ويقع قريبًا من بستان الكمسري، وكنا نلتقي بين حين وآخر ونحن في طريقنا إلى بستان الكمسري الذي كان متنفسًا لعدن وأهلها الطيبين. وقد تعمقت صلاتنا ببعض لاحقًا عندما أصبحنا أعضاءً في حركة القوميين العرب التي توسع نشاطها في دثينة في أوساط الطلاب والمدرسين

والفلاحين وبعض الشخصيات الاجتماعية المؤثرة فيها، ومن أبرزهم محمد علي هيثم، وعلي جازع، ومحمد صلاح، وسعيد محمد امفقيرية، وسعيد عثمان عشال، وعبد الله ناصر الجونه، وعلوي حسين فرحان، وأحمد مسعود العلواني، وعبد الله ناصر مسعود، وعلي الشيخ عمر، ومحمد عبد الله البطاني، وعبد الله عمر البطاني، وعلي سليمان علي، ومحمد سليمان ناصر، وعبد الله أحمد عنبر، وعبد الرحمن العود، وناصر عمر الشيخ ومحمد صلاح وغيرهم، وقد تولى معظمهم بعد ذلك مسؤوليات كبيرة في الدولة، من وزير ومدير وسفير وغير ذلك.

وبعد قيام الثورة عام 1963، وإعلان فتح جبهات القتال، انتقلنا إلى تعز وتدربنا فيها على أيدي الضباط المصريين، ومن ثم انتقلنا إلى البيضاء في طريقنا إلى الجبهة الوسطى، وكان قد انضم إلينا الصحافي المصري مكرم محمد أحمد (مراسل الأهرام حينها) وعبد الله العبيدي وناصر محمد ومحمد هميش "الشيوعي" وعبد الله شيخ الرباش وفضل عبد الله الرباش وعلي محمد الصالحي، وكان الجعري يقودنا وسط ظلام دامس والرذاذ يبلل ملابسنا، نتوقف على صوته وهمساته، ونتحرك على إشاراته وحركاته بنا إلى المجهول، نسير ولا نعرف نهاية للطريق. كذلك لا نعرف ما مصيرنا، ولا نعرف أين نتوقف، ولا أين ننام. لا مكان للجلوس، لا مكان للراحة، وفي مثل هذه الحالة لا مكان للتفكير في الجوع أو الأكل! الظلام يلفّنا وهو

سيد المكان. لكن ثمة نجوم تتلألأ فوقنا، ولكنها بعيدة جدًا، وتأخذ بالاختفاء تدريجًا في اتجاه الغرب خلف الغيوم، والجبال العالية، والفضاء اللامتناهي.

وبعد انطلاق رحلتنا من البيضاء، مررنا بالسيلة البيضاء وعرقوب امرجل (الرجْل) ووادي عران والتقينا السيد ناصر السقاف وعبد الله العبيدي وآخرين، ثم انتقلنا إلى الوضيع وكمران ومران في طريقنا إلى مقر القيادة في جبل فحمان، وكان هذا الجبل الشاهق المنيع مأوىً ومنطلقًا للثوار إلى كل أنحاء ولاية دثينة للقيام بالعمليات العسكرية والعودة إلى الجبل. وفي أثناء وجودنا في الجبهة الوسطى وفحمان، أسقطنا طائرتي هوكر هانتر، وتحدث عنها مكرم في كتابه الذي صدر بعد عودته من جبهات القتال بعنوان "الثورة جنوب الجزيرة". ولم تطل إقامة الصحافي المصري مكرم بعد الاستطلاع الذي قام به والتأكد من وجود للثورة سياسيًا وجماهيريًا وعسكريًا، فانتقل من دثينة إلى تعز وإلى جبهة الضالع، وكانت الجماهير في دثينة يقدمون كل أشكال الدعم للثوار من مال وسلاح وغذاء ومعلومات دون خوف من السلطات الاستعمارية والمحلية، لأن دثينة لم تحتكم لسلطان أو أمير. وكانت المراكز الحكومية تتعاطف معنا، وأحيانًا يطلقون النار ويرسلون بعض الذخائر لنا ويدعون أنها صرفت في المعارك بين الثوار وبينهم، ولا يوجد في دثينة أي

جندي أو مسؤول بريطاني، ولهذا فقد قررنا الرحيل إلى البيضاء لمهاجمة المعسكرات البريطانية في مرتفعات مكيراس.

وبعد ذلك انتقلنا إلى تعز، ومنها إلى مصر لحضور مؤتمر القوى الوطنية في الجامعة العربية في القاهرة، وبعدها انتقلنا للاشتراك في دورة عسكرية بمدرسة الصاعقة بأنشاص، وعدنا بعدها إلى تعز لفتح الجبهة الشرقية في بيحان.

وأتذكر أننا في نهاية 1966م سافرنا إلى القاهرة للدراسة في الكلية الحربية، لكن الخلافات بين الجبهة القومية وجبهة التحرير حالت دون عودتنا، ومُنعنا من السفر مع عدد من الرفاق، ومنهم الأخ محمد علي هيثم، وبقينا في القاهرة حيث جمعتنا الشقة وفرقتنا السلطة لاحقًا.

عاد بعد ذلك محمد علي هيثم إلى الجنوب ليشارك في تحرير المناطق، وقد أسهم مع بعض الرفاق في تحرير ولاية دثينة وإمارة بيحان وإنزال العلم البريطاني ورفع علم الجبهة القومية مكانه، وألقى كلمة القيادة العامة التي أعلن فيها انتصار الثورة في هذه الولاية وغيرها من المناطق، وقد أسهم بدور كبير في فترة الكفاح المسلح، وخاصة في الجبهة الوسطى، وكان يتمتع بثقة عالية بالنفس، يمثل كبرياء القرية وشموخ القبيلة.

وبعد الاستقلال وقيام الدولة في الجنوب في عام 1967م أصبح محمد علي هيثم وزيرًا للداخلية حتى عزله بقرار جمهوري من قبل الرئيس قحطان الشعبي في يونيو 1969م بسبب اتهامه

بمراقبة تليفونات رئيس الجمهورية، وكانت تلك وشاية أكثر منها حقيقة في مراقبة اتصالات رئيس الجمهورية وغيره من المسؤولين. وأتذكر أنّ أحد الاصدقاء نقل إليّ خبر أن تليفوني مراقب، وحينها كنتُ وزيرًا للإدارة المحلية، وطلبتُ من نائبي الأستاذ أحمد علي مسعد أن يتحرى عن ذلك بحكم عمله السابق في البريد والهاتف، ولكنه أكد لي أنّ هذه المعلومات لم تكن صحيحة، وكانت بعض القوى غير المرئية تغذي الخلاف والصراعات بين المسؤولين قليلي التجربة في السلطة، ما أدى إلى بعض الخلافات التي سحبت نفسها على الوضع العام، وأدى إلى صراعات بين المسؤولين باستقالة رئيس الجمهورية قحطان محمد الشعبي ورئيس الوزراء فيصل الشعبي وبعض القيادات الأخرى. وعُيّن بعد ذلك سالم ربيع علي رئيسًا لمجلس الرئاسة خلفًا لقحطان الشعبي، وعُيّن محمد علي هيثم رئيسًا للوزراء خلفًا لفيصل الشعبي حتى نهاية يوليو 1971م، حيث ذهب للدراسة في موسكو بعد أن قدم استقالته من رئاسة الحكومة. وقد منحه السوفييت وسام لينين، ولكنه استطاع أن يغادر موسكو إلى القاهرة بعد أن شعر بالخطر يتهدد حياته. وهناك انضم إلى المعارضة الجنوبية للنظام في عدن، وأصبح أحد قادتها البارزين، لكنه كان متزنًا في معارضته. وقد تعرّض لمحاولة الاغتيال مرتين وهو في القاهرة، وسبّب هذا أزمة بين مصر واليمن الديمقراطية.

وبعد قيام الوحدة انتقل للعيش في صنعاء، وأصبح وزيرًا في حكومة الوحدة عام 1993م، ثم مات بالسكتة القلبية في ظروف غامضة من ذات العام، كما حدثني بذلك ابنه عاد. وخرجت المسيرات في جنازته في ذروة الصراع بين الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض، وشارك في جنازته قادة الحزب الاشتراكي وقادة المؤتمر الشعبي العام، تقديرًا لدوره النضالي والسياسي من أجل الثورة والدولة والوحدة اليمنية.

وبعد الانتهاء من ذكرياتنا عن الرؤساء قحطان الشعبي وسالم ربيع علي وعبد الفتاح إسماعيل وفيصل عبد اللطيف ومحمد علي هيثم، فقد خسرت الثورة والوطن خيرة رجالها بسبب المزايدات والتطرف والتخوين والتصنيفات من يمين رجعي (قحطان الشعبي) ويسار انتهازي (سالم ربيع علي) ويمين انتهازي (كاتب هذه المذكرات) الذي أدى إلى سجن الرئيس قحطان الشعبي أكثر من عشر سنوات ومقتل الرئيس سالم ربيع علي ومقتل عبد الفتاح إسماعيل، أو كما قال عنه سعيد الجناحي "إنه ضاع في الزحمة بعد 1986م"، ومقتل فيصل عبد اللطيف في سجن الفتح وملاحقة ومحاولة اغتيال محمد علي هيثم في القاهرة مرتين، وغيرهم من الشهداء في الأحداث التي مرت بها التجربة أعوام 1969م و1978 و1986م وغيرها من

الأحداث التي يدفع ثمنها الشعب حتى اليوم، وبعد كل ذلك كان يجري تكريم تلك القيادات بأوسمة الثورة في عدن.

وبعد عام 1986م حُكم عليّ بالإعدام بتهمة الخيانة الوطنية العظمى في 1987م بعد عام من المحاكمات، وبعد ست سنوات في 1993م زارني اللواء محمد هيثم نائب رئيس الأركان والسفيران محمد عبد الله الشطفة وعبد الله ناصر مثنى في دمشق، وطلبوا مني العودة إلى عدن لرئاسة الامانة العامة للحزب الاشتراكي اليمني بدلًا من البيض الذي أثبت فشله في قيادته للحزب والدولة (كما قالوا)، وبعد ذلك التقيت كل القيادات، وفي مقدمتهم علي سالم البيض وحيدر العطاس، الذي وقّع حكم إعدامي، لنلتقي في كلّ من دمشق والقاهرة وبيروت، فكيف سقطت تهمة الخيانة على موائد الطعام؟! وقد قدرتُ مبادراتهم وزياراتهم لي، لكنني حزنتُ على مصير الشهداء من الطرفين بعد الذي صار. ولو أنني قُتلت في الأحداث، لمنحوني وسامًا للثورة نهاية 1989م كغيري من القيادات، وهم يستعدون للرحيل إلى صنعاء.

وقد عجزتُ بعد الانتهاء من كتابة مذكراتي عن معرفة من يحرك هذه الأحداث وأنا لا أريد هنا أن أنبش جراحات الماضي والأخطاء التي ارتكبناها جميعًا، وإنما الهدف أن يتعلم الجيل الجديد من دروس هذه التجربة وعبرها، فالمزايدات والتطرف أوصلانا إلى نقل الصراع إلى عدن وأحيائها وحاراتها، وإلى جميع

المحافظات، بل إنّ البعض بدل أن يسعى إلى تحقيق مصالحة حقيقية بين أبناء اليمن شمالًا وجنوبًا، فإنه يطالب بزيارة تل أبيب لتفقّد أحوال اليهود اليمنيين الذين هم ليسوا بحاجة إلى مثل هذه المزايدات والتصريحات، ولكن ذلك بهدف التمهيد للتطبيع لاحقًا مع إسرائيل، كما طبّعت بعض دول المنطقة.

تغريدة لهاني بن بريك، نائب عيدروس الزبيدي، رئيس المجلس الانتقالي الجنوبي

مقبل فقيد الوطن والشعب والأحلام التي ضاعت

عرفتُ مقبل في وقت مبكر من بداية الستينيات من القرن الماضي، إذ جمعتنا حركة القوميين العرب في عدن خلال الاجتماعات السرية ممثلين عن فروعها في المحميات، وكنت وسالم ربيع علي وحسين الجابري ومحمد علي هيثم وناصر صدح وعلي صالح عباد نمثل ما كان يعرف بسلطنة الفضلي وجمهورية (ولاية) دثينة، أو ما يعرف اليوم بـ "أبين" في تلك الاجتماعات التي ضمت أعضاءً من عدن وبقية المحميات.

كانت تلك سنوات البحث عن سبيل لانتزاع الحرية والاستقلال الوطني للجنوب المحتل، وكان مقبل أحد المؤسسين للجبهة القومية، وأحد المشاركين في اتخاذ قرار الكفاح المسلح الذي غيّر وجه اليمن الجنوبي والمنطقة، وخلق معادلة جديدة في صراعنا مع الاستعمار الذي كانت نهايته لمصلحة الثورة والشعب في الجنوب بأفول الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وبتحقيق الاستقلال في 30 نوفمبر 1967، وقيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية دولة مستقلة ذات سيادة لأول مرة منذ احتل الإنكليز عدن قبل 129 عامًا.

أذكر أننا اتخذنا ذلك القرار الخطير في الاجتماع الذي عقدناه في منزل المناضل نور الدين قاسم في المنصورة بالشيخ عثمان، وترأسه المناضل فيصل عبد اللطيف الذي قدم عرضًا حيًا وعميقًا لاتجاه الأحداث والدعوة إلى نقل الكفاح المسلح من ردفان، حيث اندلعت الثورة عام 1963، إلى قلب المستعمرة البريطانية عدن والمحميات، وعندما أبدى البعض ملاحظات على ذلك وخشيته من فشل الثورة، وأنّ الوضع في عدن والتحصينات والبوابات والأسوار والأسلاك قد تمنع دخول الأسلحة إلى المستعمرة، أتذكر مقولة فيصل الشعبي: "إننا إذا انهزمنا في هذه المعركة فسيسجل التاريخ أننا قد حاولنا، وإذا انتصرنا فهو نصر لشعبنا وللأجيال القادمة".

كان المناضل علي صالح عباد من المشاركين في صنع ذلك الحدث التاريخي، وفي الكثير من مفاصل الثورة والتجربة في اليمن الديمقراطية، وفي ترسيخ مفاهيم الدولة المدنية السياسية وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية وانحيازها إلى جماهير الشعب. وكان شريكًا فيها بكل سلبياتها وإيجابياتها، ودفع ككثير من المناضلين الثمن عبر بعض محطاتها التي كانت مؤلمة. وكغيرها من التجارب الإنسانية، لم تكن تخلو من أخطاء ومن سلبيات، شأنها شأن أيّ تجربة في العالم الثالث، وخاصة في اليمن شمالًا وجنوبًا.

في الصورة قادة التنظيم السياسي للجبهة القومية،
ومن بينهم المناضل علي صالح عباد (مقبل)

وكان مقبل يتمتع بملكات فكرية وتنظيمية سخّرها لمصلحة التنظيم السياسي (الجبهة القومية)، ومن بعده الحزب الاشتراكي اليمني عندما كان يمسك الحزب بمقاليد وزمام السلطة في الجنوب، ولعب دورًا عظيمًا في إعادة الحياة إلى الحزب بعد حرب 1994م التي خسر فيها الحزب الشراكة في دولة الوحدة التي كان أحد صنّاعها والمكافحين في سبيلها، وتحمّل مقبل في سبيل ذلك من الأذى والعسف ما تحمّل من النظام الذي أغرته نشوة النصر.

لم تنقطع اتصالاتي بمقبل الذي لم يغادر صنعاء، وظل فيها رغم كل الظروف والحرب والمرض الذي اشتد عليه في الفترة الأخيرة حتى وافاه الأجل.

وكتبتُ عنه في وفاته:

"ماذا إذا لم تجد علاجًا في مستشفى في عاصمة بلادك، أو في مكان في وطنك الجريح الذي تذبحه الحرب منذ خمس سنوات؟!

ماذا إذا لم تجد طائرة تنقلك إلى أقرب مطار تسافر منه إلى الخارج لتلقي العلاج لأن مطارات بلادك مغلقة، والمطاران الوحيدان المتاحان بعيدان مئات الكيلومترات والطريق إليهما دونه الموت بسبب وضعك الحرج، وقد مات كثيرون وهم يحاولون اجتيازه، أو على مقعد الطائرة إذا ساعد أحدهم حظه بعد طول انتظار، وصبر، ومعاناة الحصول على مقعد، أو فرصة علاج في الخارج؟!!

عن موت المناضل الكبير علي صالح عباد (مقبل) أتحدث.

ماذا إذا داهمك الموت وأنت تحاول دون جدوى، وأهلك يحاولون، والقليل النادر من أصدقاء النضال والدرب والوفاء يحاولون، فتعجزهم الظروف وقلة الإمكانات والحرب التي تحصد الأرواح وتغتال كل ما هو جميل وثمين في الوطن، في الوقت الذين بيدهم الربط والعقد والإمكانات يتفرجون على آلامك، كأنهم ينتظرون موتك ليدبجوا بيان نعيك الذي سبق أن كتبوه مسبقًا بنفس الصيغة تقريبًا في عشرات من أمثالك ممن ماتوا بنفس الطريقة، نفس الإهمال ونفس الوعود التي لا تتحقق؟!!

عن موت الصديق ورفيق النضال والدرب الطويل علي صالح عباد (مقبل) المناضل الوطني الكبير والصلب والجسور الذي وافته المنية صبيحة يوم الجمعة 1 مارس 2019 في صنعاء، أتحدث.

ماذا إذا رأيت كل الأحلام التي راودتك ذات يوم في صباك، وآمنت بها، وناضلت في سبيلها، وكنت على استعداد للموت من أجلها، وسقط شهداء وجرحى من حولك لتنتصر الفكرة ويتحقق النصر وتعيش فرحة الاستقلال وتشمّ عبير الحرية مع شعبك العظيم الذي ناضل وقدم التضحيات الجسيمة من أجل هذا اليوم؟!!

عن المناضل (مقبل) وموته أتحدث!

ماذا إذا رأيت كل الأهداف العظيمة التي ناضلت من أجلها مع مناضلي شعبك: الاستقلال، الدولة والوحدة، وقد تحققت كلها في حياتك، فيملأُك الزهو بأنك كنت مساهمًا في كل ذلك مهما كانت هذه المساهمة متواضعة. وتشعر بأنّ كل التضحيات التي قدمتها وغيرك من المناضلين تهون في سبيل الوطن وعزته ورفعته حتى لو ظُلمت وظُلم غيرك في بعض المراحل، أو لم تعد في السلطة ودخلت سجونها كما كنت ذات يوم وخرجت منه ومنها؟!!!

عن المناضل مقبل وسواه من المناضلين والمواطنين أتحدث!

ماذا إذا رأيت أنّ كل الأحلام التي حلمت بها ذات يوم، وشعرت أنها قد تحققت في حياتك وأنت تراها تتبدد أمامك واحدة واحدة وتضيع سنة بعد سنة وعقدًا بعد عقد؟!! وكل الأحلام قد سرقت أمام عينيك، الاستقلال والدولة والوحدة والأمن والاستقرار وحلّ محلها الحرب والخراب واليباب؟!

عن مقبل وموته الذي ترك في قلبي جرحًا عميقًا أتحدث.

عن موت المناضل والإنسان عبد الله صالح البار أتحدث وقد مات ذات يوم ليس ببعيد في المكلا في مرض مشابه وظروف مشابهة لأنه لم يجد علاجًا في بلاده ولا طائرة تنقله للعلاج في الخارج.

عن موت آلاف المواطنين في وطني المكلوم الذين تحصد الحرب والأمراض والجوع أرواحهم الطاهرة أتحدث، وأقول: أوقفوا هذه الحرب، لكي يجد الناس الأمن والسلام، ويجدوا مستشفى يتعالجون فيه من أمراضهم، ومطارًا يسافرون منه إلى الخارج حيث الإمكانات متاحة.

كم هو مؤلم الموت بهذه الطريقة؟!

كم هو الحزن ثقيل على قلوبنا ونحن نعجز عن تقديم العون لصديق أو رفيق درب أو إنسان أيًّا كان، رغم أنك حاولت بقدر ما تستطيع. كنتُ على اتصال مستمر بالفقيد الكبير مقبل بعد أن اشتد عليه المرض للاطمئنان على صحته، وكان آخر اتصال بيني وبينه في نهاية يناير الماضي، وعرضت عليه أن يأتي إلى

بيروت أو القاهرة حيث الإمكانات أفضل، لكنه قال لي إنه يفضل السفر إلى ألمانيا، لأن الطب هناك متقدم والإمكانات أكبر لعلاج حالته، لكنه يحتاج على الأقل إلى طائرة خاصة مجهزة طبيًا لنقله من مطار صنعاء، المغلق منذ الحرب، لحراجة وضعه الصحي الذي لا يحتمل السفر عبر البر، للوصول إلى أقرب مطار يسافر منه إلى ألمانيا، وقد حاولت مع المسؤولين في صنعاء والشرعية في الرياض الذين وعدوا ولم يفوا كعادتهم.. وقد حدث هذا في مرض عبد الله البار أيضًا وغيرهما!!! وماتوا لأن الذين بيدهم الإمكانية تقاعسوا عن ذلك.

رحم الله فقيد الوطن الكبير وأسكنه فسيح جناته وألهمنا وأهله وذويه ومحبيه الصبر والسلوان".

المناضل الشهيد جار الله عمر

المناضل اليمني الكبير عمر الجاوي واقفاً والدكتور صالح باصرة والشهيد جار الله عمر جالسان على يمينه عام ١٩٩٤م.

من مفارقات القدر أن يكون قاتل جار الله عمر شابًا وُلد في عهد ثورة سبتمبر 1962 التي دافع عن بقائها جار الله عمر، وكان مستعدًا لأن يفديها بدمه، وهو يصطف مع شباب ثورة سبتمبر ضد من حاولوا باستماتة إعادة عجلة التاريخ إلى وراء 1962، وشنّوا عليها حروبًا في عدة جبهات بلغت ذروتها في حصار السبعين 1967 – 1968 الذي كان إسهام جار الله فيه كواجب وطني مشهودًا. تشرّب الشاب القاتل ثقافة الكراهية والتكفير في بيئة تنظيمية وتعليمية حضته وبررت له اغتيال الخصوم السياسيين كي ينال الشهادة ويفوز بالجنة ويطبق مبدأ

الأمر بالمعروف، ولكن بالعنف وبالدم، رغم علمه أنّ حزب جار الله كان حينذاك منخرطًا مع حزب المؤتمر الشعبي ومع أحزاب أخرى في تآلف واحد لتحقيق أهداف تصبّ في مصلحة القاتل وجيله وكل الناس، وأنّ هذه الأحزاب قبلت بالتعددية الحزبية ومشروعية الاختلاف في وجهات النظر والتباينات السياسية التي كفلها الدستور ويقرها الدين، وهي جزء لا يتجزأ من قوانين الحياة الاجتماعية والسياسية والطبيعة البشرية. التعددية السياسية بدأت ممارستها لأول مرة في اليمن عام 1990 بعد تحقيق الوحدة اليمنية وطول إنكار من قبل نظامي صنعاء وعدن وجوهرها التعايش بين مختلف التيارات السياسية ونبذ احتكار الحقيقة والامتلاك الحصري للصواب.

وجّه القاتل رصاصة غادرة إلى صدر رجل نجح، فيما لم ينجح فيه غيره بقدرته، أو على الأصح بمعجزته في جمع تيارات يسارية وعروبية وإسلامية تناحرت وتباعدت لعقود، ونجح في جمعها في بوتقة واحدة سُمِّيت "أحزاب اللقاء المشترك" الذي عُرف اختصارًا مع الممارسة بـ"اللقاء المشترك" لتصحيح مسار العمل الوطني بعد أن انحرفت به سلطة 7 يوليو 1994 عن أهداف نضالات اليمنيين التي تجسدت في أهداف ثورتي سبتمبر 1962 وأكتوبر 1963 ومبادئ الوحدة اليمنية.

من وحي معرفتي الوثيقة بجار الله عمر، أؤكد أنه كان صادقًا في قوله وفي فعله، ومتسامحًا ومتساميًا ورجل حوار

ووفاق وحلول وسط، وبواقعية كان يقرأ الواقع وقواه ومنسوب تأثيرها المجتمعي والسياسي، وهو ما حداه إلى فكرة التحالف لمواجهة تغوّل يتصاعد لسلطة همّشت كل ما عداها، وقد تميز جار الله عن كثير من رفاقه باستيعابه وبعمق وبفهم نقدي للثقافتين التقليدية والحداثية، وقناعته الراسخة بأنّ الخلافات السياسية ليست مباراة صفرية. وإذا كانت يد الغدر قد نالت من جسده، فإنها لم تقتل أفكاره وقيمه ومشروعه الوطني. وباختصار، فإن الاغتيال لم ولن يمحو تاريخ رجل شجاع حظي باحترام واسع كان ذا حضور لافت وهيبة واضحة. وهب جار الله حياته كلها لوطنه، وحمل في قلبه قضية الوحدة الوطنية والوحدة اليمنية، ولم يكلّ قَطّ، وحتى لحظة رحيله الأخيرة صباح يوم السبت 28 ديسمبر 2002 من الدعوة إلى النضال السلمي لتحقيق التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أضاع اليمنيون عقودًا من الزمن، وهي غائبة عن جدول أعمال السلطة والخوض فيها بجدية ووفق استراتيجيات واقعية للنهوض بوطن طال أمد تخلفه، ولم تحقق ثورتها الكثير للمواطنين، ويستثنى من ذلك فترة حكم الشهيد إبراهيم الحمدي القصيرة في مداها الزمني والخالدة الذكر في وجدان الناس التي لم يسمح لها بالاستمرار.

وحول هذه الجزئية جاء في المقدمة التي كتبها رفيق عمره الأستاذ محمد عبد السلام منصور لكتاب جار الله "القيمة

التاريخية لمعارك حصار السبعين" التي أعيدت طباعته عام 2003 بعد اغتياله الجبان بعام، تعبيرًا عن الاحترام للشهيد جار الله والتذكير بإحدى مآثره البطولية، أقتبس منها:

"إنّ ضميره انطوى على ثائر يرفض التخلف وأسبابه ويدعو الشعب للأخذ بأسباب العصر كي يصنع لنفسه وطنًا تمنّاه أن يكون حرًا ديمقراطيًا متقدمًا، فنشط من أجل ذلك نشاطًا سياسيًا وثقافيًا دؤوبًا ومنظمًا تفرّغ له منذ شبيبته الأولى، مخلصًا له النية بكليته، فأحسن الأداء، لذلك امتلكت السياسة عليه جماع عقله وروحه، فمحضها همّه وطاقته، حتى تجردت نفسه عن أي همّ من هموم الحياة الشخصية والعائلية، فصارت وكأنها ما خلقت إلا لهموم الوطن مهيّأة للتضحية، فعاش حياته مناضلًا من أجل تحقيق حرية الشعب وتقدمه، مضحيًا بكل شيء، حتى قدّم أخيرًا روحه فداءً لما آمن به، وسقط شهيدًا في هذا الطريق محبًا للوطن مخلصًا للشعب".

خُطِّط لاغتيال جار الله بعناية وباحتراف من قبل عدة عناصر تجمعها كراهية الحزب الاشتراكي وأيقونته جار الله عمر، لتحقيق عدة أهداف، من بينها خلق انشقاق في "اللقاء المشترك" الذي مثّل تهديدًا حقيقيًا لسلطة 7 يوليو، ومَن بقي من حلفائها الذين كانوا يضعون قدمًا في تنظيمهم، وقدمًا أخرى مع السلطة، وكان حطبهم هو ذلك الساذج القاتل الذي صدقهم وسار وراء رغباتهم الشريرة الكارهة لكل من يختلفون

معها. وفي الوقت الذي كان يؤكد فيه جار الله من فوق المنبر والقاتل يسمعه بأذنين صمّاوين، وقبل دقائق معدودة من استشهاده، ضرورة رفض ثقافة التعصب والعنف ونبذ التطرف وأهمية التقاء وتكاتف جميع الأيادي المخلصة لتبني معًا يمنًا قويًا جديدًا يتسع لكل أبنائه ويخدم مصالح كل هؤلاء.

لم يكن جار الله يعرف أنّ كلمته التاريخية آخر ما يتحدث به مع الشعب، وأنها ستصبح وصية خالدة لكل من يريد بناء وطن يتعايش ويتصالح فيه بعيدًا عن العصبوية وتغليب المصالح الفئوية الضيقة التي لا يمكن إدارة الظهر لها عندما تكون مشروعة وفي إطار تغليب المصالح العامة عليها. لخصت كلمته التي شخصت الوضع بدقة وموضوعية وبأفق مستقبلي وعَرّته من ورق التوت بـ"الوصايا السبع " لجار الله عمر. وكانت كلمته هي الأخيرة، ولكن الخالدة. هكذا كان الإجماع الوطني عليها يومها وحتى اليوم بعد مرور ما يقارب العشرين عامًا على اغتياله الجبان.

عرفتُ جار الله عمر في بداية السبعينيات من القرن الماضي حين جاء من شمال اليمن إلى عدن التي احتضنت بابتسامة وترحاب كل اليمنيين الهاربين من النظام في الشمال، ومنهم أيضًا عدد كبير من المناضلين، في مقدمتهم سلطان أحمد عمر ويحيى الشامي وأحمد علي السلامي وعبد الله صالح عبده الذين شاركوا في تأسيس الجبهة الوطنية في 11 فبراير عام 1976. كان

لجار الله حيثما حلّ حضور مميز لبساطته وتواضعه وسرعة بديهيته وثقافته الموسوعية وحديثه المسبوك وحجته المقنعة النابعة من القراءة الفطنة للواقع، وليس من الكتب وحدها، ومواقفه المتوازنة البعيدة عن الشطط والتطرف.

ولأنه كان ضد العنف والكراهية، فقد خبّأ في منزله ووفّر حماية لكثير من القياديين بعد أحداث 1986، ومنهم خصومه، وكان كأحد المكتوين بنيران الصراعات العبثية الداعي بعد ذلك إلى التسامح والتصالح التي ترجمها مناضلون آخرون عمليًا عام 2006، وأعلنوا أنّ الصراع كحل للخلافات والتباينات يعتبر من الماضي ولا عودة إليه، وأنّ يوم 13 يناير من كل عام يوم لاستيعاب درس 13 يناير وللتسامح والتصالح في كل أنحاء اليمن، ولطيّ نهائي وأبدي لصفحة الصراعات المسلحة لتسوية الخلافات السياسية.

خاض جار الله، رحمه الله، الكفاح على مختلف الجبهات، وسجّل بصماته في تاريخ نضال الشعب اليمني، وقد كان من أوائل الضباط الذين انخرطوا في صنعاء بعد ثورة سبتمبر بوقت قصير في صفوف حركة القوميين العرب (فرع اليمن)، وانضمّ إليها عن قناعة، متسلحًا أيضًا بثقافة عميقة تشرّبها في المدرسة الشمسية بذمار، وفي المدرسة العلمية بصنعاء قبل ثورة سبتمبر، وحمل السلاح للدفاع عن الثورة مع أبناء الشعب اليمني وأبناء مصر العربية، وشارك في هزيمة حصار صنعاء نوفمبر 1967 –

فبراير 1968، وقد سجل تجربته وتجربة المدافعين عن صنعاء في حصار السبعين يومًا في كتاب بعنوان "القيمة التاريخية لمعارك حصار السبعين"، كذلك أسهم مع المناضلين من رفاقه في تأسيس الحزب الديمقراطي الثوري اليمني عام 1968م في قرية حارات، الأعبوس، الحجرية، وانتُخب رغم صغر سنّه عضوًا في لجنته المركزية، وخلال إقامته في الجنوب شارك في تأسيس ما سُمِّي حينها "جهود توحيد فصائل العمل"، وقاد الجبهة الوطنية للدفاع عن النفس وليس للعدوان جراء الهجمات العسكرية لنظام صنعاء التي بدأت في 7 أكتوبر 1972، ودُمرت عدة قرى في المنطقة الوسطى، وهُجِّر الآلاف من سكانها إلى الجنوب. وفي الجنوب، كان جار الله هو مَن يرعى ويشرف على حُسن أحوال هؤلاء معيشيًا وتعليميًا، إلخ. جار الله لم يستخدم السلاح قطّ، وكان من جهة أخرى لا يرى في نشاط الجبهة الوطنية غاية في حد ذاته، بل ضمانة لعدم تمادي النظام في الشمال بالقمع وقتل معارضيه وتدمير منازلهم وقراهم، وكانت مدعومة ماليًا من دول في الجوار ضد النظام في الجنوب، وانطلى عليها زعم كاذب بأنّ نظام صنعاء يدافع عنها بالنيابة ضد الشيوعية. وأسهمت جهود جار الله المتميزة فيما بعد في تمهيد الطريق لقيام الحزب الاشتراكي اليمني عام 1978. ذلك التوحيد أسهم دون شك في أن يلعب الاشتراكي مع حزب المؤتمر الشعبي العام وبقية القوى الوطنية اليمنية دورًا وطنيًا

مهمًا في تحقيق الوحدة اليمنية في مايو 1990م. وأتذكر جيدًا هنا قوله إنّ الوحدة اليمنية تُطرَح كقضية واقعية وعقلية في ذات الوقت لتوفير فرصة لنقلة حضارية للمجتمع اليمني تخرجه من متاهات التخلف وأدغاله المظلمة إلى ساحة العصر بأنوار تقدمه المادي والثقافي والسياسي، وفي هذا السياق كان يؤكد دائمًا أهمية قيام يمن ديمقراطي موحد مزدهر خالٍ من الحقد والثأر والفساد والكراهية والطائفية.

كان جار الله عمر 1942م –2002م مناضلًا سياسيًا يمنيًا يساريًا عركته التجارب وأنضجته، والكثير منها مُرّ بعد ثورة سبتمبر وقبل الوحدة اليمنية وبعدها، وقام بدوره خير قيام في إعادة وحدة الوطن اليمني، وشارك في سلطة دولة الوحدة كوزير للثقافة، وقد أدرك في وقت مبكر أن نظام دولة الوحدة مختل ومعوَّج وتقوده عقلية ستقاتل من أجل عدم إشراك غيرها في صنع القرار، وأنه ليس كل من وقّعوا على وثيقة قيامها على قلب رجل واحد، وطالب عام 1993، بعد إحساسه بالخيبة، بخروج الحزب الاشتراكي إلى صفوف المعارضة. إنّ ما أعقب هذا العام من تطورات، شكّل البداية لرغبة دفينة في وأد دولة الوحدة، والمجال هنا لا يتسع لذكر تفاصيل ذلك، بما فيها حرب 1994. بعد تلك الحرب المشؤومة، واصل جار الله نضاله في صنعاء بعد هجرة قسرية في مصر العروبة، عاد بعدها إلى اليمن لإعادة بناء الحزب الاشتراكي الذي أضعفته حرب 1994

وما تلاها من سياسات لنظام الرئيس الراحل صالح وحلفائه، وكان دائم البحث عن مخارج عملية وقابلة للتطبيق لأزمة النظام والمعارضة معًا.

وتوّج نضاله الطويل بتأسيس اللقاء المشترك الذي وصفه في خطابه الأخير بأنه إحدى أهمّ الحقائق السياسية اليمنية منذ حرب صيف 1994م، وقد كان بالفعل يجسد هذه الحقيقة، رغم الصعوبات والعراقيل واستمرار الاختلافات الأيديولوجية والسياسية. وقد وُصف جار الله بمهندس تكتل "أحزاب اللقاء المشترك"، المنبر السياسي الذي ضمّ ووحّد قوى سياسية متباينة وشبه متباينة في رؤاها وأيديولوجياتها، يئست من إقناع النظام منفردة بالقيام بأيّ إصلاح اقتصادي وسياسي، وقد شخّص جار الله هذا الفشل في خطبة الوداع بقوله إنّ الديمقراطية شاخت مبكرًا.

اغتيل جار الله في 28 ديسمبر 2002م بعد أن أسكتت رصاصتان قلبه أمام أكثر من 4000 شخص، هم أعضاء وضيوف المؤتمر العام الثالث لحزب الإصلاح الإسلامي وأمام شاشات التلفزة ووسائل الإعلام المختلفة بعد دقائق من إلقائه كلمة قوية نيابة عن الحزب الاشتراكي، وقد قُبض فورًا على القاتل التكفيري، الذي تربى على ثقافة الكراهية في مؤسسات تعليمية وحزبية معروفة، وكان يؤمن بأنّ الاغتيال هو "الحل الفردي الممكن" لمن وصفهم بالعلمانيين الذين ينكرون تطبيق

الشريعة وتنفيذ عقوبة الإعدام، وارتكب جريمته بدم بارد نيابة عن الغير. وكشف القاتل عن مخطط لاغتيال مجموعة من السياسيين القياديين، وقد حُكم عليه بالإعدام جراء جريمته بعد محاكمة طعن محامو الشهيد في عدالتها ومهنيتها ونزاهتها وشمولها لكل المشتبه فيهم بالتخطيط والتنفيذ والتمويل. ونذكر هنا أنه بعد يومين فقط ارتكب رفيقه في التكفير والقتل عابد عبد الرزاق كامل جريمة قتل ثلاثة أطباء أمريكيين كانوا يعملون في المستشفى المعمداني بجبلة، الذي كان يقدم خدمة طبية متميزة ومجانية لقرابة عشرة آلاف يمني سنويًا، بتهمة باطلة لم تثبت، وهي أنّ الأطباء كانوا يحوّلون سكان المدينة من الإسلام إلى المسيحية.

كان همّ جار الله الأسمى أن يبقى الوطن حضنًا آمنًا لكل أبنائه، وموحدًا ومتطورًا. ولأنّ الجنوب كان دائمًا مفتاح الوحدة، وهو بالفعل وليس بالادعاء أول من حمل رايتها وسعى إلى تحقيقها، فقد اختار اللقاء المشترك مرشحًا رئاسيًا جنوبيًا عُرف بالنزاهة والوطنية لخوض معركة الانتخابات الرئاسية عام 2006م، المستقل فيصل بن شملان الذي حصل على 33٪ من الأصوات صحيحة، وهي ليس كل ما حصل عليه.

اختلفت رؤانا في بعض مراحل العمل السياسي، ومرت علاقتنا بفترات توافق واختلاف، ولكن ذلك لم يفسد مودتنا، وظل كل منا يكنّ للآخر كل احترام، لأن جار الله المفكر

والمناضل لم يكن يعرف الخصومة السياسية، وكان صادقًا في ما كان يعتقده، ووفيًا لمبادئه التي طوعها لخدمة مشروعه الوطني، وقد حَرَص كل منّا على أن نبقى على اتصال حتى لو اختلفنا بعد مغادرتي السلطة عام 1986، وكان يقف ضد تيار قوي ناصبني العداء. وأذكر حين استشارني الرئيس علي عبد الله صالح بشأن أهمّ الشخصيات التي كان عليه أن يلتقيها في زيارته المشهورة لعدن في نوفمبرعام 1989م، التي تُوِّجت بتوقيع بيان الوحدة في عدن، أنني وضعت اسم جار الله عمر في مقدمة قائمة الشخصيات التي أشرت عليه بلقائها للتعجيل في تحقيق الوحدة اليمنية. كنت أؤمن بتأثيره الفاعل في القرار السياسي، وأدرك دوره الهام والمنتظر في تحقيق الوحدة اليمنية مع بقية قيادات الحزب الاشتراكي اليمني. وقد عمل الرئيس صالح بنصيحتي، وطلب من السيد علي سالم البيض ترتيب لقاء بينه وبين جار الله عمر ويحيى الشامي، وبحضوره، وحصل هذا اللقاء في منزل علي سالم البيض الذي يطل على كريتر ومعاشيق وقلعة صيرة التاريخية، وعلمتُ لاحقًا أنّ حراسات البيض وعلي عبد الله صالح منعتهما وهما في أسفل معاشيق من الدخول بالسيارة، ما اضطرهما إلى تسلّق الجبل سيرًا على الأقدام، وقد انزعج جار الله والشامي من هذا السلوك، ولكن اعتُذِر لهما بأنّ هذه الإجراءات لأسباب أمنية، لأنهم يخشون دخول أية سيارات

تحمل متفجرات لنسف منزل البيض وقيادات الشمال والجنوب.

وعند عودته إلى صنعاء، أخبرني الرئيس صالح أنّ جار الله كان يسأل عني كثيرًا عندما يخرج البيض من مكان الاجتماع ويتوقف عند عودته. وكما توقعت، كان دور جار الله مؤثرًا في إقناع صالح بربط قيام الوحدة بالتعددية السياسية وبالديمقراطية وإقناع البيض ورفاقه بالقبول بالوحدة التي كنّا نحن مع تحقيقها، ولكن كدولة اتحادية من إقليمين. وفي رأينا، أنه لو حصل ذلك، لتجنبت اليمن الكثير من التعقيدات والمصاعب التي أوصلتها أولًا إلى حرب، 1994 ثم إلى الحرب الحالية التي بدأت عام 2015.

كنا نتوقع أن الوحدة اليمنية ستضمد الجراحات وتجبّ ما قبلها، وستكون فاتحة مصالحة وطنية شاملة، ولكن القيادة في عدن راوحت مكانها، وفضّلت استمرار الانقسام في الحزب الاشتراكي التي عبّر عنها استمرار ثنائية تسمية قياداته وكوادره بـ "الزمرة والطغمة". ليس هذا فقط، بل أصرّت على إخراجي شخصيًا من اليمن. كان جار الله عمر ضد إخراجنا من وطننا إلى خارج اليمن، وعندما أصدرت بيانًا أعلنتُ فيه استعدادي للخروج من صنعاء، علّق جار الله عمر على البيان بقوله: "إنه بمثابة القنبلة على الطرف الآخر".

حصلت مغادرتي وأنا مرفوع الرأس، وعوملتُ معاملة كريمة، وأُحِطت باهتمام شعبي واحترام رسمي. وبعدها تواصلت حبال الود والتشاور وتبادل الآراء بيننا، وخاصة مع تعثّر الوحدة. والتقيت جار الله عدة مرات في دمشق وأبو ظبي وبيروت والقاهرة وصنعاء، وفي كل لقاء كان يؤكد حرصه على وحدة الحزب الاشتراكي اليمني والاهتمام بكوادره ولمّ شمله، وعلى الوحدة الوطنية ووحدة اليمن وأمنها واستقرارها وإزالة الآثار السلبية المدمرة للصراعات وللحروب التي شهدتها اليمن، وآخرها حرب 1994.

أتذكر جيدًا المرة الأخيرة التي رأيتُه فيها في الإمارات قبل اغتياله ببضعة أسابيع. بدا مهمومًا يحمل حزن وطن كامل على كتفيه، وتبادلنا الحديث في أهمية استمرار الحوار والاتصالات مع الأطراف كافة لمصلحة الوحدة الوطنية واليمنية، وقبل أن يودعني عانقني بحرارة وكأنه كان يشعر بأنه لقاؤنا الأخير. وقبل سفره بليلة، تحدثت معه وقلت له إنّ النظام في صنعاء سيتخلص منك لأنك تجاوزت الخطوط الحمراء، وهي:

أولًا: أداؤك لفريضة الحج، ولقاؤك الأمير سلطان بن عبد العزيز، وزير الدفاع، الذي رتّبه مجاهد القهالي على هامش حفل إفطار في شهر رمضان الكريم، وفاتَكَ إدراك مخاطر ذلك، لأنه كان عليك أن تحيط الرئيس صالح علمًا مسبقًا، حتى بأدائك

لفريضة الحج، وتحصل على إذنه، ولن يشفع لك القول إنك ذهبتَ لأداء مناسك الحج فقط.

ثانيًا: ما يُقال، صحيحًا كان أو خطًا، عن علاقات أقمتَها مع الأمريكان عبر شخصيات أكاديمية أو مؤسسات أمريكية، أنا لا أعتدّ بها ولا أصدقها. ومع هذا، فإن العلاقة مع أمريكا حساسة وتُعَدّ تجاوزًا لا يمكن الرئيس السكوت عنه، لأنه يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنّ أمريكا هي صانعة الحكام، وفي ذات الوقت القادرة وحدها على إسقاطهم، والعلاقة معها تظل حكرًا عليه أو من يمحضه ثقته أو بعضها ويطمئن إليه.

ثالثًا: يُجمع الناس على أنك مهندس اللقاء المشترك، وأنك نجحت في أن تجمع لأول مرة في تاريخ اليمن السياسي المعاصر، وفي مرحلة حساسة، حزبين لم يكن يتوقع أحد أن يأتلفا وأن يتحالفا حول برنامج سياسي مرحلي مشترك، هما الحزب الاشتراكي اليمني، والخصم الجديد لصالح، حزب الإصلاح وحليفه في حرب 1994 وحروب المنطقة الوسطى، ضد الاشتراكي وخروج هذا الحزب عن طاعته وفضّ تحالفه مع المؤتمر الشعبي العام، وأنه لولا مكانتك، لما جرؤ الناصريون وغيرهم على وضع أيديهم بأيدي الإصلاحيين. إنّ الرئيس لن يغفر لك مثل هذا الاختراق الخطير وتشكيل جبهة قوية في مواجهته ومواجهة نظامه.

ونصحته بتأجيل سفره، لكنه أصرّ على السفر صباح اليوم التالي، لأنه قد أبلغ زوجته أم قيس بأنه سيصل إلى صنعاء غدًا، وسيكون في استقباله صديقه ورفيقه في النضال المشترك الدكتورعبد القدوس المضواحي، الأمين العام للحزب الناصري اليمني. ومرةً أخرى كررت النصيحة، قائلًا له: "أنا لا أمزح، ولكن لدي إحساسًا أشعر بأنه لن يخذلني، بأن خروجك هذا من اليمن سيكون الخروج الأخير، وعرضت عليه أن نقضي إجازة عيد الأضحى معًا في أبو ظبي، أو نذهب معًا إلى دمشق لمناقشة الأفكار التي تضمنها كتاب الوحدة اليمنية. وفي ختام الحديث فاجأني بالقول بأن النظام سيقتلني قبله.

فقلت له: "أنا لن أسلّم نفسي بعد اليوم للنظام في صنعاء، بعد زيارتي لها عام 1996م، وحيث جرت محاولة اغتيالي فيها، ولكنني أخشى على حياتك".

كنتُ يوم استشهاده الحزين في أبو ظبي، ولا أدري لماذا تراءى لي فجأة وجهه، وألحّ عليّ طيفه، حتى توقفت عن قراءة جريدة كانت بين يديّ، وقلت للصديق أحمد المجيدي إنني أشعر بقلق على جار الله، وقبل أن يردّ رنّ جرس الهاتف ليخبرني مجاهد القهالي أنّ جار الله عمر قد اغتيل، ومرّت فترة طويلة قبل أن أشفى من الضربة والصدمة الموجعة التي تلقيناها جميعًا برحيله.

كان فقدانه خسارة كبيرة للوطن والأمة، وحقًا لقد فقد الشعب ذلك الرجل الشريف الذي عاش حياة متواضعة، ولم يكن له أي تطلعات شخصية، ومات فقيرًا، لكنه امتلك ثروة حب الجماهير الصادق، التي خرج أكثر من مليون منها في تشييعه إلى مثواه الأخير في صنعاء وعدة مدن وقرى أخرى، وهي الأضخم في تاريخ اليمن كله.

برع جار الله كرجل حوار يقبل آراء الآخرين ويحترم قناعاتهم ويناقشها، لكن كانت لديه أساسيات مقدسة غير قابلة للنقاش بالنسبة إليه، كالوحدة والديمقراطية وحقوق الإنسان، ومبدأ التداول السلمي للسلطة. إني كلما أتذكره، يزداد يقيني وجزمي بأن أفكاره ستنتصر، رغم كل التحديات المجتمعية والمعارضة السياسية لها، إذ ليس لنا أولًا وأخيرًا إلا الحوار السياسي لنضمّد به جراحات الصراعات والحروب في الشمال والجنوب وبين الشمال والجنوب قبل الوحدة اليمنية وبعدها، ليس في اليمن فحسب، بل في المنطقة العربية والعالم كله. الكل بحاجة إلى الحوار والاحتكام إلى لغة العقل والحكمة بدلًا من لغة السلاح والعنف التي لا تجلب إلا الخراب والدمار والتخلف للشعب.

إنّ الصراعات والتوترات والحروب والإرهاب وعدم الاستقرار التي نشهدها اليوم 2021م في العراق ولبنان وسورية وليبيا واليمن ودارفور والصومال، وحتى أفغانستان، لا يمكن

أن تنتهي إلا بالتنمية الشاملة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ونشر العدل والمساواة والقضاء على الفقر والتخلف وتفويت الفرصة على من يريدون تفكيك أوطاننا واحدًا بعد آخر.

وعندما أتذكر دور جار الله عمر في الحوارات التي كان يجريها خارج اليمن، وفي عضويته في المؤتمر القومي العربي والمؤتمر القومي الإسلامي، ثم جهده الذي بدأه عام 2001 بإدخال الحزب الاشتراكي إلى عضوية الاشتراكية الدولية (مجموعة الاشتراكيين الديمقراطيين الدولية)، ونجاحه الذي مكّنه من حضور مؤتمر سنوي للمجموعة في مدريد عام 2002، يجول بخاطري أنه بقدر ما كان حزبه واليمن في حدقات عينيه في تلك المؤتمرات، فإنّ قضية فلسطين كانت دائمًا في وجدانه، وقد وقف طوال عمره مع حق شعبها في التخلص من أطول احتلال وأبغضه في التاريخ، ومع نيله الحرية وبناء الدولة الفلسطينية التامة الاستقلال، وعاصمتها القدس الشريف، وكان هذا موقفه من الاحتلال الإسرائيلي للجولان العربي السوري المحتل ومزارع شبعا في جنوب لبنان، لأن الحرية لديه كانت لا تتجزأ.

فقيد الوطن عبد القدوس المضواحي

لقد كان عبد القدوس المضواحي صديقًا صدوقًا صادق الوعد منصفًا، سواء على الصعيد الإنساني وعلاقاته التي يضفي عليها حميمية لا نظير لها، أو بأعماله وإنجازاته وبصماته العلمية والعملية. فالطبيب المبدع كان سياسيًا باقتدار، ووطنيًا بامتياز، اجتمعت فيه صفات نبيلة، وحاز قدرات جمّة مكنته من القيام بأدوار فعالة على المستوى اليمني والعربي والإسلامي.

لقد عاش أبو إيهاب، وهو يهب وقته وجهده وطاقته للثورة والوطن الوحدة والحرية والكرامة وقدم في سبيل ذلك أغلى ما يملك، فكان المناضل المقارع للسلطة منذ وقت مبكر، مرورًا

بمشاركته في قيادة حركة 13 يناير الناصرية، وكان قبلها وبعدها قد عانى من المطاردة والمراقبة اللتين أبعدتاه عن وطنه، فعاد، فأبعدتاه، ولم يملّ أو يكلّ، وهو يقنع شعبه بضرورة الثورة على سلطة نهبت ثورة سبتمبر وحوّلتها إلى أسطوانة مشروخة تدقّ عليها رؤوس المعارضين دون تحقيق لأهدافها. وها هو يرحل عنا، وقد أسمعت الثورة التي نادى لها باكرًا كل من به صمم، فلعله وقد سمع صوتها - وأنا على علم باتصاله المستمر بساحات التغيير والحرية حتى آخر يوم التقيته - قد أمّن عليها وهو يصغي إلى شباب عقدوا العزم وقرروا ألّا يبرحوا الساحات حتى استكمال التغيير المنشود، ولا سيما أنّ الرجل قد أدرك قبل غيره أهمية التعليم ودوره في ترسيخ التطلع إلى الأفضل والتحرر من قيود الماضي، فكان المضواحي هرمًا من أهرام التعليم في اليمن، وكان اهتمامه وانشغاله بالجامعات يضاهي مشاغله الأخرى في شتى مجالات الحياة، وكان الكلام حينها قبل الالتفاف على ثورات التغيير في صنعاء والمنطقة العربية.

قبل هذا وذلك، كان عبد القدوس يشعر بقدسية الوحدة اليمنية، بل والعربية والإسلامية، وهو الوطني النبيل والقومي الناصري المخضرم ورجل الفكر الإسلامي المعتدل والمنفتح، ولكن شعوره بقدسيتها لم يكن على طريقة وحدة معمَّدة بالدم ومغمَّسة بالضم، بل وحدة الشراكة والتكامل والإخاء والتعاون في السراء والضراء، وقد عبّر عن ذلك بطريقته التي

يعمد فيها إلى وضع البلسم على الجرح، وذلك خير ما يصنعه الطبيب.

لم يكن المضواحي يوفر وسيلة من أجل التغيير، فللرجل دوره المشهود في تشكيل تكتل اللقاء المشترك مع رفيق نضاله جار الله عمر، عندما لم يكن من خيار لمواجهة السلطة سوى الخيار السياسي والتزام قواعد اللعبة لترسيخ المنافسة وكشف ألاعيب النظام بطرق حضارية أرست نوعًا من الوعي الجماهيري الذي شكل مقدمة طبيعية لاندلاع ثورة الشباب السلمية، وقبلها كان الجنوب يعلن رفضه للظلم في حراك سلمي سبق الثورات العربية، وقدّم من التضحيات الجسام ما فاقها، ولا يزال.

يطول الحديث عن الراحل العظيم، الدكتور عبد القدوس المضواحي، وما هذه الاجتماعات المتكررة لخلوده إلا أصدق تعبير عن أنه قامة كبيرة تستحق مؤتمرات وندوات عديدة، لتقول الشيء القليل في حقه الكثير والكثير.

الوداع الأخير

لم أكن أعرف في آخر مرة التقينا، قبل وفاته ببضعة أيام، أنها ستكون المرة الأخيرة التي أقابله فيها. صديقي العزيز عبد القدوس، صديق السنوات الطوال، أكثر من ثلاثين عامًا، تراكم علاقة إنسانية ونضالية عظيمة، وصداقة فريدة كان عمادها وفاءه الكبير وأُلفته التي لم أعهدها في كثير من البشر غيره.

كان يومًا قاهريًا باردًا من نهاية ديسمبر2011، وكنتُ في طريقي إلى مطار القاهرة متوجهًا إلى دمشق، اتصلت به لأودعه هاتفيًا نظرًا لضيق الوقت، لكنه – وكأنه كان يشعر أننا لن نلتقي ثانية – أصرّ على اللقاء.

تأثرت كثيرًا وأنا أراه مقبلًا عليّ ببشاشته وودّه المحبَّبين، خارجًا من منزله الذي يقع بين المطار والبحر الأعظم (مقر سكني)، حاملًا معطفه وقبعته ليقدمهما إليّ، وهو يقول برجاء صادق: "أخاف عليك برودة الجو في الشام، أرجوك أن تأخذهما معك... لن تسافر من دونهما".

حضنته يومها، وقد أعطاني الدنيا بمجرد اللفتة، ولم تكن غريبة عليه هو الذي عوّد من حوله دائمًا أن يكون شلال وُدّ وعطاء.

وقد حرصت بعد وفاته على أن أشارك في الذكرى الأربعينية لوفاته في مقرّ حزب التجمع المصري في القاهرة، بحضور عدد كبير من خيرة الشخصيات الوطنية السياسية والفكرية والإعلامية، وأصدقائه وأحبابه وأفراد عائلته، إذ أتوا من كل مكان في أربعينية هذه القامة اليمنية الشامخة، التي قلّ نظيرها وصحّ فيها قول المتنبي:

وَأَفجَعُ مَن فَقَدنا مَن وَجَدنا ... قُبَيلَ الفَقدِ مَفقودَ المِثالِ

يُدَفِّنُ بَعضُنا بَعضًا وَتَمشي ... أَواخِرُنا عَلى هامِ الأَوالي

وقد شاركتُ في هذا الحفل بكلمة عن فقيد الوطن والشعب، وقلتُ:

"كلنا راحلون، وتبقى أعمالنا وكذلك الذكريات، ولا أعتقد أن أحدًا يذكرك إلا محبًا وكريمًا وصديقًا ومناضلًا... لم تتغير أبدًا منذ عرفتك أول مرة في عدن قبل أكثر من ربع قرن... وجدتك أنت ذاتك في كل مكان، صنعاء ودمشق والقاهرة وبيروت، وفي كل ظرف ومؤتمر، وفي كل المحطات، كنتَ دائمًا صافيًا كجدول رقراقًا وثابتًا على مبادئك كجلمود صخر، حضور سمح واسع الآفاق عميق الخبرة...

عبد القدوس أفتقدك... كلنا نفتقدك... يعزيني أن أراك في وجوه عائلتك ومحبيك... وفي بصماتك الدافئة حيث عبرت... في استمرارك عبر منجزات نضالك الطويل... لكن فراغ غيابك لا يملأه أحد ...".

عمر الجاوي

يا لهذا الجاوي عمر.. ويا لهذا العمر الجاوي؟!

ماذا أقول عنه؟ وماذا أكتب...؟!

ليس لغزًا حتى يحار المرء فيه. بسيط إلى أبعد حدود البساطة، بحيث يأسرك من أول لقاء. وتحبه حتى دون أن تراه! وتحبه أكثر بعد أن تتعرف إليه. وعميق إلى أبعد حدود العمق، لكن لا تحتاج إلى وقت كثير لكي تسبر أغواره وتفتح مغاليقه لشدة ما هو واضح وصريح ويقدم لك نفسه دون لفّ ولا دوران.

كيف استطاع أن يكون وطنيًا وحدويًا إلى درجة العشق، وهو من أعلى درجات الحب؟ وأمميًا بذات الدرجة من العشق

والوله؟! وكيف استطاع أن يصرّح بعشقه ذاك في ذات الوقت على رؤوس الأشهاد؟! فيعلن في صنعاء: "أنا أممي، لكن قبل هذا وذاك أنا يماني وحدوي"! وصنعاء يومئذ لا تطيق ماركس ولا الماركسية، وتعتبر كل من ينتمي إليهما ملحدًا وشيوعيًا! ولا تطيق الوحدة إلا بقدر ما تكون جسر عبور إلى الجنوب يعيد ما تعتبره فرعًا إلى الأصل!! ويعلن في عدن: "أنا وطني وحدوي وأممي في ذات الوقت"، وعدن يومئذ تحب سماع كل صوت ينتمي إلى الاشتراكية وإلى ماركس، لكنها لا تطيق الوحدة على طريقة صنعاء، وتريدها على طريقتها ونهجها. ومع ذلك استطاع الجاوي أن يكون مقبولًا في صنعاء، وفي عدن في الوقت نفسه، وإن بدرجات؟!!

شيئان ظل يدافع عنهما، ولا يتنازل عنهما، الوحدة والحرية. وبقدر ما كان وحدويًا عظيمًا مناضلًا من أجلها، كان مدافعًا عنيدًا عن الحرية، مدافعًا عن الحريات وعن الكلمة، نصيرًا للمظلومين أينما كانوا، في شمال أو في جنوب، في مشرق أو في مغرب.

قلمه وصوته حاضران للدفاع عن المعتقلين في سبيل الحرية، لا يخشى في ذلك لومة لائم، ولا سطوة حاكم.

عمر عبد الله الجاوي (1938م)، وهو سياسي، إداري ومؤلف. وُلد في الوهط بمديرية تبن في محافظة لحج، وتلقى دراسته الابتدائية في مدارس لحج، ثم عمل مدرسًا لمدة ثلاث

سنوات في مدرسة مدينة (الوهط) الابتدائية. انتقل بعد ذلك إلى مدينة تعز، ومنها سافر في منحة دراسية إلى القاهرة، حيث درس فيها الإعدادية والثانوية، وشارك في تأسيس اتحاد الطلبة اليمنيين هناك، وانتُخب عضوًا في الهيئة الإدارية لهذا الاتحاد في مؤتمره التأسيسي عام 1956م. وعُرف بميوله الماركسية، فطُرد مع عدد من زملائه من قبل السلطات المصرية بسبب ذلك، وعاد إلى مدينة تعز عام 1958م، وبعد فترة حصل على منحة دراسية إلى موسكو، حيث أنهى دراسته الجامعية، وحصل على درجة الماجستير في الصحافة عام 1966م.

شارك في تأسيس رابطة طلاب اليمن، وانتُخب رئيسًا لها في مؤتمرها الأول عام 1966م، ثم عاد إلى اليمن وعمل مدرسًا في مدرسة (المركز الحربي) في مدينة تعز، ثم عُيّن رئيسًا لصحيفة الثورة اليومية الصادرة في مدينة صنعاء. وفي أثناء ذلك، شارك في تأسيس وكالة الأنباء اليمنية في مدينة صنعاء، وتولى رئاستها، كذلك شارك في تأسيس وقيادة المقاومة الشعبية للدفاع عن الثورة الجمهورية في أثناء حصار القوات الملكية لمدينة صنعاء عام 1968م، وفي تأسيس حزب العمال والفلاحين عام 1969م، ثم سافر إلى موسكو لمواصلة دراسته العليا، وسجَّل مشروعه لرسالة الدكتوراه بعنوان: «التحرير الإعلامي في البلدان النامية»، إلا أنه لم يواصل دراسته، وعاد إلى مدينة عدن، وعمل مديرًا للإذاعة والتلفزيون، وعمل مع بعض رفاقه على تأسيس

تنظيم سياسي باسم (حزب العمل اليمني) عام 1971م، ثم ترك العمل الحزبي وسعى لتأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وأصدر مجلة عن هذا الاتحاد باسم (الحكمة)، وتولى رئاسة تحريرها، وانتُخب أمينًا عامًا لهذا الاتحاد منذ تأسيسه حتى عام 1990م. وشارك أيضًا في صياغة دستور دولة الوحدة من خلال عمله عضوًا في اللجنة الدستورية التي شُكلت عام 1972م لهذا الغرض.

وفي عام 1989م دعا إلى تأسيس المجلس اليمني للمنظمات المهنية والإبداعية، وتولى رئاسة هذا المجلس. وبعد قيام الوحدة اليمنية عام 1990م، استأنف نشاطه السياسي والحزبي بتأسيس حزب (التجمع الوحدوي اليمني)، وأصدر صحيفة (التجمع) الناطقة باسم هذا الحزب، وقد انتُخب أمينًا عامًا له، وعُيّن في العام نفسه مستشارًا لمجلس الرئاسة بدرجة وزير.

في عام 1993م شارك في لجنة الحوار الوطني التي كُلفت صياغة وثيقة العهد والاتفاق (1994م) لإنهاء الأزمة السياسية التي كانت قائمة بين الأطراف السياسية آنذاك، وقد شارك في التوقيع عليها مع زعماء التنظيمات والأحزاب السياسية في العاصمة الأردنية عمّان يوم 20 فبراير 1994م.

تعرفتُ إليه لأول مرة سنة 1967م، وشعرتُ بأنّ هناك شيئًا ما في هذا الرجل! وقتها لم يكن صيت عمر الجاوي كبيرًا، مجرد طالب طُرد من مصر عام 1958 في ذروة نظام عبد الناصر، مع

عدد من زملائه، بتهمة أنهم شيوعيون. وعندما علم الإمام أحمد بقصتهم، قال: ما داموا كذلك، فلنرسلهم إلى بلاد الشيوعيين! فأرسل عمر إلى الاتحاد السوفييتي، وبقية زملائه إلى دول شيوعية أخرى. البعض اعتبر ذلك حكمة من الإمام أو نكاية بعبد الناصر! والبعض اعتبره ذكاءً وخبثًا منه، فبدل أن يسببوا له صداعًا في مملكته، أرسلهم إلى حيث ينتمون عقائديًا، وهكذا يضرب عصفورين بحجر.

المهم أنّ الطالب المشاكس الذي طردته أجهزة عبد الناصر القومي، وأرسله الإمام الكهنوتي إلى موسكو، أنهى دراسته بماجستير صحافة من جامعة موسكو، وسيغدو أحد أبطال المقاومة الشعبية التي حالت دون عودة حكم الإمامة إلى صنعاء خلال حصار الملكيين لها، والذي عُرف بحصار السبعين يومًا.

ومن هنا سيُذاع صيته كبطل من أبطال المقاومة والدفاع عن صنعاء وجمهورية سبتمبر .

كان عمر الجاوي على اطلاع على دقائق الأمور في ما يتعلق بقضية الوحدة وسير أعمال اللجان، وكيف وإلى أين تسير، من خلال وجوده في واحدة من أهم اللجان الوحدوية بين الشمال والجنوب، وأعني بها اللجنة الدستورية. وكانت له بصماته التي لا يمكن أن تُنسى على مسيرة الوحدة.

أذكر أنه بعدما شنّ نظام صنعاء حربه على الجنوب في سبتمبر عام 1972 تحت مبرر تحقيق الوحدة، ولو بالقوة، دعت

جامعة الدول العربية إلى وقف الحرب، فاستجبنا لتلك الدعوة، واتفقت مع نظيري الأستاذ محسن العيني على وقف نزف الدماء اليمنية، وأن نلتقي في القاهرة للبحث عن صيغة لتحقيق الوحدة، غير الحرب والسلاح، فاستدعيت عددًا من الشخصيات، ضمّت عمر الجاوي والدكتور محمد جعفر زين والأستاذ عبد الله حسن العالم وعبد الله الخامري، وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء، وطلبت منهم إعداد أكثر من صيغة لمشروع الوحدة لمناقشتها مع وفد صنعاء في القاهرة. كان البعض في القيادة مع صيغة الوحدة الاندماجية، والبعض مع صيغة الاتحاد، ولم تكن قد تبلورت بعد صيغة نهائية لتحقيق الوحدة. وهذا التباين أمر طبيعي، وخاصة في تلك الظروف الضاغطة التي كان الشمال يشنّ فيها حربًا بالوكالة على النظام في الجنوب، ظاهرها تحقيق الوحدة، وباطنها إسقاط النظام في الجنوب بالقوة، وضمّ الفرع إلى الأصل، كما كان يردد بعض قادتهم ومشايخهم. الصيغة التي وقع عليها الاختيار هي تلك التي أعدّها فريق الجاوي، وتلك الصيغة هي التي اعتُمدت في الأخير، ووُقِّع عليها بيني وبين نظيري الأستاذ محسن العيني، والتي ستعرف مذّاك باتفاقية القاهرة (28 أكتوبر 1972م)، وستصبح الأساس والمرجعية لكل الاتفاقيات التي قامت على أساسها اتفاقيات الوحدة بعد ذلك ولجانها، بما في ذلك بيان طرابلس بين الرئيسين، سالم ربيع علي والقاضي عبد الرحمن

الإرياني، واتفاقية 30 نوفمبر 1989 بين الرئيس علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض، الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، التي أدت إلى قيام الوحدة في 22 مايو 1990م، ومشروع دستور الوحدة الذي استكملته اللجنة الدستورية سنة 1981م بعد توقف طويل لأعمال اللجان الوحدوية، بسبب التوتر بين النظامين والحروب بينهما، ولم تُستأنَف إلا بعد قمة الكويت بين الرئيسين علي عبد الله صالح وعبد الفتاح إسماعيل. ومثلما جاءت اتفاقية القاهرة عقب حرب 1972، جاءت اتفاقية الكويت بعد حرب 1979م. فبعد كل حرب، اتفاق على تحقيق الوحدة في غضون ستة أشهر أو سنة، وعقب كل اتفاق، حرب جديدة، ثم قمة جديدة، فاتفاق. ولم يختلف الحال كثيرًا، حتى بعد قيام دولة الوحدة. فوثيقة العهد والاتفاق في عمّان أعقبتها حرب اجتياح الجنوب صيف عام 1994م، ومؤتمر الحوار الوطني، واتفاقية السلم والشراكة في صنعاء أعقبتها حرب 2015م، وكأن اليمنيين اتفقوا على ألا يتفقوا!! ومن ثم عاصفة الحزم المستمرة منذ عدة سنوات التي عصفت بالدولة ومؤسساتها في الشمال والجنوب حتى عام 2021م. وفي كل تلك الحروب، كان العامل الخارجي حاضرًا بقوة، من حيث التخطيط والتمويل، ولا يزال!

مرّت أعمال اللجان الوحدوية بتاريخ وسنوات طويلة من الحوار واللقاءات والعمل الدائب والاختلافات في وجهات

النظر التي كانت تستدعي أحيانًا تدخّل القيادة لتقريب وجهات النظر، أو تذليل الصعوبات حتى استكملت أعمالها، وأهمها مشروع دستور دولة الوحدة الذي سيغدو بعد الاستفتاء عليه أبا القوانين كلها، كما هو معروف وكما يفترض. لكن حتى هذا الإنجاز لم يكن ليلقى القبول الفوري لأسباب كثيرة داخلية على مستوى كل شطر، وإقليمية ودولية، في ظل الحرب الباردة والصراع الإقليمي والدولي على اليمن لموقعه الاستراتيجي بين الشرق والغرب، تحول دون تحقيق الوحدة حينها.

يحضرني هنا تعليق ساخر سمعته من الأستاذ والمناضل المخضرم محمد عبد الله الفسيل، وكان مع عمر الجاوي من الأعضاء الأساسيين والمهمين الذين عملوا لسنوات على إنجاز مشروع الدستور. قال لي الأستاذ الفسيل خلال لقاء جمعني به في منزله بالقاهرة 2019م: إننا بعد أن أنهينا عملنا في استكمال مشروع دستور دولة الوحدة، أبلغنا ذلك للقيادتين في صنعاء وعدن، وكان في اعتقادنا أنّ مثل هذا الإنجاز العظيم سيسارع في تحقيق الوحدة، لكن الرد كان مفاجأة صادمة لنا، إذ طلبا منا ألّا نعلن ذلك! وقد صدمنا هذا الرد، أنا وعمر الجاوي وبقية أعضاء اللجنة! وعلى طريقته الساخرة، علّق الفسيل: كان الأمر أشبه بالابن الذي لا يريد أن يعترف به أحد! أو بتعبيره "ابن قحبة"!! وكلام الأستاذ الفسيل كان صحيحًا، لأن صنعاء لم تكن تريد قيام الوحدة إلا بشروطها ورؤيتها بضمّ الجنوب إلى

الشمال، وليس على أساس دستور الوحدة الذي أنجزته اللجنة الدستورية. ولهذا كان علينا أن نقدّر موقف القيادة في صنعاء التي كانت تربطها علاقات ببعض الدول الإقليمية والدولية التي لم تكن تريد قيام دولة قوية مهيبة في المنطقة، ولهذا اتخذنا خطوات تدريجية على طريق الوحدة بوقف الحروب بين الشمال والجنوب، ووقف العمليات العسكرية في المنطقة الوسطى (1972 – 1980) والمشاريع المشتركة والمناهج التربوية المشتركة وقيام المجلس اليمني الأعلى بين الشمال والجنوب واللجنة الوزارية والسكرتارية. وقد تحققت إنجازات كبيرة على هذا الصعيد على طريق الوحدة التي كان البعض يطالب بتحقيقها عبر الحرب، وكنت متأكدًا من أن الوصول إلى الوحدة لن يكون إلا عبر الحوار، وهذا ما حدث في مايو 1990م.

المرة الثانية التي التقيت فيها عمر الجاوي كانت عام 1970، كنتُ حينها وزيرًا للدفاع في حكومة اليمن الديمقراطية، وكان يشغل المدير العام للإذاعة والتلفزيون. شكا لي عمر شحّ الإمكانات، وخاصة في النقل والمواصلات، فأمرت له بعدة سيارات من مستودعات الجيش للتغلب على مشكلة المواصلات لمرفقه، وطبعًا لم يطلب شيئًا لنفسه، فقد كان رحمه الله زاهدًا ونظيف اليد وعزيز النفس من طراز أولئك المثقفين النادرين أصحاب المبادئ والقضايا الوطنية الكبرى الذين لا يغيرون مبادئهم مهما كانت الصعوبات والعراقيل، وحتى لو

أدى ذلك إلى موته. وقد كان قريبًا من الموت في مرات كثيرةً، ولعل أقربها للذكر عندما نجا من محاولة اغتيال في صنعاء على يد أجهزة النظام، وراح ضحيتها رفيق دربه المهندس حسين الحريبي، رئيس التجمع الوحدوي الديمقراطي الذي أسسه في صنعاء بعد الوحدة. وفي حصار السبعين كان قريبًا من الموت والقذائف تتطاير من حوله لولا عناية الله.

يُعَدّ عمر الجاوي أحد أهمّ المناضلين من أجل الوحدة اليمنية الذين كرّسوا حياتهم من أجلها منذ أسّس في القاهرة أول منظمة موحدة للطلبة اليمنيين الدارسين في مصر من الشمال والجنوب. ومنذ ذلك الحين أصبحت الوحدة اليمنية قضيته وهاجسه، لم يتخلّ عنها قيد أنملة، ولم يهادن فيها طوال المراحل. وكان على يقين بأنه لا يمكن تحقيق الوحدة من دون القضاء على حكم الإمامة في الشمال وإنهاء الاحتلال البريطاني للجنوب، فراح يدعو إلى الثورة ويهاجم الاثنين من موسكو. وعندما قامت ثورة 26 سبتمبر عام 1962، وبعدها ثورة 14 أكتوبر عام 1963 ضد الاستعمار في الجنوب، وتحقق الاستقلال الوطني، عاد إلى عدن، لكن عندما شعر بأن ثورة سبتمبر تواجه خطر السقوط وانهيار حلم الشعب اليمني في الجمهورية وعودة حكم الإمامة، توجه إلى صنعاء للمشاركة في تأسيس المقاومة الشعبية، في واحدة من أهمّ ملاحم الشعب اليمني وأسطعها في التاريخ خلال حصار الملكيين لصنعاء في ما عُرف بحصار

السبعين يومًا، التي خرج فيها منتصرًا للثورة والجمهورية بفضل الصمود الشعبي والرسمي ودعم الأشقاء والأصدقاء. بالنسبة إلى عمر الجاوي، والكثيرين من أبناء الشعب اليمني في الجنوب الذين اندفعوا للدفاع عن ثورة سبتمبر مع المدافعين عنها من أبناء الشمال واستُشهدوا أو جُرحوا خلال ذلك، كان ذلك عن إيمان ويقين بأنّ مصير الشعب اليمني والثورة اليمنية واحد في الشمال والجنوب، ولم يكونوا يبحثون عن غنائم أو مناصب. لذلك، عاد عمر وغيره من المناضلين إلى عدن بمجرد أن تحققوا من هزيمة الملكيين والسعوديين ومَن معهم، ليواصل منها مسيرته الوحدوية التي كرّس لها حياته وعمره وكفاحه.

أذكر أنه كان أول من زارني عام 1970 بعد أن أصبحتُ رئيسًا للوزراء مع بعض الأدباء والكتّاب اليمنيين من الجنوب والشمال، وخلال اللقاء عرض عليّ فكرته بتأسيس اتحاد واحد لهم على مستوى اليمن، فباركتُ هذه الخطوة، وكان البعض في القيادة عندنا وفي صنعاء ضد مثل هذا التوجه. وقد استغرقت التحضيرات نحو عامين، الأمر الذي يدلّ على أنّ ميلاد اتحاد الأدباء والكتّاب عام 1972 في عدن، وهو أول منظمة على هذا المستوى في اليمن، لم يكن أمرًا سهلًا، بل مرّ بعراقيل وصعوبات، لكنه صار بعدها واقعًا وحقيقة من حقائق التاريخ، وسيلعب الاتحاد وقيادته برئاسة عمر الجاوي واحدًا من أهمّ أدوار التاريخ في سبيل تحقيق الوحدة اليمنية. وكثير من قوة

الاتحاد والدور الوحدوي الذي قام به يعود إلى شخصية عمر الجاوي وصلابته وإيمانه العميق والمطلق بالوحدة، وقد استطاع أن يحوّل تلك القوة التي عادة ما توصف بالقوى الناعمة، وأعني بها الأدباء والكتّاب والمثقفين عمومًا، إلى قوة فاعلة ومؤثرة في النضال من أجل الوحدة اليمنية. ليس ذلك فقط، بل إنه سيحشد خلفه الشعب اليمني كله في الشمال والجنوب الذي يعتبر قضية الوحدة قضيته الجوهرية. وأعتقد أنّ عمر الجاوي جعل من الاتحاد حزبًا فوق كل الأحزاب من أجل تحقيق الهدف الذي يؤمن به أكثر من أي هدف، وجعل من مجلة الاتحاد (الحكمة) الشرارة التي يقلب بها اليمن رأسًا على عقب، وقد فعل. وكان ذلك ذكاءً منه ومن كتيبة الأدباء والكتّاب الذين قادوا مسيرة الاتحاد، أمثال عبد الله البردوني وعبد الله فاضل فارع ويوسف الشحاري وأحمد قاسم دماج والقرشي عبد الرحيم سلام وغيرهم. ففي ظل تحريم الأحزاب في الشمال، ونظام الحزب الواحد في الجنوب، وعدم وجود حرية صحافة هنا وهناك، لم يكن ممكنًا الخروج من هذا الطوق إلا باتحاد واحد كما أراد له عمر الجاوي، عابرًا للأحزاب والحكومات والأيديولوجيات. وكان المنفذ الذي نفذ منه عمر وقيادة الاتحاد، أنّ كلا النظامين، في عدن وصنعاء، يعلن أنه يسعى لتحقيق الوحدة. وكان القبول بقيام اتحاد واحد اختبارًا لكليهما. وهكذا ضمن عمر تأييدهما لقيام الاتحاد، فمن ذا يستطيع منع

قيام اتحاد للأدباء والكتّاب اليمنيين يؤمن بالوحدة، ويعلن أنه اتحاد لليمن كله؟ ليس ذلك فقط، بل أيضًا ضمن ميزانية للاتحاد من حكومتي الشمال والجنوب دون أن يقدّم أي تنازلات أو يخضع لأية ضغوط، بل كان ينتقد أخطاء النظامين وتجاوزاتهما هنا وهناك بشراسة وجرأة، أو أي تباطؤ في تحقيق ما يُتَّفَق عليه في اللجان الوحدوية، وبشدة أقسى إدانة الحروب بين النظامين وأجواء التوتر بين عدن وصنعاء.

وككل أصحاب الرسالات والمشاريع الوطنية الكبرى، لم يسلم الجاوي من سهام المعارضين للوحدة، أو الذين يريدونها أن تتحقق على طريقتهم ورؤيتهم، أو لمصلحة هذا النظام أو ذاك. بالنسبة إلى الجاوي، كانت الوحدة قضية وطن وشعب ويرى فيها الحل لكل مشاكل اليمن. وعلى سبيل المثال، كان البعض في الجنوب يتهمونه بأنه على علاقة ببعض المسؤولين في سلطة صنعاء استنادًا إلى علاقة عمر الوثيقة بوزير شؤون الوحدة في حكومة الشمال، الأستاذ أحمد الشجني الذي كان ينتقل بين صنعاء وعدن بحكم منصبه ومهمته، ومن الطبيعي أن يلتقيه عمر الجاوي هنا أو هناك. أولًا، بحكم قضية الوحدة التي تجمعهما. وثانيًا، لأنّ عمر والشجني يرتبطان بعلاقة تاريخية نضالية وفكرية منذ الخمسينيات والستينيات، بحكم انتمائهما الأممي إلى الفكر الاشتراكي. وثالثًا، بحكم الصداقة التي جمعت بينهما طوال هذا العمر. وعمر من نوع الرجال الذين يعرفون

معنى الصداقة والوفاء للأصدقاء، وكذلك الشجني. وشخصيًا، كنتُ من المعجبين بشخصية الأستاذ أحمد الشجني عندما كان وزيرًا للوحدة، وبعد أن أصبح سفيرًا في القاهرة. وبالمقابل، كان هناك في صنعاء من كان يتهم الجاوي بأنه شيوعي وينحاز إلى النظام في عدن، بينما لم يكن انتماء عمر إلّا إلى وحدة اليمن والحرية، ولهذا ظل صعب المنال.

ولما كان الرجال يظهر معدنهم الأصيل في المواقف الصعبة، كان عمر الجاوي فعلًا من أولئك الرجال. وأنا هنا أتحدث عن تجربة حقيقية ومواقف صادقة أثبت خلالها الجاوي أيَّ نوع من الرجال هو، ومن أيّ معدن صُقل. فبعد أحداث 13 يناير 1986م التي حاولنا نحن وهو وكل الخيّرين والحرصاء على تجربة الجنوب والحزب الاشتراكي اليمني الحيلولة دون وقوعها، حدثت الكارثة التي حذّرنا نحن وغيرنا منها، وحينها قلنا إنّ المنتصر فيها مهزوم، وإنّ مثل هذا النصر مؤقت، لكن دعواتنا لم تجد حينها آذانًا مُصغية، وأدت الأحداث إلى خروجنا من عدن ومن السلطة، وانتهى بنا المطاف إلى صنعاء. يومها زارني عمر الجاوي في أول زيارة يقوم بها للشمال بعد تلك الأحداث المؤلمة، وهو يعرف أنه عائد إلى عدن، وأنّ الطرف الذي أمسك بالسلطة فيها لن يغفر له لقاءَنا. وكانت أجهزة النظام تصفني بالمنحرف وبعميل الإمبريالية والرجعية وبسيل من الشتائم التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تمتّ بصلة إلى

قاموس الاختلاف السياسي. قال لي عمر إنه نصحهم بأن يكفّوا عن هذا النوع من الشتائم الرخيصة التي لن يصدقها أحد، بل ترفع من رصيده، إذ كيف سيصدقكم الشعب وأنتم انتخبتموه أمينًا عامًا لحزبكم قبل شهرين فقط؟

اثنان فقط كانا قادرين على هذا الموقف صراحة ومن دون خوف أو خشية أحد، الجاوي، والختيار ياسر عرفات الذي كان يزورني في صنعاء كلما زارها.

بذل الجاوي جهودًا ومساعي لرأب الصدع بين طرفي الخلاف في الحزب قبل اندلاع أحداث يناير. وأخبرني أنّ عبد الفتاح إسماعيل رفض مقابلته، والأستاذ محمد عبده نعمان والدكتور عبد الرحمن عبد الله في البداية، ولكنّ عمر أصرّ على مقابلته، وهزّ عصاه على طريقته في وجوه المحيطين به، حتى سمحوا له بالدخول. وخلاصة النقاش الطويل الذي دار معه، كما أخبرني عمر، أنّ عبد الفتاح رفض كل تفاهم معي، وقال له بالحرف: "إنّ الخريطة السياسية تغيرت لمصلحتنا، ولا يمكن أن أتفاهم معه أو أمدّ له يدي". ولم يكن يعلم أنّ مثل هذا الرهان خاسر، لأنّ ثمنه سيكون فادحًا على الجميع!! وهذا ما حدث بالفعل. وقد أطلق عمر الجاوي بعد أحداث يناير في مقال كتبه في مجلة (الحكمة) بعنوان "بعد الذي صار" (أي بعد الذي حدث)، وملخصه أنْ لا حلّ لمشاكل اليمن إلا بتحقيق الوحدة! لكن بكل أسف إنّ الطريقة التي تحققت بها الوحدة في

22 مايو 1990 جرّت على اليمن المزيد من المشاكل والحروب، لأن القيادة لم تكن بمستوى حدث تاريخي عظيم كهذا... أتذكر ما قاله لي المناضل محمد عبده نعمان عندما ارتفع علم الوحدة في مدينة كريتر، أنه نزلت من عينه دمعتان، دمعة فرح لقيام الوحدة، ودمعة حزن على من رفعوا علم الوحدة.

كانت السلطة الجديدة في عدن تهاجمني، وفي الوقت ذاته تهاجمني المعارضة في الخارج (المدعومة من السعودية)، فاجتمع أقصى اليسار مع أقصى اليمين. هنا قال لي عمر: أشهد أنك على حق، ونحن معك في مواقفك الوطنية والوحدوية والأممية .

على عكس كثيرين، لم تنقطع صلة عمر الجاوي بي طوال السنوات اللاحقة، فقد استمرت زياراته لي في صنعاء ودمشق مع صديقه المناضل والقائد العسكري محمد عيدروس يحيى، قائد الحرس الجمهوري في عهد الرئيس قحطان الشعبي. كنتُ أعرف الجاوي معرفة شخصية، وأعرف ظروفه المادية الصعبة ومرضه الذي يزداد خطورة، وأعرف كبرياءه وعزة نفسه وإباءه. وعندما اشتدّ به المرض في الفترة الأخيرة، زارني في دمشق في طريقه إلى براغ للعلاج. كنتُ أعرف أنّ الجاوي ليس من النوع الذي يتردد على أبواب الحكام لطلب المساعدة، حتى لو كان من أجل علاجه مثلما هي عادة كثيرين في اليمن، حيث يحرصون على زيارة الحاكم قبل سفرهم إما للتوديع، وإما لطلب الإذن بالسفر، بينما جوهر الأمر هو الحصول على مساعدة مالية!

الجاوي لم يكن من هذا النوع، فليس في حاجة للاستئذان من أحد، فقراره في يده، ولا يذلّ نفسه من أجل مال، وقد عاش طوال حياته عفيفًا كريم النفس. لهذا حرصتُ على أن أسأله مازحًا: هل أنت مستعد للسفر والعلاج إلى براغ؟!

1. ولأنه رجل ذكي ولمّاح أجاب : نعم. لا تقلق عليّ، فمعارفي كثيرون.

وأعرف بطريقتي الخاصة أنه لا يملك في جيبه أكثر من 500 أو 1000 دولار على الأكثر، فلا أدعه يسافر دون أن أكون قد قدمت له ما أقدر عليه حسب إمكاناتي المتواضعة حتى لا يحتاج إلى أحد. ولست أقول هذا الآن لكي أمّن على الرجل وقد صار في ذمة الله ورحاب التاريخ، بل لكي أبيّن معدن الجاوي وأصالته وشعوري بالتقصير وتقصير الوطن بأكمله في حق رجل قدم حياته وكرس نضاله من أجل عزته وحريته ووحدته.

آخر مرة التقيتُ فيها عمر الجاوي كان في دمشق بعد عودته من رحلة علاج في لندن. كان لقاء وداع أخير، فقد كان الجاوي يشعر بقرب النهاية واقتراب ساعته، فآثر أن يموت في وطنه الذي كرّس له عمره وكفاحه بين شعبه وأهله الذين أحبهم وأحبوه، فغادر إلى عدن ليموت ويدفن في الوهط مسقط رأسه.

فقد اليمن مناضلًا جَسورًا في سبيل وحدته، وفقدتُ بموته صديقًا عزيزًا من أنبل الأصدقاء. وفقدت الحرية مدافعًا عنيدًا في سبيلها، وفقدت أسرة الأدباء والكتّاب اليمنيين ربّان

سفينتها، ليغدو الاتحاد من بعده نهبًا لرياح الأحزاب للسيطرة على قيادته، وأخيرًا عرضة لعواصف التقسيم بإعلان كيان آخر لأدباء الجنوب وكتّابه. وصارت الوحدة اليمنية ذاتها في خطر شديد، في ظل مشاريع الانفصال وفكّ الارتباط، أو إعادة مقولة الوحدة أو الموت وإخضاع الجنوب بالقوة!

فهل نتساءل: مَن للوحدة والاتحاد بعدك يا عمر؟! أم نقول: إنّ الشعب اليمني وقوى الوحدة قادرة على التغلب على كل العواصف التي تواجه الوطن، وقادرة على صون وحدة اليمن، وإن بصيغة أخرى غير الوحدة الاندماجية؟! أم نقول: أتعبتَ كل الوحدويين من بعدك يا عمر؟!

فقيد الوطن الكبير فرج بن غانم

وُلد الدكتور فرج سعيد بن غانم في منطقة غيل باوزير بمحافظة حضرموت في 1 ديسمبر 1937م لأبوين من أسرة متواضعة وميسورة الحال. درس الابتدائية والمتوسطة في المنطقة نفسها، إلا أنه غادرها متجهًا إلى السودان لإكمال الدراسة هناك، وحصل فيها على شهادة الثانوية العامة، وأكمل تحصيله العلمي أيضًا فيها عندما التحق بجامعة الخرطوم وحصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد عام 1964م مع مرتبة الشرف. مؤهلاته العلمية: 1975م: ماجستير في المدرسة المركزية للتخطيط والإحصاء. 1978م: دكتوراه في الإحصاء من بولندا. 1980م: دكتوراه في الاقتصاد من بولندا. وتولى منصب رئيس وزراء الجمهورية اليمنية من 17 مايو 1997 حتى 29 أبريل 1998. عُرف عنه أنه رجل إداري ومنظَّم إلى أبعد الحدود، فلا يستقبل أحدًا، ولو كان وزيرًا أو شيخ قبيلة من غير موعد، وخاصة خارج المكتب، كعادة غيره من المسؤولين اليمنيين، حيث كان دائمًا ما يوقع السياسيين والمسؤولين في

حرج كبير، وهم قابعون أمام بوابة مكتبه ليتلقوا خبر رفض مقابلتهم من سكرتاريته.

توفي بالعاصمة السويسرية جنيف، حيث ساءت حالته ودخل على أثرها المستشفى الجامعي في يوليو 2007م، وقرر له الأطباء الذين يشرفون على حالته إجراء عملية جراحية عاجلة فأُجريَت على الفور، إلا أنه فارق الحياة في 5 أغسطس 2007م جراء مضاعفات للعملية الجراحية التي أُجريت له.

وبوفاته فُجع الشعب اليمني برحيل شخصية وطنية بارزة، صاحب التاريخ المجيد والمشرّف والكفّ النظيف، وبرحيله فقدنا وفقد الوطن هامة وطنية كبيرة، فهو مفكر ومثقف وإداري من الطراز الرفيع، وهب حياته ووضع كل إمكاناته ومواهبه من أجل خدمة الشعب والوطن طوال المراحل التي مرّت بها البلاد.

كان، رحمه الله، نموذجًا صادقًا ورائعًا وقدوة حسنة لكل الذين عرفوه وعملوا معه، وكانت تجمعني بالراحل صداقة قديمة تعود إلى بداية السبعينيات منذ كان وكيلًا لوزارة التخطيط ووزيرًا للتخطيط ورئيسًا للوزراء، واستمرت الصداقة والعلاقة الشخصية والرسمية بيننا حتى وفاته في جنيف. وفي أثناء وجودي في السلطة، حرصت على أن يتبوأ الدكتور فرج المناصب التي تليق به، نظرًا لكفايته وخبرته

وسمعته الجيدة، ولكنه كان يؤكد لي باستمرار أنه سيخدم الوطن، سواء من داخل الحزب أو خارجه.

كانت قوته تكمن في إخلاصه وكفايته ونزاهته وحبّ الآخرين له، وغيرها من الصفات القيادية التي أهّلته لتولي منصب رئاسة الحكومة عام 1997م، بعد أن تسلّم عددًا من المناصب المرموقة، سواء في جمهورية اليمن الديمقراطية أو في الجمهورية اليمنية بعد الوحدة عام 1990م، وأتذكر أنه عندما تقلد هذا المنصب اتصلت به وهنأته وتبادلنا الحديث وشجعته على العمل الجاد، لما فيه خير الوطن والمواطن، وقال لي حينها: "دعواتكم لي فالوضع صعب والعمل في هذه المرحلة أصعب"، وأثبتت الأيام صدق توقعاته وتقييمه للظروف التي كانت تمرّ بها البلاد منذ اللحظة الأولى التي تسلّم فيها المسؤولية، إذ سرعان ما اصطدم بالواقع والصعوبات السياسية والإدارية، فقد كان حريصًا على ترسيخ أسس النظام والقانون والإدارة الحديثة واختيار الكوادر المناسبة لشغل الوظائف والمسؤوليات التي يمكن من خلالها تنفيذ خطط الدولة التنموية والاقتصادية بما يساهم في بناء الدولة ومؤسساتها وتطور البلاد، وكان حريصًا على عدم حصول أية تجاوزات من أي شخص كان مهما كان موقعه ومكانته، وذلك في سبيل تطوير خطط الحكومة وبرامجها، وهو الذي قال "لا" لأي تدخل في عمله أو تجاوز للقانون، حيث رفض كل الرسائل التي كان يوجهها إليه

الرئيس علي عبد الله صالح بصرف الأموال خارج ميزانية الدولة المعتمدة سنويًا، ما أدى إلى خلاف مع الرئيس علي عبد الله صالح الذي لا تُرفَض أوامره في أي مؤسسة من مؤسسات الدولة، ووصلت المبالغ التي أمر بصرفها إلى أكثر من 5 مليارات ريال يمني، ولكنه رفضها ورفض اعتمادها إلا بإقرارها من قبل مجلس النواب لتُصرَف بعد ذلك وفقًا لقانون الميزانية.

وفي لقاء جمعني بالرئيس علي عبد الله صالح في أبو ظبي بأثناء زيارته لها، طلب مني الاتصال بالدكتور فرج بن غانم لاعتماد رسائل الرئيس، وذلك بحكم احترامه الشديد له.

قلت له: هذا صحيح، ولكني لست رئيسًا له اليوم.

فردّ عليّ: هذا الحضرمي أعجبه الكرسي (ويقصد رئاسة الوزراء) والله ما عاد يجلس عليه.

فقلت له: ليس في مصلحتك أن تخسره، لأنه رجل نزيه وشريف، وقوته تكمن في إخلاصه لهذه الدولة، وقد جاء إلى رئاسة الوزراء بسبب كفايته ونزاهته وسمعته وعلاقاته الدولية مع المنظمات الإقليمية والدولية، ولم يأتِ عبر حزب أو قبيلة أو جيش أو مراكز قوى في اليمن، ولهذا أنصح بالحفاظ عليه، لأنه سيساعدك في بناء الدولة والتنمية ومكافحة الهدر والفساد.

أخبرني علي عبد الله صالح أنّ فرج بن غانم يريد أن يصفّي بعض القيادات الموالية لي، وأنه قدّم كشفًا بـ 96 مسؤولًا في

الأجهزة لمحاسبتهم وتحويلهم من مناصبهم إلى مواقع أخرى بسبب تورطهم في الفساد، وقال: "إنّ بعضهم من أنصارك ومحسوبون عليك، وإنّ بعضهم اتُّهم باستلام رشوة تقدَّر بنحو 200 ألف دولار، وأنا لن أفرّط بهم مقابل هذه المبالغ"، والتفت نحوي وسألني: "ما رأيك؟ وكيف تشوف تصرفه؟"، فأجبته: "لو أنا مكانك لعزلتهم وحاسبتهم وحاكمتهم، بما أنك تعترف بأنهم مرتشون". فالتفت نحوي وقال: "بطّل المزايدة والثورية، والله إنني لن أفرّط بهم، وسيروح صاحبك". قلت له: "إذا راح فأنت الخسران لأنك لن تجد بديلًا أفضل منه اليوم".

وفي أثناء الحديث دخل علينا وزير الخارجية عبد القادر باجمال، وكنا نتناول طعام الإفطار في قصر الضيافة بأبو ظبي، والتفت علي عبد الله صالح نحوه وقال له: "يا عبد القادر، أليس الفساد هو ملح التنمية؟"، وهذه مقولة عبد القادر باجمال. فردّ عليه باجمال: "نعم فخامة الرئيس". وضحك الاثنان، وصمتُّ، واعتبرتُ أنّ هذه فلسفة جديدة لتشريع الفساد ومباركته من قبل رئيس الدولة.

لقد حاول الدكتور فرج، من خلال موقعه، محاربة الفساد بطريقته الهادئة والواقعية والعقلانية بعيدًا عن المزايدة والتطرف، وحاول العمل على تطوير الإدارة والاهتمام بالحياة المعيشية للشعب، ولكنه اصطدم بجملة من العوامل المعوّقة التي حالت دون ذلك، فآثر الاستقالة بمحض إرادته وقناعاته،

وهو ما لم يسبقه إليه أحد، سواء قبل الوحدة أو بعدها، وكان هذا محطّ إعجاب أبناء الشعب كافة.

وعندما علمت أنه كان يفكر في الاستقالة، نصحته بالصبر والتروي، ونصحت الآخرين بالتمسك به في رئاسة الحكومة، لما أعرفه عنه من صفات الإخلاص والنزاهة والكفاية، وكانت هذه الصفات مصدر قوته، فهو لم يأتِ به حزب أو قبيلة أو جيش أو مراكز نفوذ إقليمية أو دولية، كما أشرت آنفًا، بل صفاته وكفايته هي التي جعلته يحتل هذا الموقع في السلطة وفي قلوب الناس. وبعد استقالته من مهامه رئيسًا للوزراء، استمر في خدمة الوطن من خلال عمله سفيرًا لليمن في منظمة الأمم المتحدة بجنيف حتى وفاته في الخامس من أغسطس 2007م. وبرحيله خسرتُ أخًا وصديقًا وفيًّا ومخلصًا، وخسرت اليمن علمًا من أعلامها، ورجلًا من رجالاتها الأوفياء والمخلصين.

بن شملان .. وطن إلى الرفيق الأعلى

وُلد فيصل بن شملان في السويري - حضرموت عام 1934م، في السلطنة الكثيرية، وتوفي في عدن في 1 يناير 2010م. درس بن شملان المرحلة الأساسية في غيل باوزير، ثم انتقل إلى جمهورية السودان حيث درس هناك المرحلة الثانوية، وبعد إكماله الثانوية سافر إلى بريطانيا للدراسة الجامعية حيث التحق بجامعة كينجستون ودرس فيها الهندسة المدنية. تقلّد منذ 30 نوفمبر 1967م وزارة الأشغال العامة والمواصلات في أول حكومة بعد الاستقلال للجنوب في حكومة الرئيس قحطان محمد الشعبي. رُشِّح فيصل ابن شملان لرئاسة الجمهورية اليمنية عام 2006م كمرشح أحزاب اللقاء المشترك (اتحاد أحزاب المعارضة اليمنية) تحت شعار (رئيس من أجل اليمن لا يمن من أجل الرئيس)، وشهدت هذه الانتخابات أقوى صراع تنافسي على منصب رئيس الجمهورية منذ إعلان دولة الجمهورية اليمنية الموحدة، وقد خسر بن شملان الانتخابات لمصلحة الرئيس علي عبد الله صالح. توفي بن شملان مساء الجمعة 1 يناير 2010 في منزله في عدن عن عمر ناهز 76 عامًا، إثر مرض عضال ألمّ به.

وقد نزل نبأ وفاة المغفور له بإذن الله، الأستاذ المناضل والقيادي البارز المهندس فيصل بن شملان على قلبي وعلى قلوب محبيه على امتداد الوطن كالصاعقة، بالرغم من أنّ الرجل كان يصارع المرض ويحاكي المنيّة، ولكنها الخسارة الفادحة التي يحضر الشعور بها بقوة ويلمسها الوطن أرضًا وإنسانًا عندما تغادره الروح التي كانت ضميره الحيّ وقلبه النابض ووجدانه المتألق.

ولم يكن صراع فقيد الوطن الكبير مع المرض سوى نزر بسيط في بحر صراعه الطويل، مكافحًا في صفوف المناضلين في سبيل تحقيق الثورة في الجنوب، ومرابطًا في مسيرة بناء الدولة، وقياديًا وإداريًا مقتدرًا في كل المهام التي أوكلت إليه والمناصب التي تبوأها والتي كان فيها مثالًا للكفاية والنزاهة قبل الوحدة وبعدها. الوحدة التي لا تزال تشهد للفقيد الكبير بحجم بصماته في عشقها قولًا وعملًا، وقد ترجم ذلك العشق في كل ميادين العمل التي سجل فيها أمثلة للشرف ونظافة اليد، لا تزال مضرب مثل في الأوساط السياسية والشعبية. فقد كان فقيد الوطن الكبير المهندس فيصل بن شملان الرجل الذي لا يرضى بغير ما يرضاه أبناء شعبه، ولذلك فإنه سارع إلى مغادرة البرلمان عندما قرر تمديد فترته لعامين، لأنه وفيّ لإرادة الناخبين ويحترم العقد الذي بينه وبين مواطنيه، فضلًا عن المواقف الرجولية المتعددة التي سجلها في رصيده المشرق، ويجري تداولها في كل الأوساط كإشارات لأنموذج الرجل الوطني من الطراز النادر.

عرفتُ الفقيد الكبير المهندس فيصل بن شملان عام 1967م عندما التقينا لأول مرة بعد أن أصبح وزيرًا للأشغال العامة في أول حكومة برئاسة قحطان محمد الشعبي، وتقلّد بعد ذلك عدة مناصب هامة، كالهيئة العامة للكهرباء، وأدار بجدارة مصفاة عدن بعد أن آلت المصفاة إلى الحكومة إثر انسحاب شركة BP بسبب الدعاية بأنّ تشغيلها غير اقتصادي، على إثر خروج القوات البريطانية من عدن وإغلاق قناة السويس، والموقف المعادي من النظام في عدن، وإقامة بعض المصافي في دول المنطقة بعد أن كانت مصفاة عدن أكبر مصفاة في المنطقة كلها، وقد أقيمت حينها بعد ثورة مصدّق في إيران في بداية الخمسينيات، ويومها أعلنت أمام الفقيد فيصل بن شملان وعمال المصافي في عدن الصغرى عام 1977م أن شعلة المصفاة لن تنطفئ، واستمرّ التشغيل وتطورت المصفاة ومنشآتها ومساكنها، وقد بلغ تكرير النفط ذروته بعد قيام الثورة الإيرانية وضرب المصافي في حرب الخليج الأولى.

وتقلّد الفقيد الكبير بعدها عددًا من المناصب قبل الوحدة وبعدها، ولم تنقطع علاقتي به طوال هذه السنين في عدن وصنعاء وحضرموت، وخاصة في قريته السويري التي تقع بالقرب من مدينة تريم التاريخ والحضارة والثقافة والعلم، وهي التي اشتهرت بعدد مساجدها على عدد أيام السنة، ويومها كنّا في زيارة لسيؤون وشبام وتريم، وتناولنا العشاء في قريته

السويري، وأقام لنا حفل عشاء خارج المنزل، وقدّم أفضل وجبات الطعام من خبز ومظبي والعسل الدوعني (عسل وادي حضرموت) والتمر وغير ذلك من الوجبات الحضرمية التي اشتهر بها الوادي المشهور بالظباء والوعول التي كان يصطادها فيصل بن شملان في أعالي الوادي، كما كان يحدثني بذلك.

ثم اتصلتُ به في أثناء علاجه في الهند، وكان يردد آخر كلمة: "ادعوا لنا بالشفاء"، وحزنتُ كثيرًا وأنا أسمع هذه الكلمة لصديق عزيز أعتزّ بصداقته وتشرفت بمعرفته مثالًا للنبل ومكارم الأخلاق، وشعرت بأنها كانت بمثابة الوداع. ما زلتُ أتذكر لقاءنا في معاشيق عام 1996م، عندما سألته عن أسباب استقالته من وزارة النفط. تحدث بمرارة عن هذه التجربة وعن معاناته طوال الفترة القصيرة التي تحمّل فيها مسؤولية هذه الوزارة الهامة، فقد استقال وهرب من النفط في وقت كان يجري فيه السباق وراء النفط والعمولات والثراء من خلال المخصصات غير المشروعة.

ويذكّرني الفقيد الكبير بن شملان بصديقه ورفيقه الدكتور فرج بن غانم الذي استقال من رئاسة الحكومة، وهذا يحدث لأول مرة في تاريخ اليمن، لأن استمراره كان يتعارض مع قناعاته ومبادئه وقيمه وأخلاقه.

فهذا الثنائي خسرهما الوطن والمواطن في اليمن، شمالًا وجنوبًا، فقد اشتُهرا وعُرفا بالنزاهة والإخلاص والوفاء

لمنظومة من المبادئ والقيم المتماسكة والثابتة، وقد حزنت كثيرًا لغيابهما، ولكن هذه هي إرادة الله، وكل نفس ذائقة الموت.

وإذا كان قد غيّبهما الموت، فإنهما باقيان يدقّان ناقوس الذاكرة، سمعة طيبة وأثرًا وضاءً، وهذه هي الثروة الحقيقية التي كانا يدأبان على تحصيلها طوال حياتهما والتي لا تزول ولا تفنى كما تزول الملايين والمليارات والعقارات والسيارات والشركات التي يكسبها البعض، وعندما ينتهون يختفون من ذاكرة الشعوب. فالسلطة والثروة زائلة، وما يبقى هو العمل الطيب والصالح للشعوب، وسبحانه تعالى القائل في محكم آياته (إليه يصعد الكلام الطيب والعمل الصالح يرفعه).

برحيل مهندس التغيير، فيصل بن شملان، فقد اليمنيون أنموذجًا يُحتذى لرجل تمسك بمصالح شعبه وبمبادئه النبيلة في ظروف عصيبة، القابض فيها على المبادئ الكريمة كالقابض على الجمر في ظل استشراء الفساد والعبث والفوضى، فكانت على الدوام مصلحة الوطن هي العليا عند فقيدنا، وتسمو فوق كل اعتبار، وهو بهذا السلوك القويم جسّد الحكمة اليمانية التي لم نعد نلمح إلا شبحها المقيم.

لقد مثّل الفقيد الكبير بن شملان ضالة اليمنيين التواقين إلى التغيير والحكم الرشيد، وقد قيّض له سجله الناصع السبيل لأن يشكل محور التوافق الوطني لخوض المنافسة التاريخية الأقوى في الانتخابات الرئاسية عام 2006م التي أظهر خلالها شجاعة

نادرة. ولئن التفّت الجماهير وهي تهتف له ولبرنامجه الانتخابي، فإنها من خلاله كانت تهتف للمستقبل وتنشد ردّ الاعتبار للوحدة وللديمقراطية وللحياة الكريمة.

ويخطئ الكثيرون ممّن يعتقدون بخسارة بن شملان في انتخابات الرئاسة، فخوض تلك المنافسة بذلك الاقتدار الذي لحظته وتابعته الدنيا كلها عبر وسائل الإعلام يُعَدّ انتصارًا بحد ذاته، كذلك لم تفلح تلك التجربة - على ضراوتها - في ثنيه عن مواصلة ملامسته المستمرة لقضايا الوطن، بالرغم من استفحال المرض الذي لا شك في أنه كان الاصطفاء الإلهي لرجل بحجم وطن من شأنه الطبيعي أن يلحق بالأخيار في الفردوس الأعلى.

فقيد الوطن وعدن

محمود عراسي

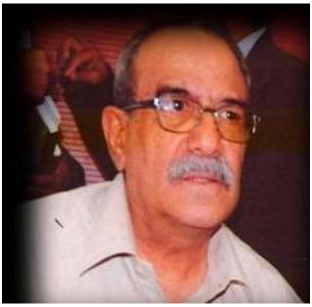

ثمة رجال يعلقون في الذاكرة ولا نستطيع انتزاعهم منها مهما حاولت، ومن هؤلاء فقيد الوطن والشعب وابن عدن محمود عبد الله عراسي (رحمه الله) الذي فقدناه عام 2012. فقده الوطن مناضلًا من طراز فريد، وفقدته أسرته والناس إنسانًا وقائدًا ودبلوماسيًا وإداريًا كفيؤًا، وفقدتُه صديقًا عزيزًا ورفيق درب طويل.

تعود جذوره إلى عدن، تلك المدينة الجميلة الغافية بين الجبل والبحر، الجامعة بين التاريخ والحضارة، الضاربة في القدم والرافلة بالعصرية، والمتمسكة بالأصالة والمنفتحة على العالم بدياناته وثقافته وفنونه، والتي قال فيها أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب عن زيارته لها عام 1924م: "ففي عدن تجد المسلم الذي يصلي إلى الله والفارسي الذي يصلي إلى الشمس واليوناني الذي يصلي إلى الأوثان والمسيحي مكرم الصور والصلبان والإسماعيلي صاحب الزمان واليهودي مسبح الذهب الرنان كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون والتاجر وطنيًا كان أو أجنبيًا لا يهمه غير الأمن والنظام".

محمود عبد الله العراسي، هذه الشخصية الوطنية الفذة، والذي استطاع أن يترك بصماته في كل مجال، وفي كل موقع عمل فيه على مدى أكثر من أربعين عامًا، وقد تجسدت كل تلك الخصال في الإنجازات التي تحققت في المجالات المختلفة التي كان يشرف عليها أو يقودها، وتحديدًا في محافظة عدن، التي ردّت له الجميل، حيث خرجت هذه المدينة بكل رجالها وأطيافها وكل أبنائها، عن بكرة أبيهم، لتوديعه إلى مثواه الأخير. لقد كانت جنازته عبارة عن تظاهرة توحد فيها أبناء عدن جميعًا خلف هذا الرجل العظيم، ولم يقتصر تشييع جثمانه على الموجودين من أبناء عدن فيها، بل جاء أيضًا خيرة رجال عدن وأبنائها، القاطنين خارجها، ومن جميع أنحاء اليمن، لكي يشاركوا في هذا التجمع المهيب.

في عدن تعرفت إليه، وسرعان ما أصبحنا صديقين ورفيقين، جزء من نبضها وكبريائها ومشروعها وكفاحها من أجل الحرية والاستقلال وبناء الدولة المدنية الحديثة، وكان هناك دائمًا حيث ينبغي أن يكون في الأوقات الصعبة والمنعطفات الحرجة لا يعتذر عن مسؤولية ولا يسعى إلى منصب.

قليل الكلام، هادئ، باسم، دمث الأخلاق، ولكنه رجل أفعال ومواقف، بعيد عن النظريات، ولكنه نموذج للسياسي ورجل الدولة الذي يضع كل جهده وخبرته في خدمة المواطنين

دونما استعلاء. بعيد عن الأضواء، رغم أنه كان دائمًا في مواقع تتيح له أن يكون نجمًا من نجوم السياسة. باختصار، هو نموذج للرجل الذي نحتاجه في كل وقت. ولم تنقطع اتصالاتي به حتى وفاته.

يعتبر محمود عراسي من بين أهمّ المحافظين الذين تولوا منصب المحافظ[1] في عدن أكثر من مرة، هو ورفيقه في النضال طه أحمد غانم، فكرّس كل معرفته وخبرته خلال الفترة التي تولى فيها هذا المنصب لخدمة المدينة وأهلها وسكانها[2]، فكان مكتبه وقلبه مفتوحين للجميع دون أن يكبّل نفسه بأسوار أو حراسات، أو يعزل نفسه عن قضايا الناس وهموم المواطنين، كما يحدث اليوم، حيث لا يتحرك المحافظ إلا بمواكب عسكرية توازي حراسات رئيس الجمهورية، فكانت قوة المحافظ في الماضي مستمدة من قوة الدولة وهيبتها، لا من السلاح الذي يمتلكه المحافظ والوزراء والمسؤولون اليوم.

حتى وهو يتقلّد المناصب الرفيعة، لم يتخلّ عن منظوره الإنساني المشبع بالتواضع الجمّ والحنون على الناس، فهو مملوء

---

(1) محافظو عدن من 1967 إلى 1990 وهم: أبو بكر شفيق 1967-1968م، نور الدين قاسم 1968-1969م محمود جعفر 1969-1970م، طه غانم 1970-1981، محمود عراسي 1981-1986، ناجي عثمان 1986-1990.

(2) ومن المشاريع التي أنجزها والتي كانت مثار نقد له من قبل المزايدين باعتبارها مظاهر برجوازية: النوافير، إنارة الشوارع في المدينة، تطور شبكة الصرف الصحي للمحافظة وتطوير بستان الكمسري، الذي أُقيم في الأربعينيات، وكان متنفسًا للمواطنين، وذلك عبر إقامة مدينة ملاهٍ للصغار والكبار قبل أن تتحول اليوم إلى حديقة للحيوانات.

بالروح والبساطة والإنسانية التي منحتها إياه عدن كواحد من أبنائها، لم يتخلّ عن لغته الواضحة والبسيطة والمكتنزة بالمعاني والأفكار والأحاسيس العميقة.

إنّ من أهمّ منجزات المرحوم محمود عبد الله عراسي، ما أنجزه خلال فترة توليه منصب محافظ عدن في الفترة من 1981م وحتى عام 1986م، وهي الفترة التي شهدت أعظم المنجزات والمشاريع في الجنوب، وفي عدن تحديدًا. لقد أشرف المرحوم على تنفيذ أهمّ المشاريع الخدمية في عدن، لعل أهمها مشروع المرحلة الأولى من مشروع مياه عدن الكبرى، الذي كان يتكون من عدة مكونات، لعل أهمها إنشاء حقل آبار جديد في منطقة الروة بأبين، وجرّ المياه منه إلى حقل بئر ناصر ثم إلى عدن، في مشروع ضخم امتدّ إلى أكثر من 60 كيلومترًا، وما زالت نتائجه باقية في عدن حتى الآن. كذلك أشرف على إنشاء محطة إعادة ضخّ للمياه حديثة في منطقة البرزخ، وباشر شخصيًا بالإشراف والمتابعة والتنفيذ لأول مشروع ضخم لمجاري عدن، وأسهم في الإشراف والمتابعة لأهم مشروعات الكهرباء التي كانت متعثرة لعدة سنوات، وهي المحطة الكهروحرارية بالحسوة، حتى أنجزت في عهده، وأشرف على إقامة محطات كهربائية جديدة في كل من المنصورة وخورمكسر تُشغَّل بالديزل، وأشرف على أنجاز أول مخطط توجيهي لمدينة عدن الكبرى، ومخططات تخليقية أخرى لكل من خدمات المياة والكهرباء والمجاري

والطرقات. لقد أشرف على تنفيذ مجموعة من المشاريع السكنية في المحافظة كريمي والوحدات السكنية والسنافر والمشروع الليبي وغيرها من العمارات الخاصة بمؤسسات خدمات الكهرباء والمياه والإنشاءات. لقد كان الربان الحكيم في قيادة كل هذه المشاريع من خلال المتابعة الميدانية اليومية، مع كل المؤسسات والوزارات. ولا شك في أنه كان هناك فريق يؤازره، ويدعمه في الحكومة وفي وزارات التخطيط والمالية والإنشاءات، وفي بعض المؤسسات الخدمية، وكان هذا الفريق يوفر له كل المخصصات والمشاريع وكل الدعم المالي المحلي والأجنبي، وكان هذا الفريق برئاسة المغفور له الدكتور فرج بن غانم، ود. محمود سعيد مدحي والمهندس حيدر العطاس، وعبد الله سعيد عبدن وجعفر حامد وحسن حبيشي، وعفيف عبد الله ومحمود طرموم وأنور سحولي وبدر ناجي وعبد الله غانم وخالد بونمي وآخرين لا مجال لحصرهم. وبالرغم من أنّ عدن كانت تجمع بين الموقعين كمحافظة لها سلطة محلية "منتخبة" وكمركز كعاصمة لليمن الجنوبية، إلّا أنه لم يكن هناك أي تعارض يذكر في الصلاحيات والاختصاصات ما بين وزارات المركز وهيئات السلطة المحلية، وكل ذلك كان بفضل الحنكة والقدرات القيادية التي كان يتمتع بها المغفور له المحافظ محمود عراسي.

من الصعب اختزال حياة محمود عراسي - رحمه الله - في بضع كلمات، أو حتى في مقال. فحياته الحافلة بالأماكن والمواقف والمحتفية بالحياة وبالناس من حوله تشمل حياة كاملة، وهي تتسع لتشمل أفكارًا وكفاحًا باعثهما الروح والعقل... هذه النظرة التي صهرت أحلامنا وآمالنا ونظرتنا للحياة وعلاقتنا بالوطن والإنسان منذ كنا في ريعان الشباب نؤسس لوعي يتحرك صوب فهم قضايانا السياسية والاجتماعية والاهتمام بحياة الناس والعالم من حولنا... من القراءة إلى التنظيم إلى الكفاح والثورة... إلى الإمساك بالسلطة... إلى الخروج منها والسجن... كل هذا تاريخ للرجل يحتاج لمن يكتبه إنصافًا للرجل... ولأبو عبد الله المناضل والصديق ووفاءً له...

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن المحافظ محمود عراسي أن نشيد بدور كل المحافظين الذين سبقوه منذ 1967م، وكان امتدادًا لهؤلاء المحافظين الوطنيين الشرفاء الذين لم يبخلوا على عدن وأهلها الطيبين بالجهد والعمل لخدمة المواطنين في مدينة عدن الحبيبة، ولم نسمع يومًا عن هؤلاء المحافظين من 1967 وحتى 1990 أنّ أحدًا منهم استفاد من هذا الموقع الهام هو أو أسرته أو أصدقاؤه وبطانته، كما يحدث اليوم.

الدكتور محمد بافقيه مؤرخ، سياسي ودبلوماسي، وُلد في 28 أغسطس 1928م بمدينة أديس أبابا في إثيوبيا، عاد باكرًا إلى حضرموت وأكمل الدراسة الابتدائية في مدينة الشحر بمدرسة "مكارم الأخلاق" عام 1941م، ليتابع الدراسة في المرحلة الوسطى ابتداءً في المدرسة الوسطى بالمكلا، ويكملها لاحقًا في غيل باوزير عام 1944م، وخلالها أسّس بافقيه عام 1940م جمعية اتحاد التلاميذ الأدبية. غادر بافقيه إلى السودان لدراسة المرحلة الثانوية في مدرسة "حنتوب" بمدينة أم درمان بالسودان، حيث تخرج منها عام 1948م ليلتحق عقبها مباشرة بكلية الخرطوم الجامعية ويتخرج منها عام 1953م حاملًا شهادة البكالوريوس في الآداب. وفي أثناء دراسته بالسودان شارك في تأسيس اتحاد بعثات جنوب الجزيرة العربية عام 1946م. عقب الاستقلال عام 1967م عُين بافقيه أول وزير للتربية والتعليم ومسؤولًا عن الآثار والمتاحف حتى عام 1968م، وشغل بين عام 1969 وعام 1970 سفيرًا في المملكة المتحدة. وبين عام 1970 وعام 1972 عُيِّن سفيرًا في مصر، ومندوبًا دائمًا لدى الجامعة العربية، وسفيرًا غير مقيم في السودان. ثم عُيِّن بين عام 1973 وعام 1978 سفيرًا في فرنسا ومندوبًا دائما لدى اليونسكو، فضلًا عن كونه سفيرًا غير مقيم في كل من بلجيكا وسويسرا وإيطاليا والنمسا. وفي الفترة

بين 1978 و1982م عُيِّن سفيرًا ومندوبًا دائمًا في اليونسكو، وكان أيضًا نائب رئيس المجموعة العربية في إطارها.

توفي الدكتور بافقيه عام 2002م، ولعل من الصعوبة بمكان أن نرثي التاريخ، أو نؤرخ لوفاته أو لمسيرة حياته، هذا الشعور هو الأول الذي حضر بذهني وأنا أنوي كتابة شيء ما عن قامة تاريخية وعلمية وفكرية متقدة، عن المؤرخ الكبير الدكتور محمد عبد القادر بافقيه الذي رحل جسدًا، وبقي روحًا مبثوثةً في صفحات تاريخنا الذي التصق به كما تلتصق الفراشة في المصباح المضيء.

الفقيد الكبير الدكتور محمد عبد القادر بافقيه أشبه بالنقش الأثري الذي يدلك على حقبة تاريخية كاملة بما فيها من بشر وحجر ولغة وعلم وأدب وفن وتراث. ومثل الفقيد الكبير محمد بافقيه الذي اهتمّ بالنقوش الأثرية والأوابد والأطلال والأعماق التاريخية، يستحق أن ينقش اسمه في كل صرح علمي وتربوي كأبسط تقدير منّا لجهوده الخلاقة والعملاقة في مجال التاريخ والتراث والآثار والنقوش والأصالة بكل ما تحويه من معانٍ عشقها فقيدنا إلى درجة جعلته يتفرغ لها وينسلخ رويدًا رويدًا عن مجالات العمل السياسي والدبلوماسي والمناصب الرسمية التي كان يتبوأها باقتدار ويؤديها بكل فعالية وألق ومهارة ومهنية عالية، بدءًا من كتاباته الصحافية التي بدأها في وقت مبكر من حياته التي ترافقت مع رسالة الأنبياء (التدريس) التي امتهنها ردحًا من عمره، وهو صاحب كتاب

(أنبياء الله في جنوب الجزيرة). فقد عمل مدرسًا في حضرموت ومديرًا لإحدى مدارسها خلال الفترة 1945ـ 1957، ثم مديرًا للمعارف في السلطنة القعيطية في الفترة ما بين 1958 و1967. وعُيِّن بعد استقلال الجنوب عن بريطانيا في عام 1967 وزيرًا للتربية والتعليم، وبعد ذلك تولى الفقيد مناصب دبلوماسية رفيعة، حيث شغل منصب سفير لليمن الديمقراطية لدى مصر، وحضر معي أحد اللقاءات مع الرئيس جمال عبد الناصر في يونيو من عام 1970 في ليبيا، ثم عُيِّن سفيرًا لدى فرنسا، ومنها عُيِّن مندوبًا دائمًا لدى اليونسكو حتى عام 1982. ولم تشغله مناصبه الوزارية والدبلوماسية العليا، والآلام التي يعاني منها في ظهره عن معشوقه التاريخ، فكان يقضي وقتًا طويلًا في العواصم التي عمل فيها سفيرًا لبلاده باحثًا ومنقبًا ومحللًا للتاريخ، ومهذبًا لما كتبه بعض المستشرقين عن تاريخنا القديم.

اللقاء الأول بين رئيس الوزراء علي ناصر محمد والزعيم الخالد جمال عبد الناصر في طرابلس الغرب
أثناء الاحتفالات بجلاء القوات البريطانية والأمريكية من ليبيا في يونيو ١٩٧٠م ويبدو في الصورة السفير محمد عبد القادر بافقيه

وقد أقام أفضل العلاقات مع المنظمة والمفكرين في فرنسا وخارجها، ووظفها لمصلحة البلد، فاقترح تنظيم مؤتمر عن الآثار في عدن، حضره عدد كبير من المؤرخين والمستشرقين والآثاريين، من بينهم المستشرق الفرنسي كريستيان روبان، والكاتبة الفرنسية الطبيبة كلودي فايان صاحبة كتاب "كنت طبيبة في اليمن"، وعالمة الآثار الفرنسية جاكلين بيرن التي اكتشفت آثار مدينة شبوة القديمة، وعدد كبير من العلماء العرب والأجانب، وقد نتج من المؤتمر توصية بإصدار مجلة ريدان المتخصصة بآثار اليمن القديم ونقوشه.

تعود معرفتي بمحمد عبد القادر بافقيه إلى عام 1967م بعد تعيينه وزيرًا للتربية والتعليم في أول حكومة بعد الاستقلال، وكنا نلتقي باستمرار في المدينة البيضاء مع كل من المهندس فيصل بن شملان، ومحمد عوض باعامر، والدكتور فرج بن غانم، والمهندس ناصر عامر، والسيد محمد عوض الدبا وغيرهم من الشخصيات، نتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل، وكان يحدثنا عن رحلاته ومغامراته المشوقة في الصحراء للبحث والتنقيب عن النقوش في مناطق العقلة وجبل المعسال وشبوة ومينا قنا (حصن الغراب حاليًا)، وأخبرنا أنه عندما كان يحفر في رمال شاطئ الميناء، كان يشتم منه رائحة البخور واللبان الذي كان يجري تصديره للعالم من هذا الميناء.

كل ذلك لم يباعد بين فقيدنا الكبير، الدكتور بافقيه، ورسالته الأسمى التي نذر لها جلّ عمره وظل وفيًا لمضامينها

التربوية والإنسانية العظيمة، حتى صحّ بجدارة أن يوصف بأنه "تاريخ في قلب التاريخ".

وننتهز هذه الفرصة لندعو الجهات المعنية إلى أن تبادر إلى تكريم الراحل المؤرخ الكبير الدكتور محمد عبد القادر بافقيه على أكثر من صعيد، ولا سيما بطباعة كتاباته ومؤلفاته ونشرها، وخاصة الجزء الذي لم يرّ النور، تعميمًا للفائدة العلمية الرفيعة التي تتضمنها والتي تشكل رافدًا من أهمّ روافد ذاكرتنا اليمنية وتاريخنا العربي والإسلامي والحضارة الإنسانية على وجه العموم.

وختامًا، لا ننسى أن نعبّر عن تثميننا للدور الذي تقوم به صحيفة "النداء" الغراء ورئيس تحريرها الأستاذ سامي غالب، الذي ينمّ عن ارتقاء في العمل الصحافي وبلوغه المقاصد النبيلة، وما هذه اللفتة الكريمة تجاه هامة من هامات الوطن، الدكتور الراحل محمد بافقيه، الذي لم يحظَ - بحق - بالتكريم الذي يستحقه في حياته وبعد رحيله، إلا دليل واضح لسموّ هذه الصحيفة وسعيها للتعبير عن نبض الوطن، وهذا ما يجعلنا نتوق إلى مستقبل أفضل ونستبشر الخير، برغم كل المنغصات والهزائم المختلفة التي لاحت وتلوح في الأفق.

وداعًا ربان الأيام

هشام محمد علي باشراحيل، صحافي يمني ورئيس تحرير صحيفة الأيام التي تصدر في محافظة عدن جنوبيّ اليمن. وُلد في مديرية التواهي بمحافظة عدن في 16 يونيو1944 م، وعمل مع والده محمد علي باشراحيل، مؤسس صحيفة الأيام، ثم سافر إلى العاصمة البريطانية لندن لتلقي دورات في علم الطباعة. في 24 أبريل 2012 سافر إلى ألمانيا للعلاج بعد أن اشتدّ به المرض، ثمّ توفي هناك في 16 يونيو2012 م بعد رحلة طويلة مع المرض ونضال شاق ضد الظلم والقهر والاستبداد. رحل عنّا في زمن نحن أحوج ما نكون فيه لرجل مثل هشام.

كان، رحمه الله، صوتًا للعقل والحكمة، انحاز إلى الشعب وتبنّى قضاياه وسخّر صحيفته ووقته وقلمه لنصرة قضايا الناس، وعلى وجه الخصوص القضية الجنوبية التي جعلها قضيته الرئيسة، ودفع ثمن موقفه هذا الكثير من المحاكمات والملاحقات، وحلّ ضيفًا أكثر من مرة على المعتقلات. لم ينكسر ولم يتخلّ عن مبادئه، ومثل ما كانت (الأيام) صوتًا للحق، كان هشام وتمام صوتًا لـ(الأيام)، ورمزًا للعمل والوطني والمدني.

من منا لا يتذكر كيف كان ربان الأيام وأفراد أسرته الكريمة شامخين كشموخ جبل شمسان ومقر صحيفتهم ومنزلهم يتعرض للاعتداءات الجبانة واحدًا تلو الآخر من قبل النظام في صنعاء، النظام الذي كانت ترتعد فرائصه من صحيفة (الأيام).

صحيح أنهم تمكنوا بما يملكونه من آلية عسكرية وأجهزة قمعية وبوليسية من إغلاق (الأيام) وإسكات صوتها، إلا أنهم فشلوا في إيقاف نبض قلب العزيز هشام، كما فشلوا في انتزاع حب (الأيام) وأسرتها من وجدان الشعب، وتحولت جلسات محاكمة (الأيام) وربانها إلى جلسات لمحاكمات النظام، وكانت الفعاليات التضامنية التي تشهدها محافظات الجنوب وسامًا على صدر (الأيام) وأسرتها.

تعرفت إلى هشام باشراحيل في بداية السبعينيات عندما زارني في مكتبي بوزارة الدفاع، وحينها كنت وزيرًا، وعرض عليّ شراء مطابع (الأيام) والاستفادة منها لمطبوعات وزارة الدفاع. وكانت الصحف الخاصة حينها قد توقفت بعد استقلال الجنوب عام 1967م، واكتفى النظام بالصحافة الخاصة به، كـ (الثوري) و(أكتوبر) وغيرهما من الصحف، كغيره من الأنظمة الشمولية في المنطقة آنذاك، وشعرت وكأنه يُعدّ نفسه للرحيل، بحثًا عن عمل آخر خارج عدن، وعرضت عليه أن يختار أي عمل في مجال الصحافة، ولكنه اعتذر بأدب ولباقة. وسألته عن سعر المطابع، فأجابني بأن المطابع قيمتها اليوم كذا،

ولم أناقشه، وقبلت ودفعت المبلغ الذي اقترحه. وعلمت لاحقًا أنه لم يكن يصدق أنني سأشتري هذه المطابع بعد أن أمّمت الدولة الصحف ومؤسساتها ومطابعها، وقد علمت أنّ هذا المبلغ الذي دفعته لأسرة (الأيام) كان أحد مصادر دخل الأسرة، إن لم يكن الوحيد حينها، وهم يعيشون في الخارج، كما حدثني بذلك أحدهم. وقد التقيته في صنعاء وعدن وفي المؤتمرات التي كان ينظمها المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، واستمر التواصل معه في ألمانيا عندما كان يتعالج فيها حتى وفاته.

لقد ربطتني بالفقيد العزيز، رحمه الله، مواقف عديدة لا يتسع الحيّز لذكرها، وعانى ما عانى من صنوف الانتهاكات لمجرد نشره تصريحًا أو مقالًا أو مقابلة لـ (علي ناصر محمد)، وبلغ بهم الحقد والكراهية درجة تهديد هشام وتمام باشراحيل بالويل والثبور إذا نشرا أي شيء يتعلق بي، وكنت أتحاشى كثيرًا نشر المقالات أو التصريحات في (الأيام)، على قلّتها، تجنبًا لإلحاق الأذى بالعزيزين هشام وتمام، إلا أن صوت هشام كان يأتيني معاتبًا مرة، وغاضبًا مرة أخرى: "يا أبو جمال اعتبر الأيام صحيفتك مثل ما هي صحيفة كل وطني شريف غيور على وطنه. لقد قطعنا على أنفسنا ألّا ننحاز إلا إلى الحق وألّا ننصر إلا المظلومين، ولا نخشى من أحد. نحن على استعداد لتقديم التضحية انتصارًا للمبادئ التي آمنّا بها".

لقد كانت (الأيام) تسير بخطى ثابتة وفقًا للمسار الذي حدده مؤسسها الصحافي الكبير محمد علي باشراحيل وربانها هشام وأفراد أسرته الكريمة، فكان منتدى (الأيام)، وما زال الحضن الدافئ للمثقفين والمفكرين وكل الشرفاء في عدن، بل وفي الوطن بوجه عام، ومشعلًا للتنوير، ومنبرًا للحوار، ومدرسة للتعدد والتنوع. وكذلك الحال كانت (الأيام) مدرسة للمهنية ومشتلًا للحرية، فاتسعت للجميع بمثل ما اتسع قلب هشام الكبير لكل الأطياف السياسية والاجتماعية.

نم قرير العين أيها المناضل الكبير. لقد أراد الله أن يتوفاك بعد أن أراك حكمته في إسقاط رؤوس النظام في صنعاء... رحلت وقلوب الملايين تتمنى ألّا ترحل، ولكنها مشيئة الله عزّ وجلّ.

لقد كان رحيل هشام باشراحيل خسارة فادحة، ليس لأهله فحسب، بل للوسط السياسي والإعلامي، وللنخب الفكرية والأدبية، لما كان يمثله من رافد من روافد العمل الوطني وينبوع العطاء المتعدد الاهتمامات، وكان رمزًا وطنيًا يعتزّ به كل الشرفاء في وطننا.

السلطان الثائر علي عبد الكريم

ثمة أشياء أهم من السلطنة، والسلطة، والحكم، والنفوذ، والثروة.

الوطن... نعم الوطن... وحده نداء الوطن هو ما استدعى من السلطان علي عبد الكريم العبدلي أن يترك كل شيء من أجل كل شيء، ملتحقًا بالحركة الوطنية، بعد أن عزله البريطانيون عقابًا له على مواقفه الوطنية.

الوطن، نعم الوطن. فكل الأشياء تنتهي إلا الوطن، وكل الأشياء إلى زوال إلا الله.

لقد مضى زمن طويل منذ ذلك الحدث التاريخي الذي تخاطفته وكالات الأنباء وأجهزة الأثير والصحف والمجلات، وكان العنوان (المانشيت) الأبرز يومها.

كان قرار السلطان علي عبد الكريم الالتحاق بالحركة الوطنية تحديًا لدولة الاحتلال بريطانيا العظمى التي كانت سلطنته، كما بقية السلطنات والإمارات والمشيخات الجنوبية، تحت الاحتلال والانتداب البريطاني بموجب اتفاقيات جائرة.

كان الزمن يتغير، إذ كان زمن أفول الاستعمار وصعود المدّ القومي التحرري العربي، وتحرر العديد من البلدان العربية من سطوة الاحتلال.

وكان الزمن زمن الحرية وبزوغ فجرها في الوطن العربي، بدءًا من مصر وثورة 23 يوليو وجمال عبد الناصر. وهو ما أوصل فيما بعد قوات مصر إلى الشمال، دعمًا للجمهورية وثورة 26 سبتمبر 1962م بقيادة المشير عبد الله السلال، وعلى تخوم القاعدة البريطانية في عدن.

كانت الشعوب العربية تبحث عن الحرية بعد عقود من الاحتلال الأجنبي والحكام المستبدين، ولم يكن الجنوب وشعبه استثناءً من هذا الفجر الذي كانا يحلمان به ويناضلان في سبيله. وهكذا امتد إعصار الثورة إلى الجنوب، حيث اندلعت ثورة الرابع عشر من أكتوبر من جبال ردفان الشماء التي بشّر بها الشاعر الوطني الكبير عبد الله هادي سبيت، رفيق درب السلطان علي عبد الكريم بقوله:

يا شاكي السلاح شوف الفجر لاح
حط يدك على المدفع زمان الذل راح

ليصل هدير الثورة إلى عمق القاعدة البريطانية في عدن وسائر أرجاء البلاد، وذلك بعد سنوات قليلة من التحاق السلطان علي عبد الكريم بالحركة الوطنية، وكأنه كان يقرأ المستقبل بطريقة ما...

وربما كان للتأثير الساحر للزعيم الخالد جمال عبد الناصر، والظروف الموضوعية والذاتية المحيطة وانجذاب السلطان علي عبد الكريم إلى أفكار الحرية والثورة، وهي أمور كلها كان لها

جاذبيتها وتأثيرها الساحر بجيل ذلك الزمان، كما كان حالنا وحال الثوار الذين خاضوا معركة الحرية والاستقلال.

وفي ثنايا كل ذلك، كان عشقه الكبير لوطنه الصغير أو سلطنته لحج، وللسلاطين العبادل الذين حكموها بطريقتهم الخاصة في حب لحج، كما هو دأب أهل لحج عمومًا، فلا يتنفسون هواءً غير هوائها، ولا يفترشون أرضًا غير أرضها، ولا يمكن أحدًا أن يعبّر عن هذا الحب أفضل من الأمير أحمد فضل القمندان، ابن شقيق السلطان علي عبد الكريم، كما عبّر عنها في أشعاره وألحانه التي ملأت سمع الناس ولا تزال.

فلا أبدع ولا أروع من هذه الأشعار والأغنيات، ولا بقاع أجمل وأرحب من هذه البقاع، مائها، فلّها، كاذيها، أشجارها، وحسينيها... كل شيء في عيون القمندان جميل وساحر، ومن خلال لحج يمتد به العشق إلى أبعد الحدود (الجنوب) بتضاريسه، بحره، وصحرائه، وجباله، وغزلانه ووديانه، والمحيط المتحرك من الناس... العواطف، والمشاعر، والرغبات والأحلام والأفكار.

وكان سلاطين لحج يمتازون بعمائمهم المصنوعة من الحرير النفيس والغالي، يتوجون به رؤوسهم، متأثرين بالزي الهندي للمهراجات، ويبدو أنّ الأمير أحمد فضل القمندان من خلال زياراته للهند قد تأثر بهذا الزي. ويشتهرون أيضًا بمعاوز الحرير المصنوعة في لحج ويتمنطقون حولها بقماش من الحرير والخناجر

(الجنابي) التي يلبسونها لتظهرهم بهذه الهيبة والوقار، وهم يختلفون عن بقية السلاطين والمشايخ والأمراء في الجنوب، بل إنّ البعض من السلاطين والأمراء حاول تقليدهم بهذا الزي الذي اشتهرت به السلطنة العبدلية، والذي اختفى تدريجًا بعد قيام الدولة في الجنوب، ليحل محله اللباس الشعبي في الجنوب.

والسلطان علي عبد الكريم نفسه لعب دورًا كبيرًا في نهضة لحج الإدارية والتعليمية والثقافية والفنية، وقد لمستها خلال عملي مدرسًا ومحافظًا في لحج، فكان لها دورها بعد ذلك في رفد الجنوب في عهده الجديد بعد الاستقلال بعدد من قياداته وبعدد لا بأس به من كوادره البارزة التي أسهمت في بناء الدولة المدنية الحديثة في جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، وكان منفتحًا على ثقافات متعددة مختلطة نهل منها، وكان عهده شاهدًا على حقبة مهمة في تاريخ لحج الخضراء. ومن مآثره أنه أهدى قصره (الروضة) في الحوطة ليكون مقرًا لكلية ناصر للعلوم الزراعية التي أصبحت نواة لجامعة عدن. ومن مآثر السلطنة العبدلية أنها وضعت أول دستور في الجزيرة العربية في وقت مبكر، حيث لم تكن مثل هذه الأفكار الليبرالية في وارد أحد من حكام المنطقة.

وقد حدث لي أن انجذبت إلى هذه الأرض، وتكونت بيني وبينها وبين أهلها السُّمر الطيبين أُلفة ومحبة في السنوات التي عملت فيها مدرسًا في المدرسة المحسنية التي تخرج منها خيرة مثقفي لحج، وهناك تنسمت عطر الحسيني وروعة أغاني

القمندان، وجمعتني المناسبة في أروقتها بمناضلين منها، من أجل الحرية والاستقلال، ثم جئتها مرة أخرى محافظًا، وقد تركت لحج تأثيرها بإرثها الأدبي والثقافي والفني.

أما السلطان علي عبد الكريم - طيّب الله ثراه - فلم التقِه إلا في عام 1970م في القاهرة صدفة عندما كنت في زيارة لمصر، وكنت حينها وزيرًا للدفاع، كان معه السيد محمد علي الجفري وشيخان الحبشي. ولكن قبل ذلك تعرفت إليه من خلال تاريخه وإرثه الوطني وسيرته العامة التي كانت على كل لسان، كسلطان متنور ذي نزعة وطنية، ثم التقيته مرة أخرى عام 1998م في مقر المركز العربي للدراسات الاستراتيجية في القاهرة، وفي كل تلك اللقاءات وجدته رجلًا متواضعًا يشعّ بالمحبة، ولم يشعرني بأنه نادم أبدًا على مواقفه الوطنية.

كان متصالحًا مع نفسه، وربما كان سعيدًا لأنه لعب دورًا في الحركة الوطنية والثقافية التي أدت إلى الاستقلال.

عكوش.. قصة وطن وإنسان

قبل أكثر من 40 يومًا فقدنا مناضلًا من ثوار الرابع عشر من أكتوبر المجيد، وواحدًا من أبناء المهرة الشرفاء والأوفياء، الذين صنعوا النصر واستقلال اليمن الجنوبي بحق، وقدموا التضحيات الجسام في سبيل ذلك، وفي بناء الدولة حيثما وُجد في مؤسساتها، محافظًا ووزيرًا للزراعة والأسماك وعضوًا في قيادة الجبهة القومية والحزب الاشتراكي اليمني.

انتمى عكوش إلى حركة القوميين العرب منذ وقت مبكر، التي كان فرعها في اليمن الجنوبية الفصيل الرئيس في تأسيس الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل من الاستعمار البريطاني، وكان وجود مناضلين من المهرة أمثال عكوش في صفوف الثوار يعني أن فكرة الثورة قد غطت كل مساحة الوطن من باب المندب إلى المهرة، وأن الثوار، سواء كانوا من جبهة التحرير أو الجبهة القومية، هم من كل أبناء هذا الوطن الذي ينشد شعبه الحرية والاستقلال الناجز دون قيد ولا شرط. وكان ذلك يعني إدراكًا واعيًا من كل أبناء الجنوب بأنه لا يمكن طرد المحتل وتحقيق الاستقلال الوطني إلا عبر الثورة والكفاح المسلح بعد أن استنفد كل الوسائل الأخرى، باعتباره أعلى درجات النضال. وكان شعبنا في الجنوب محقًا في اختياره

وخياره ذاك دون أن يهمل الوسائل السلمية من إضرابات ومظاهرات ومسيرات شعبية وعصيان مدني، بل إنّ ذلك سار جنبًا إلى جنب مع الكفاح المسلح والعمليات الفدائية في المدينة والريف، فكانت أدوات ضغط إضافية على المستعمر بأن وجوده قد طال ولم يعد مرغوبًا فيه، وما عليه سوى التسليم بإرادة الشعب والرحيل. وهو ما تحقق في الثلاثين من نوفمبر عام 1967م.

تعرفت إلى المناضل محمد سالم عكوش لأول مرة في تعز، ثم في القاهرة، حيث كان الثوار يُعَدّون لمهمات قتالية والتدرب على أنواع جديدة من السلاح، وعلى حرب التحرير الشعبية التي طورها الثوار أنفسهم بعد ذلك على أرض المعارك الحقيقية في الجنوب، وخاصة في قلب المستعمرة الإنكليزية عدن أو في جبهات القتال في ردفان والضالع والشعيب وحالمين ولحج والصبيحة والمفلحي والعلوي والعقربي ويافع والفضلي ودثينة والعواذل وبيحان والعوالق والواحدي وحضرموت والمهرة، وحيثما فرضت المعركة قواعد الاشتباك مع العدو. وفي تلك السنوات، سنوات الجمر، لم يكن أحدنا يعرف إذا ما كان سيعود حيًا من أتون نيران المعارك. كان طلب الشهادة وتحقيق النصر الهدف الأسمى للثوار، ولم يكن هدف السلطة والمنصب هو الغاية. وقد استشهد كثيرون وجرح كثيرون خلال سنوات الكفاح المسلح، وكانت فكرة الحرية والظفر باستقلال الوطن تستحقان تلك التضحيات العظيمة التي قدمها شعبنا البطل خلال كل مراحل النضال الوطني الطويل من لحظة مقاومة

الاحتلال في 19 يناير 1839م إلى لحظة الاستقلال في 30 نوفمبر1967م، حيث سقطت المناطق تباعًا في أيدي الثوار، وكانت سقطرى آخر منطقة رُفع فيها علم الدولة الجديدة.

جمعتنا مع الفقيد الكبير عكوش الثورة والسلطة، وأينما وُجد كان مثالًا لذلك المناضل الشجاع والنزيه والمتوازن في آرائه ومواقفه، والذي يقوم بواجبه نحو الوطن، فلا تغيره السلطة مهما تولى من مناصب، وأغلب الوقت يكون خارجها. فعكوش هو عكوش داخل السلطة أو خارجها. فالمنصب عنده مسؤولية نحو الوطن وخدمة للمواطن، تكليف لا تشريف، لهذا عاش بسيطًا نزيهًا ومات بذات النزاهة في زمن كثر فيه الفساد وباعة الأوطان. وكان يتميز على الدوام بالصدق وصراحة الرأي، والشجاعة في اتخاذ المواقف، ودائمًا يقف حيث يعتقد أنه الحق والصواب.

رحم الله فقيدنا الغالي محمد سالم عكوش الذي فقده الوطن مناضلًا وفقدته المهرة ابنًا بارًّا، وفقدته أسرته الصغيرة أبًا وزوجًا، وفقدته صديقًا وزميل كفاح في الشدة أكثر منه في الرخاء. فالرجال تُعرَف بمواقفها في الزمن الصعب، وكان عكوش مثالًا لنوع نادر من الرجال المخلصين والبسطاء والأوفياء، كما هو دأب أبناء المهرة بصفة خاصة، وكل أبناء هذا الوطن الغالي.

علي ناصر محمد، رئيس الوزراء، يفتتح مصنع السجائر بحضور صالح باثواب، علي سالم البيض، عبد العزيز عبد الولي، ويعتبر هذا المشروع بداية الاستثمارات للقطاع الخاص في عدن

كان أول لقاء لي بالشيخ صالح باثواب[1] في عدن مطلع عام 1972م في مكتبي، وكنت حينها رئيسًا لمجلس الوزراء في حكومة اليمن الديمقراطية، فإذا بي أمام رجل نحيل، ضئيل الجسم، قصير، لكنّ عينيه تتقدان ذكاءً. وبعد أن استمعت إليه،

(1) وُلد المرحوم الشيخ صالح سالم مبارك باثواب في قرية الخرابة في منوب من فخيذة آل يزيد من قبيلة نهد في بادية حضرموت التابعه إداريًا لمديرية القطن حاليًا، في أحد أشهر عام 1935 ميلادية، وكان وحيدًا لأمه، وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الثانية بأربع سنوات. ونهد إحدى قبائل حضرموت، وتنتسب إلى نهد بن زيد من قضاعة، وفيها الحكمان، من بني معروف وآل كليب وآل عامر وآل المقاريم وآل يزيد معرف.

وجدته رجلًا مليئًا بالأمل والطموح، والرغبة في خدمة وطنه. كان قادمًا من تنزانيا حيث كوّن ثروته، وقد هاجر والده إليها ذات قرن، كغيره من الحضارم الذين حملتهم البحار وأحلام المغامرة إلى شرق أفريقيا، كما حملتهم من قبل إلى شرق آسيا حيث نشروا الإسلام عبر التجارة وحسن المعاملة، حتى تجاوز عدد المسلمين فيها اليوم المليار نسمة. كذلك أسهموا في تطوير بعض دول المنطقة وتعميرها. إلى عدن، جاء صالح باثواب الذي وافته المنية في مستشفى بالأردن في الثامن عشر من فبراير من عام 2020م، للاستقرار فيها بعد رحلة الاغتراب الطويلة. ليس هذا فقط، بل ولاستثمار ماله في مشروع صناعي تجاري، كانت له أسبابه، ولعدن أسبابها في ذلك الوقت. وكان هذا غريبًا بعض الشيء، أن يأتي تاجر، أو رجل أعمال لاستثمار ماله أو جزء منه في عدن، في وقت كان فيه التجار وأصحاب رؤوس الأموال يهربون منها بسبب إجراءات التأميم التي اتخذتها الحكومة في عام 1969م، للبنوك والشركات التجارية وشركات التأمين والتموين وغيرها، وبعد سيطرة الدولة على التجارتين الداخلية والخارجية، لكنها أعلنت في الوقت نفسه أنها على استعداد لنوع من الشراكة بين الدولة ممثلة بالقطاع العام والقطاع الخاص في إقامة مشروعات مشتركة... ولعل هذا ما جعل صالح باثواب يجتاز حاجز الخوف، ويقدم على مغامرته المأمونة في ظل دولة القانون والنظام. الحضارم معروفون بأنهم تجار بالفطرة، وتجار

مهرة بالطبع. وبهذه الفطرة والمهارة، دون أن يكونوا في حاجة إلى ارتياد الجامعات، أو دراسة الإدارة والاقتصاد والمحاسبة، استطاعوا أن يكونوا (ريبوتات) تجارية كبرى في عدن وفي المهاجر، ويسيطروا على التجارة فيها، في ظل منافسة شديدة من أصحاب الشركات الأجنبية. وكان تجار مثل بازرعة، وباشتفر، وباعبيد، وغيرهم يشكلون عصب التجارة في عدن، بالإضافة إلى التجار وأصحاب رؤوس الأموال من تعز والأجانب الهنود والغربيين. يقال إن رأس المال جبان بطبعه، والحضارم حذرون بطبعهم وعقلانيون، واقتصاديون من الدرجة الأولى. لهذا، كنت أحرص على تولية الحقائب المالية والاقتصادية للحضارم، كما نصح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واليه على مصر، عمرو بن العاص، بتولية الحضارم المال والقضاء. لكن هذا موضوع آخر. لكن أن يأتي الحضرمي صالح باثواب إلى عدن في تلك الظروف، فذلك ما يثير الدهشة. فالظروف القائمة حينها لم تكن تشجع أحدًا على القيام بهذه المغامرة، لكنه كان قد حزم أمره، وقرر المضي في ما عزم عليه، وكانت الدولة أيضًا تحتاج إلى هذا النوع من العقول الاقتصادية، وإلى مشروعات صناعية توظف اليد العاملة وترفد الاقتصاد الوطني. كان ذلك مثارًا للدهشة في تلك الظروف، لكن الرجل بدّد نظرة الاستغراب تلك التي ربما قرأها في وجوه الآخرين، وفي وجهي أيضًا، ولعل البعض تجرأ وسأله: ماذا جئت تفعل هنا؟! كان جوابه بسيطًا

كبساطته: "قال لي أبي ذات يوم: مال ليس في بلادك لا هو لك، ولا هو لأولادك". كانت تلك نصيحة أو وصية أب لأبنه. رجل خبر الحياة، وعصرته التجارب، ورأى بأم عينيه ما حدث من مآسٍ للحضارم ولسواهم في مهاجرهم الأفريقية والآسيوية، وخاصة في ستينيات القرن العشرين، بسبب الثورات والقلاقل التي حدثت هناك، وفقد الكثيرون منهم بسببها (شقى العمر).

لقد تميز المرحوم الشيخ صالح باثواب بالصبر والجلد والإيمان والتقوى وحب الناس وحب الخير، وتميز بالصدق والأمانة والإخلاص والوفاء والسماحة. وكل ذلك كان وراء تميزه وتحقيق النجاحات التي حققها هو ووالده وإخوانه وأولاده من الصفر ومن لا شيء. فقد كان هو المحور لكل هذه النجاحات من خلال المزايا الدينية والأخلاقية والمجتمعية التي تمتع بها أصلًا في سلوكه ومعاملاته، فضلًا عن القيم المادية العلمية والعملية والحضارية التي اكتسبها من خلال تجاربه في الحياة في مجال النشاط الاقتصادي والتجاري والاستثماري والمالي.

هكذا اختصر صالح باثواب فلسفته التي ورثها عن أبيه، وجاء الآن إلى عدن لينفذها عبر مشروعي مصنع السجائر والكبريت اللذين أقامهما، ولا يزالان يعملان. رحل عنا الشيخ صالح باثواب، وقد حزنت لموته، وكنت قد التقيته قبل رحيله بأشهر قليله فقط، في دبي مع ابنه عبد السلام، لكنه ترك وراءه

سيرة عطرة، وحياة حافلة تميزت بالعمل الصالح والتواضع الجمّ الذي لم تفسده الثروة، ومشروعه الاقتصادي الذي يعيل مئات العمال وآلاف الأسر. وكان مشاركًا في حقبة من التعاون المثمر والناضج بين الدولة والقطاع الخاص، وشاهدًا على حقبة مهمة من التاريخ. رحم الله الشيخ صالح باثواب، وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان.

صاحب الصولجان

وُلد البابا شنودة الثالث باسم نظير جيد روفائيل (3 أغسطس 1923م – 17 مارس 2012م) بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر، وهو البابا الـ 117. كان أول أسقف للتعليم المسيحي قبل أن يصبح البابا، وهو رابع أسقف أو مطران يصبح البابا بعد البابا يوحنا التاسع عشر (1928 – 1942) ومكاريوس الثالث (1942 – 1944) ويوساب الثاني (1946 – 1956). وهو من الكتّاب أيضًا الى جانب الوظيفة الدينية العظمى التي يشغلها، وكان ينشر في جريدة الأهرام المصرية بصورة منتظمة. أعلن الأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس يوم السبت 17 مارس 2012م، وفاة البابا شنودة الثالث،

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، عن عمر يناهز 89 عامًا.

وقد تابعت مشهد وداعه بتأثر... عشرات آلاف المشيعين من المصريين، مسيحيين ومسلمين وممثلي الكنائس في العالم ورجال سياسة وفكر وأعمال... كلهم اجتمعوا لوداع من يستحق أن يُحسن وداعه، ولا سيما أنه أحسن دائمًا وداع الآخرين.

فكرت في ذلك وأنا أتذكر وجهه المبتسم ويده الملوّحة، حين أصرّ بتهذيبه وتواضعه الجمّ على وداعنا حتى باب السيارة، بهامته المهيبة وثوبه البابوي، والصولجان في يده... كل منهما أعطى روحه للآخر على مدى أربعة عقود... وعلى باب الكاتدرائية وقفنا جميعًا في انتظار السيارة التي تأخر وصولها إلينا، وهمس رفعت السعيد في أذني مازحًا: "خلينا نمشي قبل أن يقع البابا"، الذي كان يتكئ على صولجانه، وكان رفعت يمازح البابا إلى أن تصل السيارة.

قابلت قداسة البابا شنودة في القاهرة في أكتوبر 2001م برفقة الصديق الأستاذ رفعت السعيد الذي تربطه بقداسته علاقة ودية وشخصية حميمة في الكاتدرائية في العباسية.

كان لديه حضور، وقار وهيبة وقرب من القلب، لم تفارق الابتسامة وجهه طوال اللقاء، ابتسامة صادقة تشعرك بأنك تعرفه منذ زمن بعيد... ولم يفاجئني أن أكتشف من خلال

حواري معه رجلًا حكيمًا، حاد الذكاء، شخصية قوية وبديهة حاضرة، رجل سياسة من طراز رفيع. حديثه المشوّق ومرحه ولباقته العالية أنستنا أننا ضيوفا. ازددت اقتناعًا بما كونته عنه من انطباع قبل أن ألتقيه، الرجل الموسوعي الثقافة، الذي درس التاريخ والآداب وأحبهما، واتّسم في ذات الوقت بقوة العقل وصلابة الإرادة والقدرة على استشراف المستقبل وتحديد الأولويات. أليس مفهومًا أنّ يشارك رجل كهذا في عديد من المواقف والأحداث التاريخية الهامة في النصف الثاني من القرن العشرين؟

أستطيع، وقد قابلت في حياتي عددًا لا يستهان به من الزعماء والشخصيات الهامة في مختلف أنحاء العالم، أن أقول إنّ البابا شنودة الثالث امتلك كاريزما غير عادية، تتناقض والصورة النمطية أو الفكرة الشائعة في الأذهان عن رجل الدين الصارم الشديد الجدية. فقد أظهر في حياته كلها أنّ الدين ابتسامة وبهجة وأمل في فردوس الحياة الأخرى.

يتفق المصريون، وقد خرجوا في جنازته بالملايين في مشهد تاريخي أعاد إلى الأذهان جنازة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، على أنّ السمة الرئيسة في شخصية البابا شنودة، أنه حكيم قاد الكنيسة القبطية وسط أنواء غير يسيرة، وخاض معارك وطنية بإيمان وحب صادق لوطنه مصر. لذلك، لم يتنازل قطّ طوال

تجربته التي تمتد نحو أربعين عامًا عن مواقفه وثوابته الوطنية والقومية والإنسانية المخلصة.

وإذا كان بعض الباحثين قد توصلوا إلى أن عبد الناصر كان واضح الدلالة والتمييز بين مفهومي العروبة والإسلام، فالمفهوم الأول عنده ينطوي على أمة عربية واحدة، فقد كان يستخدم مصطلح الأمة عند الإشارة إلى العرب (الأمة العربية)، بينما كان يستخدم صفة "العالم" عند الإشارة إلى المسلمين (العالم الإسلامي)، فإنني أحسب أنّ البابا شنودة فعل شيئًا في هذا الاتجاه في ما يتعلق بالعروبة والمسيحية، ولعل ما يكشف عن هذا مواقفه القومية المشهودة والمتسقة مع النهج العروبي القومي، وفي المقدمة القضية الفلسطينية وعاصمتها القدس.

"مصر ليست وطنًا نعيش فيه... بل هي وطن يعيش فينا".

كانت هذه المقولة الشهيرة للبابا شنودة الذي لم يكن رجل دين منزويًا، بل كان مناضلًا مصريًا وطنيًا بحق يعيش قضايا أمته وشعبه، مخلصًا شجاعًا في الدفاع عنها، وبشكل خاص قضية فلسطين والقدس الشريف. ألم يرفض الذهاب إليها، رغم توقه، بما أنها ترزح تحت نير الاحتلال الصهيوني؟ بل وحرّم زيارتها على رعاياه، ما جرّ عليه خصومة قوى أجنبية نافذة إقليمية ودولية. ولم يتنازل البابا شنودة الثالث عن موقفه هذا قيد أنملة. وكذلك كان موقفه حاسمًا تجاه قضية "الحماية الدينية" والتدخلات الدولية الموسمية بحجة متابعة أحوال المواطنين

المسيحيين المصريين. هذا كله زاد من أهمية الكنيسة ومكانتها وأبعاد دورها، وهو في فعله هذا يؤكد أنه الأكثر إدراكًا لخطورة ورقة الأقليات في المنطقة كورقة ضغط يمكن اللعب عليها لمصالح مشبوهة.

لذلك كله مما ذكرت، ومما غاب عن الذكر، لم أستغرب أن يبدى - خلال لقائنا - اهتمامه باليمن والأوضاع العربية عمومًا، وأن يسأل بصفة خاصة عن مدينة عدن التي طالما تعايشت فيها الديانات كافة. كان رحمه الله في الحقيقة واسع الاطلاع، متتبعًا دقيقًا لأحوال الوطن العربي.

لن يحسب للبابا شنودة مواقفه الوطنية والقومية فحسب، بل وقيادته للنهضة الجديدة في الكنيسة المصرية التي يعود تاريخها إلى ألفي عام. فقد كرّس عروبة المسيحية المشرقية، وفتح الحوار مع جميع التيارات الفكرية العالمية. وفي عهده أُنشئ عدد كبير من الكنائس، سواء داخل جمهورية مصر العربية أو خارجها، وانتقلت الكنيسة القبطية من المحلية إلى العالمية.

وسيذكر التاريخ للبابا شنودة الثالث أنه كان لأربعة عقود صمام الأمان للوحدة الوطنية، من خلال روحه الإنسانية وتسامحه وعلاقاته الوطيدة بشيوخ الأزهر الشريف وعلماء المسلمين والمؤسسات الإسلامية. أدار بحكمة ملف العلاقات بين المسلمين والأقباط، وأسهم عدة مرات في نزع فتيل أزمات كادت تشعل الشارع المصري. وبقدر ما كان حريصًا على

الوحدة الوطنية بين كل المصريين، فقد كان حريصًا على الوحدة المسيحية العالمية، وفي هذا المضمار حقق قداسته إنجازًا تاريخيًا، حيث تمّ على يديه الوفاق والوحدة بين الطوائف المسيحية الأربع: الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، والأنجليكان، في موضوع الإيمان بطبيعة السيد المسيح عليه السلام، منهيًا بذلك خلافًا استمر حوالى ألف وخمسمئة وخمسين سنة.

رحل قداسة البابا شنودة عن عمر يناهز 89 عامًا... ولا شك في أنّ مصر فقدت برحيله عقلًا حكيمًا وقلبًا رحيمًا، ورمزًا حقيقيًا من رموز الوطنية، يحتل مكانة كبيرة في قلوب الجميع. والسؤال الذي يطرح نفسه بعد رحيله: هل يمكن تعويض رجل بكل تلك المواصفات؟!

مصر ولّادة، ولدت رجالًا بنوا الأهرامات، وأبا الهول، وشقوا قناة السويس وشيدوا السد العالي وغيرها من أعمال عظيمة... وهي تستطيع إنجاب من يملأ هذا المنصب بجدارة. فالكنيسة المصرية، وهي الكنيسة الأقدم في العالم، التي ثبتت على العقيدة أكثر من ألفي سنة، ستملأ بالتأكيد هذا الكرسي الجليل برجل كفء، يحب مصر، ويسعى لتبقى آمنة وسالمة كما أرادها الراحل "البابا شنودة الثالث"، وكما نحبها جميعًا. ففي استقرار مصر استقرار للأمة العربية وشعوب العالم.

قليلون جدًا هم الذين يبقون بعد رحيلهم.

حتمًا كان "البابا شنودة" واحدًا من هؤلاء. فقد ترك بصمته على عصره، وعلى التاريخ، وترك منارة هدى لمن سيأتي بعده. وقد حدثني الدكتور رفعت السعيد الذي كانت تربطه علاقة وصداقة خاصة مع البابا أنه كان ينقل إليه آخر النكات بالشارع المصري في غياب مساعديه، وكان البابا يطلب منه في اللقاءات معه أن يسمعه آخر النكات التي يشتهر بها الشعب المصري عندما ينتقد حكامه. بل إنّ عبد الناصر كان يتابع مثل هذه النكات عبر مكتبه ويكلفهم دراسة هذه النكات، لأنها تعبّر أحيانًا عن مظالم الشعب المصري. وأخبرني الدكتور رفعت أيضًا أنه كان يطلب من البابا في غياب مساعديه أن يرفع الغطاء الذي يغطي رأسه، ويقول له: "هوي راسك مولانا". فيرفعها البابا، وعندما يشعر بدخول مساعديه يعيدها من جديد، ويضحك الاثنان، وكان رفعت صديقًا للبابا ويرتب بعض اللقاءات لبعض الشخصيات معه وليس عبر مراسيمه.

المجد والخلود للبابا شنودة وللدكتور رفعت السعيد.

المطران هيلاري كابوتشي

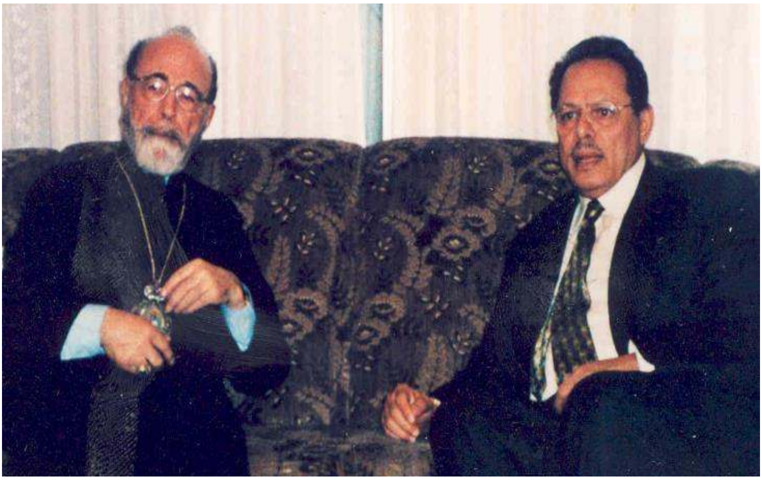

وُلد المطران هيلاريون كابوتشي بمدينة حلب في 2 مارس 1922م، وهو رجل دين مسيحي سوري. أصبح مطرانًا لكنيسة الروم الكاثوليك في القدس عام 1965م، وعُرف بمواقفه الوطنية المعارضة للاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، وعمل سرًّا على دعم المقاومة. اعتقلته سلطات الاحتلال في آب 1974 في أثناء محاولته تهريب أسلحة للمقاومة، وحكمت عليه محكمة عسكرية بالسجن 12 عامًا. أُفرج عنه بعد 4 سنوات بوساطة من الفاتيكان، وأُبعد عن فلسطين في تشرين الثاني 1978وقد أمضى حياته بعد ذلك في المنفى بروما حتى وفاته. كرّمه السودان ومصر وليبيا والعراق وسورية والكويت بطابع بريد يحمل صورته. ونشر المناضل الراحل داوود تركي شعرًا مخصصًا

للمطران، معبّرًا عن تقديره واحترامه العظيمين له. في شباط 2009 كان المطران كابوتشي على متن سفينة الإغاثة ضمن أسطول الحرية التي كانت تحمل الأمتعة والغذاء لأهالي غزة المحاصرين من السلطات الإسرائيلية، وقد صودر كل ما فيها، وطُرد كل من كان هناك إلى لبنان. وأعلن الفاتيكان مساء يوم الأحد 1 يناير2017 وفاة المطران هيلاريون في العاصمة الإيطالية روما عن عمرٍ ناهز 94 عامًا، وبوفاته فقدت فلسطين والقدس والمسجد الأقصى الرجل الشجاع الذي كان يدافع عن القضية الفلسطينية العادلة وعن المسجد الأقصى.

تعرفتُ إلى المطران كابوتشي عام 2001م في أثناء اجتماع اللجنة الشعبية العربية لدعم الانتفاضة الثانية ومقاومة المشروع الصهيوني التي كنتُ رئيسًا لها، واستمرت العلاقات بيننا منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته عام 2017م. وقد حدثني كثيرًا عن ذكرياته في القدس والمسجد الأقصى ومنبر المسجد التاريخي الذي

أحضره صلاح الدين الأيوبي من مدينته، مدينة حلب، وذلك عندما استعاد المسلمون بيت المقدس عام 1187م. وقد كان لهذا المنبر الجميل مكانة خاصة، حيث إنّ السلطان نور الدين زنكي هو الذي أمر بإعداده ليوم تحرير الأقصى، والذي أُحرق بعد

782 عامًا من قبل الصهيوني الأسترالي الجنسية دينيس مايكل روهان في 21 أغسطس 1969م، وانتفضت الجماهير العربية حينها من أجل الأقصى، وهي التي انتفضت مرة أخرى بسبب قرار إعلان الرئيس الأمريكي القدس عاصمة لإسرائيل، وسط صمت رسمي عربي لم يعرف له التاريخ العربي والإسلامي مثيلًا. وفي كريتر - عدن عام 1969م، وفي ذروة الحماسة الجماهيرية التي كانت تهتف للأقصى وللقضية الفلسطينية، أعلن الرئيس سالم ربيع علي في خطاب جماهيري إدانته لهذا العمل الإرهابي، والتضامن مع القضية الفلسطينية وقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية بسبب دعمها لإسرائيل، واستمرت حتى عام 1990م.

وقد ربطتني علاقات جيدة مع المطران يوحنا إبراهيم، مطران حلب، ومطران السريان في معلولا، زكا الأول عيواص.

الفهرست

مقدمة 5

الفصل الأول

الآثـــــار

الآثـــــار 13
التنقيب عن الآثار وحماية شبام القديمة 16
اكتشاف شبوة القديمة 17
هاميلتون 24
ريبون وحضارة حضرموت 25
ويندل فيليبس واكتشاف سبأ وقتبان 30
حماية شبام القديمة 36

الفصل الثاني

الثقافة لا تزدهر إلا بالحرية

دار الهمداني 47
الكتاب العرب 48
معارض الكتب 49
الرعيل الأول...50
قارئ لا يفهم!...51
السفينة والرياح 52

الفصل الثالث

الأدباء والفنانون العرب واليمنيون

القمندان.. أمير الجيش والشعر...57
الجوقة التاريخية 62
القمندان أمير الشعراء في لحج والجنوب 64
المحبة عذاب من صاب الله بها صاب 66
غزلان بالوادي 68
البردونـــي والقمـندان 84
مؤلفاته 86
وفاته 87
"دموع الأربعين" 87
عبد الله هادي سبيت... الروح الوطنية 88
فـي وداع الشاعر الكبير عبد الله هادي سبيت 90
شاعر الشعب مسرور مبروك..96
لطفي أمان.. المزهر الحزين...105
الشاعر الكبير جرادة() 111
حسين المحضار عاشق الشعب والشحر والشعر 115
الوداع الأخير 119
البردوني... الراحل الكبير...123
الخطبة التي سجنت البردوني...132
أبو بكر سالم... صمتت القيثارة 135
ناصر الحميقاني 143
الشاعر والملحن جمل الليل الكاف، وعلى اليمين الفنان عبد الرحمن الحداد
....144
الكاتب والصحافي سعيد عولقي() 147
مع الجواهري من موطن الثلج زحافًا إلى عدن.......................................152
رسالة إلى الأسد: 157
محمود درويش ضمير فلسطين الذي لم يسافر 160
خلود العظماء.. نجيب محفوظ.. 164
الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودي 169
وفاة الأبنودي 179
لقاء في الفضاء مع سلطان العويس 181

الفصل الرابع

الرؤساء والسياسيون

حزيران شهر الأحزان والأحداث الجسام..193
المناضل قحطان الشعبي 202
سالم ربيع علي 210
ما بعد مقتل الغشمي...216
ماذا جرى في 26 يونيو؟ 222
إعدام الرئيس 224
عبد الفتاح إسماعيل...227
فيصل عبد اللطيف الشعبي...233
محمد علي هيثم 244
مقبل فقيد الوطن والشعب والأحلام التي ضاعت 252
المناضل الشهيد جار الله عمر 259
فقيد الوطن عبد القدوس المضواحي..276
عمر الجاوي 281
فقيد الوطن الكبير فرج بن غانم 299
بن شملان .. وطن إلى الرفيق الأعلى..305
فقيد الوطن وعدن محمود عراسي 311
الدكتور محمد بافقيه تاريخ في قلب التاريخ 317
وداعًا ربان الأيام 322
السلطان الثائر علي عبد الكريم...326
عكوش.. قصة وطن وإنسان 331
رجل الأعمال والخير الشيخ صالح باثواب 334
البابا شنودة في وداع الإنسان صاحب الصولجان 339
المطران هيلاري كابوتشي 346